فريق متميزون

E-BOOK

رواية

شجرة الحناء

محمود توفيق

دار البشير

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

<u>انضم الى الجروب</u>

<u>انضم الى القناة</u>

شجرة الحناء

رواية..

محمود توفيق

عن الرواية..

وامتلأ الحي بالصيحات والزعاريد، وكل أصوات الجنون النابعة من أنفس تخاف من الغيب، وكل لوعات القلوب التي تبحث عن ولي، عن حارس، وقد أوشك الناس في تلك اللحظات الكاملة أن يصابوا بالجنون في اعتقادهم في الشيخ، وأن يصابوا بالعمى في احتقارهم للمعرفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإهْداء

إلى نبتة الفول التي زرعتُها في بيتي صغيراً حتى استطالت، ثّم لم أحرْسها جيدًا عندما جاءت أسرة إلى بيتنا وتركتها عرضة للفضول، فانتزَعها طفلهم وأبكاني عليها وأنا أراها شيئًا مرتخيا فاقدًا للحياة، ومنها إلى كل التّكرارات الغريبة للمشهد الحزين الذي كان في الصدر من كتاب العمر، كل هؤلاء البشر الذين كانوا بالحق شجرات خضراء تضرروا من غفلتي؛ أهدي (شجرة الحّناء) التي حرستها بروحي ورعبي، ولم أغفل عنها إلى المنتهى، على سبيل الحنين والأنين، وبالِغ الاعتذار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجرْو

ها هو ذا الفجرُ يولَد على مهل، والأرجوانُ آخذٌ في الانسكاب الهادئ المهول في أرجاء الكون كلّه؛ ويدنو، ويتدلّى إلى الأرض الغافية، ومِن بين سحب ذلك الأرجوان المتراكمة تنزلُ أشعة الشّمس ببهائها بيضاءَ بغير وهج، كأنّها تنزل في رؤيا. وعاملُ القصر يمضي في وجل في هذه السّاعة المبكّرة، ويتقدّم بخطواته البطيئة الحَذِرة، بينما الضُّوء يزيد مِن حوله شيئًا فشيئًا مع هذه الخطوات، ويأخذُ في كشف معالم مقبرة واحة الشّهوب، التي في قعر ذلك المنخفض الذي يحفّ به النّخيل، عند طرفٍ من أطراف الواحة، وكانت الوطاويطُ على وشك إنهاء تلاطمِها بين أشجار العوسج القليلة، كأنّها سريّة حراسةٍ مسحورة منْذورة أبدَ الدّهر لهذا المكان طيلةَ اللّيل بغير سأم، لتختفي بعدَ ذلك بمطلع الفجر، كما تختفي بلطفٍ كائناتُ الأحلام؛ ومع اختفاءِ الوطاويط، انجلتْ شواهدُ القبور، والأحجار البيضاء النّاصعة، المغروسة في الرمل، التي تبدو كأنّها قبابُ جماجم موتى، تنعكسُ عليها أشعّة الفجر الخافتة الندية.

بعد أنْ نزل عاملُ القصر في المنخفض الذي يضمّ المقابر، وقف متعجبًا وهو ينظر إلى الرجل الذي يبحثُ عنه، الذي يتمدّد على الأرض نائمًا وقد وضعَ ساقًا على ساق، وهو لا يفهم كي يطمئنّ هذا في نومه عند المقابر، ولا تلعب به الأرواح والأوهام؛ وأخذ يقتربُ من هذا النائم ذي الرّأس الكبير، والشّعر الخروبي القصير، والوجه الجاف الذي يغطي النّمش البني نصفه، كأنّه مسحوق من السّماق على خبزة جففتها الشمس.

إنّه الجرو، الفقيرُ الذي لا يمتلك أيّ شيء، ولا يحرص على امتلاك أيّ شيء، الذي له عرجة بسيطة، رائقُ البال، المنزوي، قليلُ الكلام، الدّاهية، المتواضع الهيئة، الذي لا يعطي اهتمامًا للعامّة، ولا لمديحهم، وكذلك لا يخشى أصحاب المكانة ولا يتمسّح بهم، والذي يتمتع بثقة راسخةٍ بنفسه لا يهزّها الواقع، يغطّ في نومه.

انكفأ عاملُ القصر عليه، وأخذَ برفقٍ وحرص يربّت على يديه الموضوعتين على صدره، ففتح الجرْو عينيه بوجهٍ عابس وملامح مستفسرة عمّن هذا الذي قطع عليه نومه، وأبلغه العامل بغير مقدّمات أنّ زوجة الأمير تسأله أين أنت ممّا جرى؟

هزّ رأسه واعتدل، ونظرَ نظرة ميّت للرّجل، ثمّ تمطّى وأخذ يشمّ في عود ريحان كان بجانبه قبل أنْ يقوم، وأخذ يسمع ما يقوله الرّجل عن حاجة زوجة الأمير الشّديدة إليه، بغير كثير عناية.

هذا الفجرُ الذي استيقظَ فيه الجرْو عند المقابر، كان الفجرُ الثّالث الذي يبزغ على أمير تلك الواحة في الأسر، وكان الأميرُ قد استيقظ في سجنِه الحديدي المُقام في العراء في هذا الوقت الذي استيقظ فيه الجرْو، استيقظ مُفتقدًا في نور الفجر لأيّ بصيص من أمل.

أميرُ تلك الواحة الغنيّة التي يسكنها ما يربو عن عشرة آلاف نفسٍ صار أسيرًا، وطارت الزّوابع بخبر هزيمتِه الماحقة والانقضاض الغريب عليه من جيرانه في حيّ المناصت الذين لا يبعدون عنه سوى ثلاثة أميال لا غير، ولا يزيد عددُهم عن ثلاثة آلاف إنسان. وصار كلّ النّاس في أنحاء إقليم (السّارحة) الصّحراوي الذي يضمّ أكثر من ثلاثين بلدة من بينها البلدتان يتكلّمون فقط عن يوم

الضّباب، اليوم الذي وقع فيه الأميرُ الشهير في الأسر، و(يوم الضباب) هو الاسمُ الذي أطلقه المهزومون أنفسُهم على ذلك اليوم، أمّا المنتصرون الذين أسروا أمير الشّهوب، وحبسوه عندهم، فنسوا أنْ يطلقوا على هذا اليوم العظيم اسمًا؛ وقد جرى الوجع على أنْ يحسن المهزوم اختيارَ اسم هزيمته، أكثر ممّا يحسن المنتصر تسمية انتصاره.

لقد صار الخبرُ حديثَ كلّ النّاس في السارحة؛ فواحةُ الشهوب التي خطفوا الأمير منها، باتساع رقعتها، وكثرة أهلها، وعراقة عمرها، تبدو مثلَ عاصمة لهذا الإقليم الذي يعاني من قلة الأخبار؛ واللّقب الذي يحوزه الرجلُ كما حازه أبوه وجدّه، وإن لم تكنِ الدّولة تعلم عنه شيئًا، إلّا أنّه في هذا المجتمع الذي نما وتشكّل بإرادةِ الحياة وحدها، هو حقيقي تمامًا، عند أحباب الرجل والحاقدين عليه، ولا يشكّ فيه الآن إلّا الأمير نفسه في نوباتٍ من الشّك تعصف به بعد أن ذاق ما ذاقَ من الهوان.

وبسبب جنونيّة الخبر الذي أيقظ المتوزّعين في كلّ رجا من أرجاء الصّحراء من سباتهم، بدأ النّاس يتحجّجون بزيارة أصدقاء لهم في حيّ المناصت، ليعرجوا على القفص الموجود في العراء في خروجهم، برفقة أصدقائهم الذين يعرفون جيدًا سببَ الزيارة، لرؤية ذلك المشهد النّادر لأميرٍ ذليل في قفص، تحيط به مظاهر الاحتفال المدوية.

وقد اقتربَ من القفص زوّار لديهم من الحياء ما جعلهم يكتفون بالنّظر إليه من بعيد قليلًا، ومن غير أنْ يقفوا بناحية وجهه، رغم أنّه لا يعرفهم؛ والتصقَ بالقفص زوّار لديهم من قوّة العين ما جعلهم يحشرون وجوهَهم بين الأسياخ كأن حبس الأمير قد نزع منه روحه الآدمية، وصار شبيهًا بالنّاس، هذا رغم أنّ منهم مَن كان يأكل على موائده.

وقد تهيّجت بهذا الأسر عواطفُ هذه النّوعية من البشر الذين يحبون الانتصارات الهائلة وفواجع التّحطيم وإذلال الأعزّة دونَ أن يكونوا محبّين للمنتصر أو كارهين للمغلوب، فجاءوا وهلّلوا وصاحوا، بوحي من فطرة البُغض. وكذلك تحرّكت أحزان المؤمنين بغدر الأيام، الذين تستثيرهم دائرتها على الأكابر والأصلاء، فجاءوا بغير أيّ شهوة لسماع المبررات والمُلابسات، وبكلّ الهمّ؛ لرؤية أميرٍ في قفص، يقف الذّباب على وجهه، وتحط الطيور على سقفه، وتلقي بفضلاتِها على شعر رأسِه، شعرِ رأسِه الغزير الذي صار بفعل الغبار والعرق والماء القذر الذي يرْميه عليه الصّبيان، تمامًا مثل صوف الخروف.

أميرُ الواحة السّجين، الذي فتح عينيه في ذلك الفجر بغير أيّ أمل، لديه تشوّش بشأن ما حدث في يوم الضّباب كتشوّش الأطفال عندما يحاولون تذكّر أشياء يكرهونها، وقد استيقظ مثل كلّ يوم فوجد نفسه رغمًا عنه يتذكّر ما حدث، ويعيش اضطراب الدّقائق الأولى من جديد، يتذكر أنّه قد كأن هناك في ذلك الصّباح النّحس ضباب خفيف نازلٌ إلى الناس، يمرّون فيه، ويعبر مزارعهم، وتفوحُ منه رائحةٌ كرائحة أفواه النّائمين، وقد كان يقف متأمّلًا عند باب قصره الخلفي المطلّ على النّهر الصغير، في الواحة التي تعوم على بحيرة من المياه الجوفية، تهبّ عليه روائحُ البساتين، ويستمعُ إلى أصوات الطّيور الغادية، ثمّ إنّه وجد نفسه يفعل كما كان يفعل في صباه، خلع حذاءه، وسار حافيًا على الصّخور الصقيلة التي يغمرها القليل من ماء الجدول الواسع الذي يسمّونه النّهر، وهو لا يرى قدميه الغائبتين في الضّباب، وفيما هو ينظر إلى حدأة حامتْ أمامه ثمّ نزلت إلى الأرض بسرعة قويّة

وغابت عن نظره، ثمّ صعدت إلى سطح قصْره الطيني، وهي تحمل حمامة ممزّقة تعكر مزاجه لرؤيتها، استمع لأصوات قادمة آخذة في الارتفاع تنذرُ بهجوم مباغت من المناصت، أصواتٌ مذعورة تقول إنّ هذا الهجوم يشقّ الطريق إلى قلب الواحة.

ارتبكَ الأمير بسبب هذا الهجوم العميق الذي ليس له ما يبرّره، فقد كان هناك خلاف تمّ حله، بعد إصاباتٍ بسيطة في الفريقين في المناوشة التي انتهت. كان الهجوم غريبًا ومشابهًا لحنق الطّبيعة المباغت، كإعصار نزل مرّة واحدة بغير نذرٍ على غابة وارفة بنيرانه فقضى عليها بغير مقدّمات، كان هذا الهجومُ كلبؤةٍ استيقظت في مزاج نكد ومسعور، وأخذت تمزّق أشبالها بأنيابها، وتحطّم عظامها الطريّة بغير ذنب. ووجد نفسَه يسرع إلى شجرةِ البلوط العجوز القريبة التي اعتادَ منذ صباه على الوقوف عندها، واستندَ إليها بكفّيه، والضّباب يغطي نصفه السّفلي، وكان يقف صامتًا وهو ينظرُ إلى جذعها بعينين خاشعتيْن، كأنّه ينتظر أن يُوحَى إليه، ثمّ شعر بأنّه لا عزمَ عنده ولا ذكاء، وأنّه خواء، وأنّه سيقف تحت البلوطة إلى أن ينتهي كلّ شيء، وآمن بأنّ هذا الهدوء الذي يلفّه ويشلّ إرادته هو الهدوء الذي يرسله الشؤم أمامه. هو لم ينمْ في وقوفه، ولم يُغشَ عليه، ولكنّه كان في حالةٍ كالنوم كما يقول، إذ لم يذكر من بعد هذا إلّا أنّه وجده نفسه فجأة مخطوفًا على صهوةِ حصان فاحم اللّون بغير أيّ مقاومة، غائب الأحاسيس في وقع الحوافر، ولم يكنْ يشعر بأيّ شجاعة عنده، ولا يشعر بالكثير من الخوف. لقد اختاره المغيرون تقريبًا هدفًا وحيدًا، وشقّوا الطريق إليه بسرعة الحربة المقذوفة، ولم يعطّلوا أنفسهم بأيّ نهب أو تحطيم، ولم يقعوا في أيّ فخ من الفخاخ السّبعة المنصوبة بعناية في السبيل الوحيد الملائم والمغري باقتحام باحةِ القصر، الذي يحفّه سياجان من الشّوك، والذي تسدّه في أوّله عارضة من القصب، حطّموها كما يفعل الأغبياء، وأسرعوا في الطّريق الذي يبدو بوضوح أنّه معدّ للاستدراج، وقد عطّل حظّ الجاهلين سعار الكلاليب والأمشاط الحديدية المرعبة التي كان يجب عليها أن تشقّ لحومهم ولحومَ أحصنتهم، وعطّل النابض الذي كان عليه أن ينفلت ويجعل المنْجنيق المتواري يرجمُ المهاجمين بالأحجار ويحطّم جماجمهم. لقد تأهبت الفخاخ كلّها في مكامنها الخفيّة في الأعشاب منذ سنين، بكامل الغيظ والتوتر، وعندما مرّوا في طريقها تركتهم يمرّون في سلام. وقد كان مترهّلًا جدًّا فوق الحصان المنطلق، لدرجة أنّه وقع مرتين على الشّوك والحصى، وشعر بدمِه السّاخن على ذراعيه وظهره، وكان يستسلم في كلّ مرّة ليدَيِ الفارس الشّديدتين وهُما تحملانه مرّة أخرى كما يستسلم الطّفل لأمّه وهي تحمله لينام في سريره.

بعدَ قليل، دخل الجرْو وحده لبهو القصر الكبير المبنيّ بالطين، ومضى بثبات في المستوى الأوّل من البهو وهو في طريقه إلى المستوى الأعلى حيث تجلس الشّيخة شمسة زوجة الأمير على أريكةٍ وتكلّم خادمًا. وقد رفق الذّل بالأميرة الجميلة القوية في مصيبتها، وكسا وجهها النَّبيل بشيء من الذّهول، بدلًا من المهانة، على عكس عاداته مع البؤساء الذين يتفنن في التّعبير عن نفسه ببراعة على صفحة وجوههم.

صعدَ الجرْو إليها بهيئته المتْربةِ التي قام بها من نومِه عند المقابر، وهي تستقبله وهو صاعد إليها بنظرةٍ مسرورة، فالتقط بيدِه تفّاحة من صحن، وقضم منها قضمة، ثمّ ألقاها في الصحن، فهزّت رأسها مشجّعة وقد اعتراها شعورٌ بالطّمأنينة، فسلوكه الغريبُ المعبّر عن الثقة واشتعال الرّأس بفعل الذكاء، هو ما كانت تنتظره بفارغ الصّبر بعد أن مرّت عليها ثلاثة أيام وهي تتخبّط في بطانة السّلطة

الحائرة بين وجهاء عصبيّين زادوها ارتباكًا، ولم يفلح أيّ منهم في أن يجبرها ويجبرَ مَن حوله على أن يتّبعوا رأيه، ومرّت عليها الثلاثة أيّام وهي تتخبط أيضًا بين الرّوحانيّين القادمين من غير دعوةٍ من جوف الواحة من عند مقام الشّيخ علبة الذي يعتبرون مسجدَه معهدًا روحيًّا لهم، الذين أسرعوا إليها كاليعاسيب، رجلًا وراء الآخر، يعرضون عليها تحريرَ الأمير بخوارقهم، ثمّ أخفقوا جميعًا وتحجّجوا بحجج لم تصدّقها، وعادوا بغير اعتذار.

لمّا وصل إليها ووقفَ أمامها على المسافة التي توحي بالاحترام، ملأت فمها بالنّداء باسمه بصوتٍ فيه ثقة وحزن، ثمّ سكتت: (يا الجرْو)؛ وهو تعبير من سيّدة عظيمة مثلها عن الثقة الموضوعة في إنسانٍ بسيط، تعبيرٌ جميل عن التكليف، مفعَم بالكبرياء والتقدير، فأيقن الجرو أنّه تمّ إسناد الأمر إليه وحده.

سكتتْ قليلًا ثمّ قالت، بنبرةِ زوجة محبّة جريحة: همَّ..، ثمّ قطعتها وتكلّمت بالشكل الرسمي المناسب: الأمير همَّام في مهانةٍ وضيقٍ عند هؤلاء الأبالسة، ونحن هنا في بحبوحة، وأنا أسامح مَن لا حيلة لهم إنْ ناموا وأميرُهم في القفص الذي صنعه الرّجل المجرم، أمّا أنت، ومِن اليوم، يجب أنْ لا تهنأ بنوم، فليس لها في الحقيقة إلّا أنت، وأنا- وربّك- قد تعبت من الاستماع إلى مَن لا يقْدرون على شيء.

فقال لها بكلّ هدوء: سأعود إليك يومًا ما وأنا أسيرُ خلفه. فانسكب نورُ الأمل في وجهها، وأخذت تضغط عليه ضغطًا عاطفيًّا حتّى ينفجر حقده وولاؤه، ولكنّه ظلّ على وعده بأنه سيعود به يومًا ما، مقتصدًا في التّعبير عن الولاء، منصرفًا عن اللجوء إلى التعبيرات الحماسية، مكتفيًا بموهبته التي لا تجعلُه في حاجةٍ إلى التزلّف العاطفي الرخيص، وقد أرضتها طريقتُه كثيرًا في النهاية، إذْ بدت مغايرةً لطريقة الرّجال الذين يتألّقون في الوعد، ثمّ يعتذرون في آخر الأمر بسوء الحظّ وسوء الأحوال.

شردَ الجرْو قليلًا، ثمّ اتّخذ وجهًا جادًّا، وقال لها إنّ كائنًا مَن كان بين أشجار الدّوم التي على أوّل الواحة، والعوسج الذي عند مقابرها؛ لا يحقّ له أن يخرب عليه تدبيره، ولا هي نفسها، قالها وهو يشيرُ إليها بأصبعه، فهزّت رأسها منبهرة به ومؤيّدة له. واتّخذ قرارًا أمامها عليها أن تشدّد به على كلّ مَن يحيطون بها من الأهل، ينهي به الجميع عن التفكير في الذهاب إلى هؤلاء لعرضِ أيّ فدية، وفوقَ ذلك يجب أن تصلَ إليهم رسالة من خلال رسل جديرين بالاحترام بأنّ الشّيخة ورجالَ العائلة قد اتّفقوا على إرسال الجرو للمصالحة وحده، ولبحث أمر الفدْية أو الاتّفاق، تصلهم مرّة واثنتين وثلاثًا؛ ذلك حتّى يطمئنّوا إلى أنّ الواحة لا تخطّط لأي مُباغتة أو غارة، وما إنْ يطمئنّوا سيعمل جاهدًا على تحرير الأمير بغير صلح وبغير اتفاق وبغير دية. فهزّت الأميرة رأسَها راضية، فقد كان هذا ما تتمنّاه ويتمنّاه أهل الأمير جميعًا، تفاديًا لمذلّة الصلح ودفع الفداء، وإن كان هذا يبدو شيئًا بالغ الصعوبة.

قالت له وهي تضغطُ على أسنانها: قلْ إنّك لن تطلب وقتًا للتّفكير، قل إنّ لديك شيئًا ستعرضه عليَّ الآن، ولك أنْ تتراجع عنه بعد أنْ تمضي، غير أنّ بي نارًا أودّ أن أطفئها قليلًا بالاستماع لأيّ شيء، أيّ شيء يا رجل.

قعدَ على الأرض أمامها وشردَ فيها دقائق لا يقول شيئًا ولا يسمع شيئًا، وهي لا ترفع عينيها عنه، وقعدت قططها البيضاء ذات الشّعر النّاعم الطويل بالقرب على بطونها، وأخذت تتطلع إليه بأعين

مليئةٍ بندى الدّهشة وبلورها، وهي تشعر أنّ هذا الرجل الغريب المغبَّر جاء لأمر عظيم، ثمّ تكلم فجأة، ففغرت القططُ أفواهها الورديّة كأنّها تنتظر ما سيقول، وعرض على الأميرة خطّة شديدة الغرابة، وكان شاردًا وكأنّه يراها أمامه، عرض عليها الاستعانة بلصّ غجري له به معرفة، يعيش في تلك البلدةِ الغجرية الصّغيرة المهلهلة التي تقع خلف الواحة مباشرة، التي تتكوّن من بيوتٍ قليلة من الخيش والصّفيح، فهذا اللّص لديه سرية من القرود الذّكية المدرّبة، سلالة متوارثة عن آبائه وأجداده الذين تفنّنوا في تعليم القرود والتفاهم معها، حتّى صارت تقريبًا فرعًا من فروع العائلة، فرعًا له جميع حقوق القرابة باستثناء المصاهرة. ويستعين أفرادُ العائلة بما لديهم من قرودٍ ذكية في التكسّب بالسرقة، فعندما ينزلون المدن والأحياء البلديّة والقرى الريفية يتحرّكون بالليل على عربةٍ يجرّها بغلٌ، وقرودهم تحت خباء من الخيش على العربة، وعندما يلاحظون مناشرَ غسيلٍ عامرة في الشّرفات، يشيرون للقرود إليها، فتتسلّق بكلّ خفّة وسرعة وتلملمُ الغسيل وتلقي به، ثمّ تنزل وتلملمه في مخْلاة، وتنطلق باتّجاه العربة. وكذلك يقفون مقابلَ أبواب الجوامع في بقعةٍ مُعتمة، ويشير أحدهم للقرود تجاه الحذاء الذي في قدمه، ثمّ يشير باتّجاه باب الجامع الذي ترك المصلون أحذيتَهم على عتباته، فتفهم القرودُ المهمّة، وتنزل من أعلى العربة دونَ أيّ روادع إيمانية، وتهرول وتجمع في أحضانها بكلّ ولاءٍ أحذيةَ المصلين وتعود مسرعة.

ورأى الجرْو أنّه سيكون من الجيد والمفاجئ أن يدرّب الغجريّ اللّص نخبةً من قروده- تتصف بالذّكاء الشديد والشراسة- على الهجوم بالسّيوف على الحراس الثّلاثة عند قفص الأمير واغتيالهم في ثوان، ويقوم اللّص وقتذاك- وفي ثانيةٍ- بفتح القفل؛ لأنّ الخطأ الذي وقع فيه الشّيخ جهير الذي دبَّر أمرَ أسر الأمير وحده، هو أنّه صنع القفل في الواحة كما صنع السجنِ فيها، ولم يفكّر في وضع قفلٍ آخر، ويمكن الحصولُ على نسخة من المفتاح من صانع الأقفال قبلَ الهجوم، وقال لها إنّ لديه ما سيحتفظ به للمرحلةِ الأخيرة، ولن يقوله الآن لا لها ولا لغيرها.

وشعرتِ الشّيخة أنّها غيرُ قادرة على الحكم على الفكرة، كانت تمرّ بلحظات تشعر فيها أنها رائعة، ولحظات أخرى تشعر أنّها مخيبة وطفوليّة، ومع ذلك كانت حريصة على أن لا تنتقد فكرتَه بشكل صريح قد يضايقه، واستدعتْ ثلاثة من كبار العائلة للتّشاور، وسمعوا هذا الكلام مرّة ثانية من الجرْو، وعندما أبدوا شيئًا من الاستهانة بفكرة هجوم قردٍ على حارس مسلح، واعتبروا أنّ هذا هجومٌ بائس وغريب، ربّما يجعلهم أضحوكة في بلدات الصَحراء، فتقول قرى السّارحة إنّ الواحة لم تجدْ رجالًا ينقذون أميرها فاستعانت بقرود الغجر، لم تنخفض معنويّاته، بل تكلّم بنبرة معلّم هادئ يحاول أن يشرح شيئًا لتلاميذ متوسّطي الذكاء، فنبههم إلى أنّ الحرس في الصّحراء متأهّبون لمواجهة ذئب شرس، أو نمر غاضب، كما هم متأهبون لمواجهة إنسان يتمتّع بالقوة والشّجاعة، لكن سيفقدون أعصابهم ويظنّون بأنفسهم الظنون وهم يروْن أنفسهم في مواجهة قرودٍ لا بشر ولا ضواري، ليست مجرّد قرود، بل هي قرود تحمل السّيوف كما يحملها الرجال، وتهاجمهم بكلّ شراسة غير خائفة من شيء، كأنها عفاريت جاءت على هذه الهيئة محمّلة بالسخط؛ وسكت قليلًا.. ثمّ قال لهم بكلّ هدوء إنّ لديه ما سيحتفظ به للمرحلة الأخيرة، ولن يقوله الآن لا لهم ولا لها، ولا للغجري نفسه إنْ وافق. وقد أخذ القرارَ وحده أمامها وأمامَهم بأنّ هذه الخطّة التي وضعها هي ما سيتمّ العمل به لتحرير الأمير، وقد اعترف الثّلاثة له وللشّيخة بدرجاتٍ متفاوتة من الحماسة بأنّ هذا الهجوم لا يخطر على بال أحد.

رحّب الغجريّ جدًّا بالفكرة عندما استدْعوه بعد قليلٍ وعرضوها عليه، فهو لا يحلم بأشياء كثيرة ومتعارضة، فقط يحلم بالثّراء وحده، ومائتان وخمسون أوقية من الذّهب تستحقّ أكبر قدرٍ من الشّجاعة والإصرار، فهو يعلم جيدًا أنّه لن يتعرّض لمثل هذا الإغواء مرّة ثانية ولو عاش ألف سنّة.

وبناءً على الخطوة الثّانية التي حدّدها الجرْو، اختاروا- على الفور- منطقةً مشابهة في الخلاء بها جبل، ووضعوا قفصًا من الحديد هو نسخة مطابقة من قفص الأمير، وأشعلوا شعلتين بنفس الحجم، وأوقفوا حرَّاسا ثلاثة بنفس التّوزيع يحملون سيوفًا حقيقية، وفي يدِ أحدهم بوق، مع تحصين أجسامهم بصدريات من الجلد يلبسونها تحت الثّياب، هذا بحضور الجرو والفريق المسئول عن تفقّد مدى جديّة الأمور المكوّن من؛ الشّيخة شمسة بلثامها، والثلاثة من أهل الأمير الذين سمعوا من الجرْو، واللّص الغجريّ بالطّبع، ورجل معمِّر من أهله على سبيل الاسْتشارة في مجال تدريب القرود بشكلٍ مبدع وسريع، ووضعوا هذا المعمر في القفص كي تندمجَ القرود مع التّفاصيل المقنعة، كلّ هذا في سريّة تامّة.

وقد كان منظرًا بديعًا تكرّر عدّة مرّات خلال ليلتيْن بحضور العشرة، والنّخبة المكوّنة من سبعة قرود. وكانت القرود السّبعة، التي تشعر بالتفوّق، وأنّها منتقاة، تهيج أوّل ما ترى من صاحبها الإشارةَ التي عرَّفها لها؛ وهي يدُه الممدودة للأمام، وتنطلق باتّجاه الحرّاس، ومعها سيوف من صفيح، وكان الحرّاس يستقبلونها بالخوفِ بالفعل رغم أنّهم يعرفون أنّها ستنطلق، ويقوم اللّص في ذلك الوقت أمامَ القرود بفتح القفل بالمفتاح، وعندما يحرّر الأمير المزيف في القفص، يقع الحرُّاس أرضًا كأنّهم تعرّضوا للقتل، ومع ذلك لا تتركهم القرود؛ بل تظلّ تطعنهم بكلّ وحشية بسيوفٍ من صفيح، حتّى يصفق لها صاحبها صفقتين، فتنطلق باتّجاهه، فتشعر الشيخة- وكذلك الثّلاثة- بالخوف من تلك القرود التي عادتْ نشيطة وغاضبة من الاشتباكات، فيستحلفونه أن يسيطرَ عليها جيدًا حتى لا تهاجمهم.

وكانت القرودُ كلّ مرّة تزداد فهمًا، وتزدادُ حماسةً للخروج من المناورة التّدريبية لآفاق الجبهة القتالية الحقيقيّة بسيوفٍ ليست من صفيح، وتزداد قدرةً على المباغتة، وتتفهّم بطريقة عجيبة لأهميّة السّرعة، ولخطورة المهمّة، ولعدم وجود أيّ تسامح في الخطأ، واكتسبت قدرًا كبيرا من الاعتزاز بالنّفس، وإيمانًا بأنّها بأحسن مهمّة عل وجه الأرض. وقد أسفَ الحاضرون على سقوطِ أحد القرود قتيلًا أثناء التّدريب في اللّيلة الثانية على يد عبد شدخ رأسه بحجر؛ لأنّ القرد المخلص كان قد وصل به الشّحن المعنوي إلى درجة أنّه أراد قتل الرجل بالفعل، واضطرّوا لإعفاء قاتل القرد من المهمّة واستبداله بآخر؛ لأنّ القرود صارت تتآمر للفتك به كمسألة عائلية.

وبعدَ ذلك على الفور ابتدأ الجرْو مرحلةَ التّدريب الأخيرة، فاستعان بعبيد أشدّاء لا يعرفون اللّغة العربية، دونَ أن يتمّ إعلانهم بما سيقع، فيفهمون أنّهم حرّاس حقيقيون على ذلك الرّجل القابع في القفص في الخلاء لأسبابٍ مجهولة، ثمّ يهجم اللّص وقروده وقد خرج بها فجأة للحرّاس المشدوهين من أستار الليل بعد أنْ أشار بيده إشارةَ الهجوم. كان هذا يحدث مرّة واحدة كلّ ليلة لثلاثةِ عبيد مختلفين؛ وبسبب هذا التنوّع، وردود الفعل الجديّة تمامًا من حرّاس أقوياء، ولا يعرفون أيّ شيء، بما فيها ردّة الفعل المتمثلة في إلقاء السلاح والصراخ وإطلاق السّاقين للريح، وعلى النّقيض من ذلك كان هناك عبدٌ تبادل العضَّ الحرّ مع القرد، بسبب هذا التنوّع وهذه الرّدود الطبيعية استوعبت القرودُ بعد ثلاثِ ليال كلّ ما يمكن توقّعه من حراس متفاجئين، واستعدّت لكلّ ردّة فعل.

كان أهل الأمير الأربعة في غاية السّعادة وهُم يروْن الفكرة المجنونة للدّاهية تتضح أمامهم في التّدريب المتواصل، وتصير مقنعةً تمامًا وجديرةً بأن تعقد عليها الآمال؛ لقد استطاع الرجل الغريبُ أن يحول الشّطحة إلى عمل بارع، ولم يعدْ باقيًا إلّا أنْ يرسل اللصّ الغجري ليستكشف موقعَ الغارة الآتية قبل أن يذهب بفريقه، وقد وافق هذا ليلة بلا قمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليلة الغجريّ

مائتان وخمسون أوقيةً من الذّهب الخالص هي التي وعدوا الغجريّ الذي يعيش في بيت من الصّفيح أنّهم سيلقونها تحتَ قدميه إنْ عاد بالأمير، فحرق الشّوق قلبه؛ وها هو ذا قد تجرّأ على أن يتسلّل في هذه الليلة الصّحراوية الحالكة، معتدلة البرد، وينتهك حرمةَ ذلك الحي الليلية، لكي يستطلع الموقعَ الذي أسروا فيه الأمير قبل أن ينفّذ الغارة. دخل متواريًا منخفضًا، بخطواتٍ بطيئة حذرة، وبثباتٍ شديد يليق بابنٍ من أبناء اللّيل يحلم طول عمره بالثراء السريع، إنْ جاءته الفرصة التي لن تتكرّر.

إنّها ليلةٌ حالكة إلى درجةٍ متطرّفة، غاب قمرُها في محاقه، وغابت فيها تفاصيل هذا الحي الصّحراوي في عين المتسلّل المستيقظ الحواس الذي يتنفّس بحساب، ويتختَّم بخاتم فصُّه من حجرِ الفوسفور، يوفّر له بصيصًا من النّور الأخضر الباهت. وقد شعر بالطمأنينة بسبب الصّمت المخيّم على الحي مثل صمت القبور؛ حيث لم يتحمّس في هذه الليلة أحدٌ- كما هو واضح- للسّمر وإشعال الحطب أمام بيته رغم اعتدال الطّقس، حتى أنّه لم يكن هناك من نور أمامه في هذه البقعة الغافية إلّا ما ترسله شعلتان في أعلى الحي، لنقطة الحراسة الطارئة التي تمّ تعيينها عند سجن الأمير الحديديّ تحت الجبل القائم هناك، وكذلك كان أمامَ الغجري نور أكثر سطوعًا من نور الشّعلتين، ينبعث من حفل عرسٍ كبير للخنافس المضيئة في كهف في أوسط ذلك الجبل.

الحلكةُ كانت شديدةً لدرجة جعلت هذا الغجريّ المتسلّل يدقّق جيدًا؛ لأنّ البيوت البسيطة الكالحة تبدو له كأنّها غير مؤكّدة الوجود، فلونُها الرّمادي غائب في سواد الليل؛ والجبل الصخري الدّاكن الذي يشبه سفينةً يقع الحيّ أمام مقدّمتها، الذي تحته السجن والشعلتان، كذلك لا يكاد يرسم بنظره حدودَه مع الفضاء الذي يمتدّ خلفه. وكانت شديدة، وموهِمة، لدرجة أنّ هذا الضوء المنبعث من حفل الخنافس القريب قد سحر الغجريّ عندما أدام النظر إليه، فكأنه يرى جيشًا كبيرًا على بُعد أميال بعيدة يزحف بالمشاعل التي تتلألأ، والبيارق التي ترفرف، جيشًا لا يكفّ عن الزحف، ولا يكفّ عن عدم الوصول.

قليلًا.. ومضى مستقيمًا، وبخطوة طبيعية، فبينه وبين النّاس هنا ظلمتان؛ ظلمة الليل وظلمة السّبات، وشعر بثقةٍ شديدة في أنّه سينجح الليلة في مهمّة الاستطلاع التي سيحدّد فيها النقطة التي سينطلق منها الهجوم، ليأتي في ليلةٍ قريبة، ويقوم باختراقه الرّائع للحي وهو يقود سريّة عجائبيّة صغيرة من جنود شجعان إلى حدّ اللّوثة، ومخلصين إلى درجة تتخطّى حدود القدرة البشرية، سريّة القرود، حتّى تصل السريّة وقد طواها الكتمان والتلطّف إلى الحراس الثلاثة عند القفص الحديدي وتباغتهم وتقتلهم، ويفتح هو القفلَ ويحرّر الأمير، الأمير الذي ينام الآن في السّجن الحديدي الذي أقاموه في الهواء الطلق، ولا يدري أنّ هناك مَن يشقّ الظّلام إليه، مستعينًا بوميض الخاتم، وببريق الذّهب في خيالات طمعه.

وفيما هو يتقدّم بحذرٍ وثقة، ينام أميرُ الواحة في السّجن والمحاق، وفي عطف الليل على الخلائق، بعد أن شعر أنّ هذا المحاق رحمةٌ واسعة نزلت عليه، فقد جاء مع الوجوم الجماعي الذي وصل إليه أهلُ الحيّ نتيجةً للمغالاة في الشّعور بالسّعادة، وللإفراط المنهك الذي اتصل إلى أربعة عشر يومًا في التّعبير عن الزهو والفرح، وفي الاحتفال الحماسي بالنصر الساحق. لقد اعتبروا هذا المحاقَ خاطرة

فلكيّة تنبّههم لإنهاء الاحتفال بعد أنْ أعيتهم السّعادة، وضاقت بها صدورهم، لينتهي بهذا عذابُ الأمير من تلك الاحتفالات التي لم يكن أمامه مفرّ من متابعتها من بين الأسياخ، حيث كان يستطلع- بكلّ صدمة- حجمَ العار الذي سبّبه لأهله بأسره الذي أغرق هؤلاء في الفرح والغرور.

في يوميّات العار والصّدمة الفائتة، كان يشاهد كلّ يوم قلّة رصينة من الكبار يرقصون بلا كلل بالقرب منه، بوتيرةٍ تسبّب الشعور بالغيظ، رقصة هادئة وهُم متلاصقون كتفًا بكتف، وسيوفهم وعصيّهم مشهرة في قبضاتِ اليمين، ويهزّون أجسامهم هزّات خفيفة على إيقاع الطبول المسترسل. وكان ينتظرُ بفارغ الصبر كلّ يوم توقّفهم، ممّا كان يتوهمه من فتورهم بسبب الهدوءِ الشّديد للأداء الذي كان يعذبه، لكنّهم كأنّهم يعبّرون عن قدرتهم الفذّة على تحمل الرتابة. ولقد كانت هذه الرّقصة أسوأ ما عاناه في الاحتفالات، إذ كان إيقاعها شديدَ البطء، وتكرارها المفرط؛ يعطيانه إيحاءً غامضًا بطول أيامه هنا.

وبخلاف رقصةِ الكبار الخبيثة المُحبطة التي كانتْ بلا نهاية، فإنّه كان مغتاظًا أيضًا من مراسم الاحتفال الأخرى، وظلّ يومين في البدء يحاول أن يتجنّب متابعتها وهي تملأ الكون حوله، ولكنْ تحت تأثير الملل الشّديد بدأ يتابع في أيّامِ الفرح المتواصل كلّ السّباقات، وجلبة الأغاني الحماسيّة، والصّدى المتردّد في الفراغ لأبيات الشّعر المليئة بالفخر والعنجهية للشعراء المتفذلكين شديدي الإيمان بأنفسهم، الذين يرفعون أصواتهم بها من تحت المظلات، والصوت النّحاسي للمنشد المتمهّل ذي السّاق الواحدة، المتكئ على جَمَله البارك، الذي ينشد وهو يدخن الغليون الطويل المسمّى بالقصبة، ويوقّر المتجمهرون جميعًا مبالغاته الطّريفة في رواية تاريخ العشيرة، ولا يتندّرون بها، فيما كان جَملُه يتنسّم مستمتعًا بدخان الطّباق؛ هذا كلّه مع طنين لا يكاد يتوقّف لأصوات الطّبول والقرب والرّبابة، والتّصفيق والصّيحات والزغاريد. هكذا كان الأميرُ في قفصه يتعذّب في تلك الاحتفالات المُضْنية التي مزّقت صمت البقعة المستمر، وصعدت أصواتها حتى هيَّجت النّحل من بيوته في أواسط الجبل القائم، ثمّ صعدت حتّى أثارت فضولَ القطعان الخجولة من المعيز الجبليّة التي تبدو وهمًا يراوح بين الجلاء والخفاء، فأطلت عليها من أعلى الجبل.

هكذا مرّت الأربعة عشر يومًا سوداءَ على الأمير، وما إنْ قال القمر كلمته وانمحق، حتى اعتبر هؤلاء المجهدون الذين نالت منهم السّعادة هذا المحاق إيذانًا بنهاية الاحتفال، واستجابوا ولم يسهرْ منهم أحدٌ ويشعل قطعة حطبٍ أمام بيته، ولم يُلهَم أيّ واحد من الشعراء أيّ أبيات جديدة في ليلة المحاق كتلك الأبيات التي كانت تطير النّوم من أعينهم خلال الليالي الماضية فيخرجون بها في الحيّ النائم، فيراهم الأمير وهم يكلّمون بها أنفسهم بصوت عال حتى يحفظوها كأنهم مجانين.

وفجأة، وفيما كان الغجريّ المتسلّل يمشي واثقًا باتّجاه الشعلتين عند سجن الأمير، حتى ينتقي الثّغرة الملائمة التي سيمرّ منها في ليلة الهجوم بجنوده متّجها إلى الحراس والقفص؛ انبعث صوتٌ متقطّع مُخيف من أحدِ البيوت، عبارة عن شهقاتٍ ملحَّة متقطّعة من رجل عجوز، يكابد ليستردّ أنفاسه، كأنّه يتعرّض للخنق بيدين غليظتين، أو كأنّه وقع فريسة لكابوس ثقيل يكاد يقضي عليه، فانكبّ المتسلّل عندما فاجأه هذا الصّوت على الأرض، وجعل فصّ خاتمه الوامض في باطن أصبعه، واستندَ على باطن كفّيه مرعوبًا، وسرعان ما تغيّر حاله تمامًا، فقد أخذت أطرافه الأربعة تهتزّ كأنّه حيوان حديث الولادة؛ إذ توقّع أنّ هذه الشهقات ستتسبب في استيقاظ بعض الجيران لاستطلاع الأمر وإشعال

الشعلات والمصابيح، فيطاردونه ويغلقون عليه المنافذ، ويقبضون عليه من أطرافه وهو يحاول أن يتفلَّت من بين أيديهم مثل ظبي يعرف أنّ الذّبح ينتظره. وقد فكّر في التّراجع للخلف بعد أنْ جثا على ركبتيه ويديه، ولكنّ قدميه لم تحْملاه، وظنّ أنّ أمره سينتهي بعد قليل، فانْهار ووقعَ بوجهه على الأرض، وأخذت أنفاسه تلعبُ بذرّات الرّمل، وقلبه يكادُ ينزلق من فمِه كما تنزلق المياه من فوق ورقة الشجر.

لم يكنْ هذا المحترف الرّشيق والجَسور الذي يحمل وشمَ عصابةٍ ذات صيت على رقبته، وهو عبارة عن ضرسٍ كامل بجذوره، قد عاش هذا الشّعور من قبل بأنّ قلبه خانه وتحوّل إلى قلب أرنب، لذا أيقنَ وهو تحت سيطرةِ هذا الرّعب الذي توغّل في عروقه وجمَّد الدم فيها بأنه مردودٌ عن هذه البقعة بإرادةٍ سماويّة قاهرة. لقد سيطرت على ذهنه فكرة (الحارس) الرّائجة بين العامّة والقصّاصين والصّوفيين، واللّصوص أيضًا، الحارس الخفيّ الذي يجعله الله في بعض البلاد والأحياء والقرى، فيصطدمُ به من دخل وهو يضمر الشّر كما يصطدم الأعمى بحائطٍ مفاجئ. وقد مرّ بتجربة مريرة جعلت هذه الفكرةَ غير قابلة للنّقاش، فهو نفسه عندما كان غلامًا قاربَ البلوغَ قد ذهبَ مع خاله الشقي الذي تمّ استئجاره من امرأة خائنة ليترك على سبيل التّأديب علامةً بالخنجر على وجْه رجلها الذي طلَّقها، وعندما كانا يزحفان في حقل البرسيم المجاور لبيت الرّجل، وبحوزةِ خاله خنجره الذي غمس نصلَه في الثّوم المفروم، حتى ينفرج جرحُ الرجل مثل الشّفتين، وتهبّ عليهما رائحة ثقيلة للحمير من زريبة قريبة، رفع الخال نظرَه مرّة واحدةً أمامه، وشهقَ وهو يشير بأصبعه المهتزّ، وقال بكلّ رعب، وبلسان معوجّ متصلّب: كلّ هذا رجل؟! لقد مات الخالُ بعد أن خرجت منه هذه الكلمات ثقيلة وغير واضحة كأنّها من فم رجلٍ شبه أبكم، ولم يكنِ الظّرف ليسمح لابن الأخت بترف التّعبير عن حزنِه العميق، كما لو كانَ خالُه قد مات في فراشه؛ فقد كان زميله في مهمّة متوحشة، حيث تكون غريزةُ الهروب أقوى من الشّعور بالصّدمة، واضطرّ إلى تركه في الحقل ومضى وهو يردّد في الحقول المظلمة أنّ الله قتل خاله. ولم يكن ما تسبّب في إيقاف نبض قلب هذا الرجل الغليظ والعدواني للأبد؛ إلّا جذعُ نخلة محترق يزيد طولُه عن المترين، كان الغلام يلحظه ولم يلتبس عليه أمرُه ألبتّه. تذكر المحترف هذه الحادثة بسرعتها المباغتة، ورجَّح أن يكون هذا الحيّ محروسًا بقدرة الله، وأن يكون استيقاظُ هذا الرجل المفاجئ من عزّ نومه هو الحراسة التي ستؤدّي به إلى الهلاك، كما قتلت الحراسة القديمة خاله.

واستمرّ الرجلُ المسنُّ وقتًا في هذه الشّهقات المخيفة، وبعدها أخذ يصدر شهقاتٍ أقلّ عنفًا كصوتِ صبيّ أجهده البكاء، ثمّ بدأ يردّد وهو مازال يروِّض أنفاسه: الهيم. الهيم. الهيم... إنها.

وقاطعه رجلٌ له صوتٌ مشابه، كأنّه صوته، ولكن بنبرة باردة تتعمّد الاستفزاز، طالبًا منه أن يرفعَ رأسه معه لكي يطلّ به من النافذة، حتّى يمرق الهواء العليل في صدره المضطرب. ويبدو أنّ الشّيخ أطلّ برأسه من نافذته الخفيضة، وارتاح صدره قليلًا، وأراد أن يعود لشرح الأمر بصوتٍ غلب عليه الوهن والشّكوى: إنها...

فقاطعَه الرّجل ببرود مَن اعتادوا على شيء مُزعج: إنّها يا أبي تكاد تموت عطشًا، أليس كذلك!؟ هذه هي المرّة الثالثة التي تسمّي فيها إبل الحي هيمًا، وتحلم بها عطشى وتجدّد مأساتها للمرّة الثالثة.

ووصف الابن للأب بالضّبط صورَ ذلك الحلم البغيض الذي أفاق منه الآن مذعورًا، كأن هذا الكابوس كان يجثُم عليه وعلى والده معًا، وهذا لأنّه سمعه من أبيه من قبلُ مرّتين. إنّ الأب يحلمُ بإبل الحيّ تائهة هائمة في الفيافي وقد ضمرت أبدانُها وبرزت ضلوعها، وتكاد تموت عطشًا، ورأى أعناقَها تشقّ اللّيل البهيم في كلّ اتّجاه بمنظرٍ مخيف، كأنّها أعناق شياطين بائسة فزَّعتها التّسابيح، ورأى أعينها المتشبّثة بالحياة وقد ظهر فيها الدمع، واللمعان الأسود للرمق الأخير؛ ولم نكن إذ ذاك معها يا أبي، كنّا قد يئسنا من قبلها وتساقطنا تباعًا، تاركيها وحدَها لسيْرها اليائس المحموم، متسلّلين من حفل العذاب.

سكتَ الشيخ ولم يعقّب على كلام ابنه، كأنّه شعر بالإحراج عندما استوعب أنّه يريد أن يحكي لابنه عن حلم رآه من قبل، ورواه له من قبْل. ويبدو أنّ ابنه يبصر في الظّلام الدامس كما لو كان قطًّا، أو يدّعي ذَلك، ويسمح لنفسه بأنْ يستعرض أمامَ أبيه بقوة إبصار خارقة وغير حقيقيّة، فقد أحب أنْ يطمئنه على الأوضاع الرّاهنة ويذكّره بها، تحسبًا للتشويش على الذاكرة الذي قد تسبّبه الأحلام المضطربة، فبشّره بأنّه يرى من إطلالته بجانبه من نافذته صبيًّا سمينًا من صبيانِ الحي قد خرجَ من بيت أهله يتبختر من فعل الرّخاء، وقد التصق ثوبه من الخلف فيما بين ردفيه من كثرةِ لحمه، ورمى لكلبِه العفيّ شيئًا كأنّه لحم مطبوخ، وأن الكلب تقدم بخطواتٍ بليدة كخطوات كبش مُثقل، وأكل قليلًا بغير لهفة كأنّه يجامل صاحبه، لذا فلا خوف على العشيرة من جوع أو عطش، إنْ كان هذا حال كلاب العشيرة.

وعزا لأبيه هذا الحلم المزعج إلى ما تأثّر به الأب من القصّة المؤسفة في طفولته البعيدة، قصة أبيه (سلاف) الذي أبصرَ هذا الشيخ الدنيا وهو متغيّب، وسمعها من أمّه من سنوات رضاعه، وإلى احتضارها، ومازالت تجيشُ بها نفسه؛ وكذلك لكوْنه يصرّ على العشاء الثقيل، وقد تعشى اللّيلة عصيدةً بالعسل الأسود ثمّ ذهب للنّوم، وهذا لا يناسب رجلًا مثله مرّ من عمره ثلاثة وثمانون خريفًا، وهذا الحرق في صدره من هَياج حامضِ معدته، وأنّه سيأتي له بكوب من عرق السّوس يطفئ جمر الحامض في جوفه.

ويبدو أنّه ذهبَ لإحضار عرق السّوس؛ لأنّه لم يعدْ ثمّة صوت، لذا تجدّد أمل المتسلل في النّجاة، في أن يعود مكتفيًا بهذا الوعيد من الحراسة ولا يعاند فيهلك. فمن حسن حظّه أنه لم يستيقظ أحدٌ حتّى الآن على صوت الرجل إلّا ابنه، لذا عليه أن يذهب، وبسرعة، فذلك الشاب، إنْ كان صادقًا فيما يدّعيه يرى في الظلام، وبوضوح شديد، أشياءَ لا يراها المتسلل الضائع عن ذاته في الظّلام، فلو خرج ليتنسّم الهواء سيراه بكلّ جَلاء كما لو كان يسجد أمامه في الضّحى، وفي غير اتّجاه القبلة، فقام واعتدلَ ومشى خطوات قليلة، ومازال جسده كالثلج من أثرِ الرّعب، حتّى لاحظ أنّه فقد في رعبه وسجوده فردةً من حذائه الخفيف، وفكّر بأنه لا بأس بأن ينفذ بجلده ويعود بفردةٍ واحدة، ولكن تذكّر أنّ في هؤلاء الناس مَن يقصّ الأثر، فلو لفتت انتباههم فردةُ الحذاء البيضاء المصنوعة من جلد البقر، وهي ليست من النوع الذي ينتعلونه؛ فيمكنُ لقصّاص الأثر منهم أن يعرف أنّ رجلًا تسلل، ويحدّد طريقة مشيته: هنا كان مستقيمًا، وهنا كان منحنيًا، وهنا كادَ يسف التراب، وحاله من الأمن والخوف: هناك كان مطمئنًا كأنه يمشي بين أهله، وهنا كانت فرائصُه ترتعد، ويحدّد أيضًا إلى أيّ بلد غادر، بل سيصل بهم حتّى سريره؛ لذا أخذ يتحسّس الرّمل يمينًا ويسارًا في النّاحية التي كان فيها، ولا يجد

شيئًا، ويتحسّس مرّة أخرى، ولا يجد شيئًا، ويتحسّس مرّة ثالثة في هذا العماء، الذي لا يفرِّق فيه بين سوادِ الأرض وسواد الجوّ حتّى قبض على الفردة اللعينة بعد أنِ استبدّ به الرّعب، وقرّر أن يقبع في مكانه قليلًا حتّى ينام المؤرّقان الوحيدان خلال دقائق كما يتمنّى؛ لأنّ الليلَ والسكون، وقلقض الحي مِن أيّ غارة مفاجئة؛ يمكن لها معًا أن تكبر صوت هفيف خطواته فيصل إليهما.

وقد كان هناك بالفعل جذوتان صغيرتان تبعثان ضوءًا قرنفليًّا وادعًا، ولا بدّ أنّهما عينا الكلب الشّبعان، الذي تقاعس عن اشْتمام الغريب. وساد خمولٌ جليل، يهتزّ فيه هذا القرنفل ويصغر، ولا يُسمع فيه حتّى لهاثُ هذا الكلب الذي كان من حظّه أنْ جاء في الزّمن السّعيد، ليتقلب مع جيله في ذلك الوقت في نعمةٍ لا تعرفها كلابُ العربان الوفيّة التي تظهر للعابر فجأةً في فجاج الصّحراء، حارّة الطّبع وبارزة الضّلوع، برفقة أصحابها الذين حمَّصتْهم الشمس، ودبغهم الجفافُ والغبارُ وهُم على قيْد الحياة، بل ولا تعرفها في ذلك الوقت حتّى الكلاب النّابحة في قرى وأحياء وادي النّيل الذي مرّ على أهله ثلاثةُ أعوام بغير مطرٍ تقريبًا، إلّا القليل المتفرق الذي يجدّد من اليأس أكثر ممّا يجدّد من الأمل.

وكانت الغلالُ والبضائع تقلّ في الأسواق شيئًا فشيئًا، والأمراضُ تتفشّى، والمتسوّلون واللّصوص في ازدياد، وكذلك العميان، وتلال القمامة، ومع هذا فقد كان المصريّون كلّما ازدادوا شحوبًا ازدادوا تفاؤلًا، وكلّما افتقدوا طعام البيت منُّوا أنفسهم بالكنوز وزلع الذهب الدّفينة، وتصبَّروا بأيّ قصاص حافي القدمين، متجوّل بأسماله، يشكر الشدائد ويبشِّر بالفرج.

والسّد الذي بناه المناصت أسفلَ الجبل وحجزوا فيه مياه السّيول، هو السُّبب الذي جعلهم أسعد حظًّا في ذلك العهد مِن أهل وادي النّيل في قراهم وأحيائهم، الذين لم يمطروا منذ ثلاثة أعوام، هو الذي روى نخيلهم ومزارعهم التي تحيط بحيّهم، وملأ بالماء الأحواض التي يسقون منها قطعانهم، وجعل ديوكَهم تنشط في أذان الفجر، ويذهب صياحُها في الخلاء، فيما أصبح صياح الدّيوك على الأسطح في فجرِ القرى والحسين والسّيدة والقلعة، والنجوع العتيقة المبنية بالتراب؛ خافتًا مسكونًا بالهلع، وصار أهلُ مصر وقد تسلّط عليهم الرُّمد والذّباب، يقبلون في الضّحى- وخاصّة النساء- على تبادل الأحلام التي تبشّر رموزها بالخير كلّه، كرؤية المرجان، وعجين الخبز، والفول اليابس، والبيض المسلوق، كلّ هذا عبر النّوافذ، وأسطح المنازل التي تكاد تتلاصق، وقد علتِ الوجوه البسمات الشّاحبة، واختلاجات الإيمان المتخبط.

عندما ظنّ الغجري المتسلّل أنّه يمكنه التحرّك، ومدّ يده ليدير الخاتم كما كان، سمعهما مرّة أخرى، وكان الشّاب على ما يبدو قد عاد بعرق السّوس لأبيه، وتركه يفرغ في جوفه المستعر كلّ ما في كوبه، ثمّ ذكّره مداعبًا، وبذاتِ الخمول الذي يغلب على صوته وإحساسه، بأنّه شيخ هذه النّاحية، ويجب عليه أنْ يصون نفسه؛ لأنّ هناك من العشيرة مَن يتوقّع رحيله ليصير شيخًا معلنًا من بعده، بل إنّ هذا الذي ينتظر موتَه يعامله النّاس هنا بالفعل كشيخ العشيرة كلّها، ومنذ مدّة، وأنّ عليه أنْ يحافظ على صحّته كي يستطيع أن يحفظ ما بقي من سيادته التي تتردّى كلّ يوم. وبلع الغجري ريقَه، فقد عرف معلومةً جديدة زادته خوفًا، وهو أنّه بالقرب من بيت شيخ العشيرة نفسه، الشيخ غائب بن سلاف الذي يسمع عنه.

ويبدو أنّ الشيخ كان وقتها قد انتظمت أنفاسُه تمامًا تأهّبا للردّ على هذه المضايقة التي أنعشته، فتكلم بلهجة فيها حنقٌ مرير ومكتومٌ تجاه ابنه وهو يقول له إنّك يا خلفة العجوز أنت أسخفُ ما مرّ بحياتي، وإنّك منّي بمنزلة دمّل في وركي، يمنعني من الشّعور بالرّاحة إن مشيتُ وإن جلست وإنْ رقدت. وسكتَ الرّجلان فجأة عن الكلام ولم يتجادلا، كأنّهما غابا في الظلام في أشجان ذكرياتهما، وغابت الجذوتان الصّغيرتان اللتان تبعثان الضّوء القرنفلي، وصار النعاس سيّد الأشياء.

وبعد أنْ أدار خاتمه كي يمنحه الضّوء، مضى الغجري بقدرٍ كبير من الحذر الاحترافي بعيدًا عن الشّيخ الموجوع، وهو يهنئ نفسه بالنّجاة من قبل أن يخرجَ من الحي، كأنّه يسلي قلبه ويبثّ فيه الطمأنينة، ويعدُه بالأمان، وقد كان قلبُه يصدّقه في الحقيقة، وما كان يدريان- هو وقلبه- أنّ نقطة الضّوء الأخضر الباهت التي تبدو وكأنّها تسبح بمفردها في الليل، تتّجه ناحية رجل آخر غلبَه الأرق، وأخذ يتعجّب من هذا الكوكب الأخضر المتناهي في الصّغر الذي يمضي بارتفاع مترٍ عن أرض الحي.

بدافع الخوف أوّلًا، ثمّ غريزة الصّيد ثانيًا، هُرع الرّجل المؤرَّق، وعاد بقوسه وسهمه؛ فقد غلب على ظنّه أنّ هناك مَن استغلّ ظلام المحاق، وانتهك الحيّ بهذا الضوء الأخضر لكي يحرّر الأمير، ولو ضرب سهمًا ناحية ذلك الكوكب الأخضر السيَّار الجميل، فجاء في فخذ المتسلل، فوقع أرضًا؛ سيُعلن أكابر الحيّ في الصبح أنّه نجح وحده في إحباط محاولة اقتحام ماكرة لم ينتبه لها أحدٌ غيره. شدّ الوتر إلى أقصاه، وضبط أنفاسه، وانتظر هذا المستمرّ في إنقاص المسافة بينهما، الذي يمشي باتجاه مأساته.

وفي هذه اللّحظات التي كان الغجريّ بالفعل يبدو وكأنّه ترك كلّ النّواحي واختار حامل القوس، كان حاملُ القوس يتذكَّر أشياءَ كثيرةً بسرعة، تذكَّر أنّه غريب عن الحي، فقد حريّته منذ أربع سنوات بسبب الحماقة النادرة، فهو شابّ قاهري كان معه اثنان سائحان، وجاء هنا إلى قدره، واعتدى- بغير قصد- على ملك الشّيخ جهير، الرّجل الصّارم المهيب وهو ممتلئ بهذه الروح اللّاهية التي يشعر بها أهلُ المدن عندما يصدّقون أنّ الخلاء خلاء، وهذا الشّيخ هو الزعيم الذي تتكّد الشّيخ غائب بذكره، الذي يعتبره الناس الرَّجل الأكبر للعشيرة.

لقد قتل يومها بالسّهم ناقةً كانت تتريّض في البرّ وهي تشعر بالدّلال والكرامة، فأخذه صاحبها الشّيخ الذي ظهر له فجأة، وبدا له رجلًا أسطوريًّا خرج من الرّمال، وحكم عليه بالعبودية لمدّة خمس سنوات، وكان الشّيخ جهير في قرارة نفسه يشعر أنّه حليم في حكمه هذا؛ تقديرًا منه لجهل الشّاب الغريب بقيمة النّاقة التي فجعه فيها.

وتذكّر حامل القوس نهارَه الأوّل هنا منذ أربع سنوات، عندما كان يحيط به خدمُ جهير وعبيده وهُم يتندّرون به ويضحكون باستهتار، وهُم يذكرون الحكم المجحف الذي أصدره الشيخ جهير باستعباده خمس سنوات، كان قاعدًا على الأرض على حجر غير مصدّق هذا الكابوس الذي يحكيه الآخرون ببرود، وقد انتقلت برودةُ الحجر غير المستوي إلى مقعدته، وكان يظنّ أنّ المسألة لا تعدو أنْ تكون لعبًا بأعصابه مستغلّين كوْنه شابًّا صغيرًا، وكوْنه غريبًا مضطربًا، فثمن أيّ ناقة عنده هو ثمنُ ما فيها من لحم، ولا يمكن أن يكون فوق ذلك؛ لذا أخذ يكذب- بينه وبين نفسه بكلّ استماتة- كلَّ ما يقوله العبيد

عن أنّ النّاقة من ضمن نياق ثمينة يمتلكها الشيخ جهير، وأنّه واحدٌ من محبّي الإبل الذين يعطون لكرائم الإبل عندهم منزلةً تقارب منزلة الأبناء والبنات، وأنّ المغدورة كانت تمدّ فمها وتأكل من صحنِه وهو يضحك من شدّة دلالها عليه. أخذَ ينفي كلّ ما يسمع بجزعٍ أسود شديد، وهو يمنّي نفسه بأنّ الرّجل سيعاقبه بالاحتفاظ به هنا في هذا الحيّ بضعة أيام كنوعٍ من العقاب وشفاء الغليل، لكنْ من المستحيل أن يمتدّ الأمر بالطّبع إلى خمس سنوات من الاعتقال والعمل بالسُّخرة، لا يمكن أنْ يكون هذا هو ما ادّخرته الأيام.

وتذكّر حامل القوس تلك الشّابة النّحيفة بنت الحي، التي تلفّ رقبتها بمنديل ينسدل طرفاه على كتفِها، وخمارها مشدودٌ على فمها، التي أخذت تبكي مشفقةً عليه وهو قاعدٌ على الحجر، وسألته بجزع أموميّ عمّا ألقى به هنا، فقال بلغةٍ مثقّفة، وبنبرة تدّعي التماسك: يا آنسة، هذا اعتداءٌ بالخطأ على ملكيّة خاصّة، وأعتقد أنّ الموضوع سيتمّ تسويته. لقد ضجر منها ومن تعاطفها وهو يحاول أنْ يحتفظ برباطة جأشه، وبثقته بأنّ هذا الكلام الفارغ لن يسري عليه، فقد اعتبر دموعَها المتواصلة وبكاءها الشّديد اللّذيْن لم يخفّفهما توضيحه القانوني لموقفه؛ هو تأكيد على جديّة الأمر الغريب؛ كان مشحونًا بالغضب من إهانة ضحكهم، ومن إهانة بكائها. وبعد أنْ مرّت الشّهور في الكابوس، كان قد تسامح مع الخدم والعبيد الذين ضحكوا عليه، بسبب الدّور الرقيع الذي تلعبه العِشرة، وازداد امتنانًا لهذه الدّموع التي نالها بالصدفة من إنسانة أشفقت عليه ولم يكلّمها مرّة ثانية.

وتذكّر- أيضًا- وهو لا يزال يشدّ وترَ قوسه ويصوّب باتجاه الوامض الأخضر؛ أنّ أسْر الأمير هو أهمّ مفاخر الشيخ جهير، فهو الذي حرَّض على كلّ ما حدث في يوم الضباب، لذا فإن القبضَ على رجلٍ جاء يسعى في تحرير الأمير، ووضعه في القفص بجانب أميره الذي جاء ينقذه؛ ستكون مفخرةً أخرى يعرف الشّيخ كيف يستثمرها ويتاجر بها، وخصوصًا أنّ السهم سيكون قد انطلق من قوس العبد الأبيض المؤقّت الذي عنده.

بدأ يستردّ فطرته النّظيفة الحرّة من الأوساخ التي علقت بها من آثار العبودية، وهو لا يزال متأهّبا بغير أيّ معنى، والرجل يزداد قربًا، وصار هدفًا سهلًا جدًّا، حتى أفاق على اشمئزازه من تصويبه كعبد، ولم يعدْ لديه أيّ إغراء في أنْ يصيب الرّجل في مقابل أن يعفيه الشيخ جهير من السّنة الباقية ويحرّره، فمرّ الكوكب الأخضر بارتفاع مترٍ واحد عن الأرض، وعلى بعد أمتار قليلة من العبد الأبيض المؤقت، حتّى انطمس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحتَ المصابيح، وفي واحدٍ من البساتين المحيطة بالقصر، كانوا ينتظرون عودة الغجري بفارغ الصبر، الأميرة، والجرْو، وأقارب الأمير الثلاثة، والرّجل الغجري المعمَّر الذي لم يعده أحدٌ بشيء، وكان هناك حارس ينتظر الغجريَّ عند باب البستان وهو يحمل مصباحًا، إلّا أن الغجري أحبّ أنْ يدخل عليهم بطريقةٍ استعراضية يؤكّد بها مهارته في التسلل، ولهذا استبشروا واغتبطوا عندما رأوا الضَّوء الأخضر يتقدَّم إليهم موازيًا لقناةٍ مائية، بينما لا يزال الحارس عند الباب ينتظر الغجري.

سألوه بلهفةٍ فور عودته عمّا وجد، فتكلّم بوجهه المعفّر ببرود، وهو يتلافى النّظر إلى الجرو، وعلى وجهه ابتسامةُ ثقة ويلعب بأصبعه في شاربِه الخفيف، قال إنّه متفائل للغاية، وإنّه كان على مقْربةٍ من

القفص، حتّى أنّه سمع بأذنيه لظى نار الشعلتين عندما يلفحهما الهواء، وكان يرى الأمير نائمًا على الأرض في أحزانه متكوِّرا على نفسه، وهناك ثلاثة حراس لا غير، على مسافات من القفص، على صدر أحدِهم بوق، ولا يوجد أيّ نار أخرى عند القفص غير نار الشّعلتين، وليس على القفص إلّا قفلٌ واحد كبير. وقد سعدوا بنجاحه الباهر في التسلل الذي تؤكّده معلوماته التي لا يرقى إليها الشّك، وهو اعتمد في كلّ تلك المعلومات الدّقيقة جدًّا، على ما اعتمدوا عليه، ذات المصدر، وهو ما أشاعه زوّار الحيّ من بلاد الصحراء المحيطة، الذين يدخلون بغير تسلّل.

أخذوا يربّتون على كتفيه سعداء به، وذكَّرته الشّيخة شمسة بأنّه سيحصل على ثروة تجعله من أعيان المنطقة إنِ استطاع أنْ يعود بالأمير سالمًا، وأوصته بأنْ يحرص على أن لا يعرّضه لأيّ أذى أثناء تحريره. وأخذ الثّلاثة من أقارب الأمير يتفنّنون في وصف ما يمكن أن تفعل به هذه الثّروة كي يهيِّجوا أطماعه، هذا يوجّه وجهَ الغجري ناحيته، ويصف له الجواري الحَسناوات اللائي يمكن له أنْ يشتريهنّ، وهذا يوجّه وجه الغجري إلى الناحية الثانية ويكلّمه عن الموائدِ الطّويلة العامرة ولحوم الغزلان والبهجة التي يحدثها في النّفس امتلاكُ ضيعة، ويأتيه الثّالث من خلفه من عند أذنه ويكلّمه عن الأسفار والأنهار والمدن البعيدة الزاهية.

بعد قليل، سحبه الجرْو من يده من عالم الخيالات السّعيدة، ووقف به تحت شجرة قريبة، ومال على أذنه، وقال له إنّه بعثه الليلة كي يتأهّب للغارة، ولكي يعرف ما هو قادم عليه، وعليه أن يستعدّ جيدًا لما هو قادم؛ لأنّهم لن يطلبوا منه أنْ يحكي في المرّة القادمة، بل أن يعود بأمير؛ كان من الواضح من لهجة الجرْو معه أنّه لا يثق بحكايته، ولم يجادله الغجري من ناحيته وهزّ رأسه، وكان قد اشتدّ عزمه جدًّا بسبب غواية الرجال الثّلاثة له، حتى تناسى مخاوفه من (حارس الحي)، ووقف يقنع نفسَه تحت الشجرة بأنّ استيقاظ الرجل هو مجرّد صدفة سيئة، ولو استطاع ابنُ ذلك الشيخ إقناعه بالتوقّف عن وجبة العشاء لن يحدث أيّ شيء مؤسف.

كانت الشّيخة والثلاثة يقفون مُفْعمين بالتّفاؤل والأمل، حتى توجّه كبير الثلاثة وهو ابن عمّ الأمير بكلامه إلى الجرو قائلًا: أمَا آن الأوانُ لنعرف ما تحتفظ به لنفسك يا داهية السارحة كلّها، هل ستفعلها وتحوِّل القرود السّتة إلى الشّراسة الشديدة، حتى تنجز عملها هناك في أسرع وقت وتمزّق الحراس إربًا؟ فقد سمعنا أنّك تغيّر طباع الحيوان.

وأكمل كلامه وهو يضع يدَه على كتف الغجري كنوعٍ من التّقدير: وأظنّ أنّ هذا الشهم الشجاع لن يكون بحاجةٍ إليها من بعد ذلك في السّرقة، بل سيحتَفظ بها، إن احتفظ، كذكرى من عالم مضى، وشركاء كفاح متقاعدين.

سكتَ الجرْو قليلًا، ثمّ قال بكلّ ثقة: لديّ ما هو أفضل من ذلك، وأشفى لغليلكم: سأحوِّل الحيوانات الثلاثة التي تحرس القفص هناك إلى الوداعة التّامة، حتّى يكون الأمر سهلًا على هذا الغجري وعصابته، وحتّى يمكنكم أن تهزؤوا من أعدائكم، وهذا ما احتفظت به لنفسي من البداية، حتّى يشقى الغجري هذا في التّدريب، ولا يعتمد على ما عندي.

وقد تعجّبوا جدًّا من أنّه يحلم بتغيير طباع رجال، وهُم قبل ذلك رجال بعيدون عن متناول يده، واستفهموا منه فقال إنّها كذبة حانَ وقت إطلاقها، فمَن صدَّقها مِن الحرس مات، ومَن لم يصدِّقها

سيصدِّق السيوف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العَطشى

كانت السّيول في زمن السّيول تنزل على كلّ ناحية في السّطح البعيد لهذا الجبل القاتم، السطح البعيد الذي اتّفق القلّة من المغامرين الأشدّاء الذين تسلّقوا إليه عبر الحقب المتتالية؛ على وصفه بأنّه يشبه غابةً قد احترقت في إعصار، وأنّ أحجاره الداكنة المبعثرة المختلفة الأشكال والأحجام تبدو كأصولِ أشجارٍ متفحّمة، وجثث حيوانات هائجة لم تنج. وقد فوجئ أحد المتسلّقين في الزّمن الماضي بالسّيول في الأعالي، ونزل ووصفَ لهم وهو يرتعد ويعطس كيف اندفعت السُّيول محمومة وشديدة الإصرار كأنّها تعرف مصيرها المحتوم، في مسارات كأنّها جرت فيها من قبل، واجتمعت وهي تفورُ وتدورُ وتزبدُ عند حفرةٍ كبيرة في وسط الجبل في أعلاه كأنّها وادٍ من أودية الأرض، واندفعت منه بكلّ عنفوان في مجراها المستقر، لتصبّ من أعلى، وكانوا يشعرون بالتوجّس وهُم يستمعون إليه، إذْ يرون أنّه من الاجتراء والعصيان مراقبة العناية الإلهيّة التي تسوق الماء، والاطّلاع على منابع لطف الله الخفي.

كان الماءُ ينزل على الدّوام في مواسم الهطول مثل الشّلالات العاتية بين لسانين صخريّين كبيريْن، كذراعي سبع رابض، حتّى اهتدى الناس لفكرة السّد، فصار هذان اللّسانان- وكذلك الجبل نفسه- بمثابة هديّة الطّبيعة للعشيرة، فقد منحتهم ثلاثةَ جوانب من جسد سدّهم الذي سيحتجزون فيه ماءَ السّيل، وقاموا هُم ببناء الجانب الرّابع بأنْ أقاموا حائطًا بين طرفي الذّراعين المرتفعين بالطّين المخلوط بالرّمل والتّبن، بالاستعانة ببنّائين لهم خبرة ببناء الحصون والأديرة وقصور الواحات، كما تمّ عملُ درجات تمتدّ من أسفل جدار السدّ، وحتّى أعلاه في مسارٍ يتعرّج بين اليمين واليسار في حيِّز محدود من الواجهة الواسعة، بعيدًا عن أيّ قيم معمارية، فأطوال تلك (القلبات) التي تنقل من اليمين لليسار، والعكس، قد أقاموها بأطوال مختلفة؛ وبالقليل جدًّا من العناية، حتّى تبدو أنّها حقيرة، وكأنّهم شعروا أنّه من الخبث وسوء الأدب مع السّد أنْ تبدو جادّة ومنظّمة ودقيقة وجريئة، تلك الدرجات التي سيصعد عليها مَن أرادَ أن يشرفَ عليه ويطمئنّ على ارتفاع المياه فيه؛ كان الشّكل السّاذج للسلّم إعلانًا عن الاعتذار عن صُنعه، وإعلانًا عن تسليمهم للسّد، وصدق مبايعتهم له، وبالطّبع كان يمكن إذًا أن لا يصنعوه من الأساس، ولكنْ يبدو أنّ الإيمان التّام، النقي مِن أيّ شائبة من الشّك؛ هو أشدّ ندرةً من أن يتّفق عليه الناس.

وقد قاموا بشيء لا يذْكرون مَن حرَّض عليه، كأنّ الإيعاز به قد هبّ فيهم: جمعوا كلّ ما عندهم في بيوتهم من مسحوق الحنّاء، الذي خزّنوه عبر السنين الطويلة، والذي كان مصدره الأوّل والأعظم شجرةَ حنّاء واحدةً زرعها في الماضي المبارك الشّيخ سلاف عند بيته، ذلك الشّاب النقي الفريد، والد الشّيخ غائب الذي خرج قبل أن يولد ابنه الوحيد ولم يعد، ثمّ الشجرات التي زرعوها عند بيوتهم، وجاءت من شتلات وبذور هذه الشّجرة الأولى، فكان وزن ما جمَعوه عشرة قناطير، فرشوا نصفَ هذا الوزن في مساحة تعادل مساحة حجرة تحت أرض السّد، ووضعوا كلّ الرّقع الجلدية التي ورثوها، التي تحمل تواريخهم، وإيمانهم، وأيامهم، وأنسابهم، وأعرافهم، والحكمَ التي نطق بها أجدادُهم، وكلّ ما يعبر عن هويّتهم، وكذلك أدعية كتبها الشيخ سلاف، ومواعظ له تحضّ الأهل على الزّهد في الدنيا، وتحذر من النهم في جمع الثّروات، ثمّ غطوا هذه الصّحف التي تجمع كلّ إيمانهم بالنّصف الآخر من الحناء، ودفنوا كلّ هذا تحت الرمل، وتحت أرضية السدّ التي عملوها بالطين

المدكوك المطليّ بالشيد؛ كأن هذه الأشياء، أو (صحف الإيمان) كله هي جذورٌ لبنيان الوطن الذي قام، لمن أراد أن يراها كذلك، أو كأنّ هذه الأشياء اندفنت بقيام البنيان، لمَن أراد أن يراها هكذا. لقد جرف المتحمّسون في طريقهم عزائم القلّة من المحافظين المتعجّبين من دفن أصولهم تحت السد، وكان هؤلاء المحافظون يشعرون في أجواءِ الاصطفاف الاحتفالي التي تحيط بهم بالغمّ والغربة اللذين يشعر بهما الموحّدون المتكتمون في أيام الأعياد الوثنية لبلادهم.

خرج الغجريّ سالمًا إذًا، ولم يترك خلفه إلّا آثارًا على الرّمال لسجوده وبحثه عن فردة الحذاء، وقد محتها أقدامُ العابرين من بعد أن مضى. وفي الليالي التالية، انكسرت قليلًا حدّة الظلام والصّمت في ذلك الحي، إذ تفتّق القليل من النّور هنا وهناك، بعد أن عاد بعض الناس المتفرّقين للسّمر على ضوء الحطب المشتعل أمام بيوتهم في هدوءٍ شديد من إعياء فرح الأيام الماضية، وصوتهم نجوى لا يكاد الهواء يحملها؛ يجلسون كلّ ليلة حتّى يستحيل الحطب المشتعل رمادًا، فيتوقّفون عن الكلام تمامًا، كأنّهم ناموا وأعينهم مفتّحة.

وفي غبش فجرٍ لاح بعد ليالٍ قليلة من تلك الليلة الحالكة التي تسلّل فيها الغجري، كانت قافلة عائدة من الإبل تمرّ في السّاحة، تنساب في الطريق إلى مخازن جهير بأعلى الحي، بطريقة هادئة وحزينة، وعلى رأسها ابنُه الشّاب أحمد. كانت القافلة تنسابُ وقد أخذ أهلها يتبيّنون الجبل المنتصب فوق الحي، الذي أخذ يظهر شيئًا فشيئًا من ظلمة الليل الهارب، والذي يبدو طرفه عند الحيّ كأنّه مقدّمة سفينة عملاقة.

القافلة تتقدَّم في الحي، وأهلها يتبيّنون ذلك السّد من تحت الجبل، بنيانهم الكبير، والجاد، الذي لا يشبه العالم البديهي الذي يقبع تحته، عالم البيوت البسيطة المصنوعة من الأحجار والرمل والتراب، وقد بدا لهم هذا الحائط الشّاهق الذي أقاموه، والذي يبلغ ارتفاعه أربعين مترًا، وينظرون إليه بشيء من الخشوع، كما كان يبدو دائمًا لأهل الحي المتغيبين عند رجوعهم من الأسفار، بدا كأنّه تركة تركها شعبٌ قد انقرض من العمالقة وجدَه أهلهم في أثناء ارتحالهم فتوطّنوا عنده وزهدوا في السّفر والتّجارب، هذا مثلما تبدو جوامع القاهرة العتيقة الشاهقة غريبة عن المساكن الآيلة للسّقوط التي تحيط بها، وعن الناس الماضين في الأسمال، وعن أسراب البطّ والدجاج المنحدرة من الأزقّة الضيقة الملتوية التي تمتدّ من عند تلال وقمم مجهولة بها خرائبُ بيوت قديمة، والتي ينحدر معها خيطٌ لا ينقطع أبدًا من ماء الغسيل.

هذه العلاقة، القاسية، وغير المتكافئة، بين البناء الشّاهق والإنسان الضعيف، الذي يتكتم بين جناحيْه ذعرًا من الغيب، جابهها السّكان المكتئبون الماضون بين الجوامع القاهرية العتيقة التي يسكنون عندها في مآويهم العبثية المتهالكة، بالتّجاهل، فيمرّ عمر الواحد منهم سريعًا من المهد إلى اللّحد هناك، وبخار أنفاسه أمامه في الأزقّة، دونَ أن يتبصَّر ولو مرّة واحدة جلالَ الشّاهق، وسحرَ الأمكنة التي عتّقتها القرون، كأنّه لا يرى شيئًا فارهًا يحيط به من كلّ ناحية؛ أمّا مَن بَنوا السّدّ في الخلاء، الذين كانوا غائبين في الغبار وسحب الجراد من قبله؛ فعاشوا على غير ذلك، فقد آمنوا بمبناهم إيمانًا عميقًا، مخيفًا، باعتباره السّخي، والذاخر، والمَعْلَم الوحيد في عالم بغير معالم تقريبًا، وهو أوّل ما ينظرون إليه كلّما طلعت عليهم الشمس، وكلّما عادوا إلى الحيِّ من أسفارهم، وكثيرًا ما كانوا ينظرون إليه من نوافذ البيوت وهم يشدّون عليهم أغطية النوم؛ إنّه اختلاف شديد في التّعامل مع البناء

الذي يفرض على الإنسان شعورًا بالضآلة، ربما يرجع هذا الاختلاف إلى أنّ الجوامع تذكّر بالدّعاء العريض، والسد يذكّر بالاستجابة.

كان هكذا السّد عظيمًا ووافيًا في أعين أهل القافلة، هؤلاء الذين يمضون من تحته قادمين من بعيد، ناظرين إليه، مطمئنين على مستقبل السّلالة، لكن يبقى لدى كلّ إنسان أوجاع ضآلته الحقيقية، وحاجته الأكيدة إلى سدِّه الخاصّ، كالثراء، كالنجاح، كالمكانة، كالسيادة، كالشهرة، كالحبّ، كالجاذبية؛ السّد الخاص الذي يفقد الإنسان شيئًا من حرّيته وهو لا يبالي مقابل أنْ ينعم بالاقتران به، وبالاتّكال عليه، السّد الخاص الذي يبدّد مخاوفه من الغيب، ويروي ظمأه الشّخصي، ذلك الظمأ اللّعين المرعب، شديد الإلحاح، الذي لا يتوقّف عن التفكير فيه إن نام وإنْ قام، الذي يضعضعه ويذلّه، فيحيا به مثل الميت إلى أن يرتوي، إن ارتوى.

فزع أحمد بن جهير قائدُ القافلة وهو يمضي في طريقه من رجلٍ ظهر أمام جَمله فجأة كأن الظّلام قد صنعه، لقد أوقف الرّجل جَملَ ابن جهير، وسرعان ما حكى له في غبش الفجر- بكلّ اغتباط- عن النّصر الذي حقّقه أبوه وتتحدّث عنه السّارحة كلها، حكى له عن يوم الضباب، وما حدث في يوم الضباب، وأشار بيده بكلّ حماسة وهو يمسك خطامَ الجَمل إلى سجن الأمير الحديديّ من بعيد، وقال لأحمد وقد نفرتْ عروقُ رقبته من الفخر والانبهار بالشيخ جهير، قال: إنّ الشيخ جهير لم يفصِّل القفصَ الحديدي هنا أو هناك؛ بل فصَّله عند حدَّاد من واحة الشّهوب نفسها، ولم يفصِّله عندما نشب العراك بين الحي والواحة، بل فصَّله بعد أن تصالح الأمير همام والشّيخ غائب، ولم يجب عن استفسار الحدّاد أو أيّ أحد في الواحة أو الحي عن سبب تفصيله لهذا القفص الغريب إلّا بابتسامة، لا أحد كان يعرف غيره، ثمّ حرّض سريَّة من الشجعان لاقتحام الواحة بخيولهم التي كانت تسبح إلى صدورها في الضّباب، ولمّا عادوا إليه بالأمير كان قد جمع أجزاءَ القفص وأقامها، ووضع الأمير في السجن. ولم يشعر أحمد بالكثير من الامتعاض بعد أن سمعَ ما سمع، ولم يشعر بالفخر؛ فقط شعر بالصدمة.

ترك ابنُ جهير أمرَ إدخال البضائع إلى المخازن للخدم والمساعدين، وجعل أحدهم يحضر له حصانَه، وغسل وجهه في ركنٍ من أركان أحد المخازن، وخلع ملابسه المغبّرة، وارتدى الثّوب الأبيض النّظيف وتعمّم بالعمامة، ولم يهْرَع إلى أبيه وأمّه، ولا إلى سجن الأمير، بل وجد نفسَه يعود ويحوم بحصانه حول مسقى السّد، منتظرًا بقلبٍ يكاد يقفز من صدره، توافد البنات وبينهنّ ثريا التي يكاد يقتله حبّها.

كان جهير قد أرسل ابنه الذي لم يعدْ لديه أيّ أمل في أن يكون فارسًا من فرسان العشيرة، ليقود هذه القافلة، ويخرج من عزلته، وأسوار روحه النّعسة المرهفة، ويختلط بالناس والأسواق، فيزداد خشونة واهتمامًا بالشئون الجادّة للحياة. وقد رحّب هو بقيادة هذه القافلة، لأنّه كان يمنّي نفسه بأن يعود رجلًا قويًّا رصينًا، ولا مباليًا مثلَ كثير من الفحول الذين يستنزفون عواطف العذارى زهاءَ القليل من الاهتمام، كان يريد أن يكتسب هذه الفظاظة الأنيقة الجاذبة، وهذا الغرور الظّريف، وتكون الأيام الخالية قد أدّبت هذه الفتاة التي سافر بعد أن حضر عرس الشّاب الذي يظنّ أنّها تحبّه، لتكتشف في غيابه كمْ هي حمقاء لأنّها لم تهتمّ به وتبادله الحب، وهو المخلص الذي لم يفكّر قطّ في غيرها، وهو ابن جهير كبير العشيرة كلّها حتّى في حياة الشّيخ غائب بن سلاف.

عندما اقترب من الحي عائدًا على رأس القافلة، كان يتخيّل بسعادة بالغة منظرها وهي تهبه بشكلٍ عفوي تلك النّظرة اليانعة التي يهبها النّاس للعائد من سفر، النّظرة المصافحة التي تسأل عن طول الغياب، وكان يتخيّل غروره وتجاهله وكأنّه قد نسيها، وتخيل دموعها وندمها على أنّها فرطت فيه عندما تعود لمخدعها؛ لكنْ عندما دخل الحي يقود هذه القافلة في غبش الفجر، وقد خيَّم الشّجن على المسيرة، وجد نفسه يراها في كلّ شيء: الجبل والسّد والمسقى، ونخيل البلد، واليمام، والهواء الطّلق، وأنفاس الصّباح، والرّؤى التي رآها النائمون ولم تزل تتجول في الهواء؛ ولمّا بحث عن نفسه وجدها في سجن الأمير الذي أشار إليه الرّجل الذي شقّ الظّلام إليه.

تجلّى ضياء الصّبح بعد قليلٍ على جماعةٍ من بنات الحي عند مسقى السّد، يملأن القرب والجرار من الصّنبور، ومِن حولهنّ القليلُ من الغنم تشرب من حوض الماء المخصّص هناك. وقد كانت ثريا بينهنّ، تمارس هذا العمل الصّباحي، كنوع من إعلانٍ بداية يوم جديد، حيث يمثّل التجمّع العفوي هناك بغير مواعدة بالنسبة إليها ناديًا مبكّرا للفتيات، تنشّط كلّ واحدة منهنّ فيه أحاسيسها التي خدَّرها النّوم بما تيسّر لها من التعاضد والغيرة. تلتفت خلفها، فتجد أحمد بن الشّيخ جهير مبتسمًا، كتلك الابتسامة التي يقف بها شخصٌ عاد يحمل اعتذاره، وينتظر عند باب أحد، تلك الابتسامة التي تتسوَّل ابتسامة.

كان الشّاب الذي تمنّى أن يتمنَّع عندما يراها، وتمنّى أن يبدو قويًّا ولا مباليًا، مثل الرجال المغرورين، قد شعرَ بجفاف حلقه عندما وجدها بغتةً، وشعر أنّها سدّت عليه رحابة الكون، وذهبَ كلّ شيء فيه في ناحية، لقد اشتدّ عليه مرضه بها، وتصرّف بهذه الخفّة الملحوظة أمام البنات، كأنّه يوشك أن يعلن حبّه لها وليكن ما يكون.

نظرتْ ثريا بضيقٍ واضح إلى هذا الشّاب الأبيض المنعَّم، ذي العينين الواسعتين الجريحتين، اللّتين يحيط بهما هالةٌ من رماد الألم، وذي الفم الذي يحفّ به خطّان من التجاعيد رغم صغر سنّه. أشاحت بوجهها عنه، ثمّ عادت ونظرت إليه نظرةً واحدة سريعة وساخطة وطاردة، وقالت لنفسها بعد أن أبعدتْ نظرها عنه بطريقة قاسية كأنّ رؤيته في الصباح نذير شؤم: لماذا لا تموت يا ابن جهير، لماذا ضّل عنك ناهبو القوافل!؟

تلك النّظرة الساخطة شوَّشته كثيرًا وهو الذي يعاني وحده من اضطرابٍ أصيل في روحه وضآلة ماكثة، ورغم هذا فإنّ هذه النّظرة السّاخطة لم تجرّده من كلّ شيء، فهذا الحزن العميق الذي ينضح على هيئته، ويقرض أطرافَ شبابه، يُعطيه شيئًا من الفخامة؛ وهو في ثوبه الأبيض الذي كان يقفُ به في ذاك الصّباح يقتله الوجد، ووجهه الأبيض الذي أثخنه الأسى، وعمامته البيضاء المرسلة الطّرف، كان مثلَ طيفِ شابّ ميّت بعثه الحنين؛ وحصانه الجميل الأشهب الكافوري تحته، المحزون النّحيل مثله، كان يبدو كأنّه نفثة من دخان على وشك الانقشاع.

لقد اضطرب بشدّة عندما وجدها تضبطه بنظراتها السّاخطة، وتبعد نظرها عنه بكلّ هذا الشّعور بالغم، وتلفّت حوله على كلّ النواحي، ونزل من أعلى حصانه، وتصرّف كأنه يعالج شيئًا في الحافر، وهو يختلس النَّظر إليها مرّة أخرى، كأنّه مقهور على ذلك، بشيء من الحرص والتستُّر، كأنّه يحاول

أن يرتوي من رؤيتها ولو من بين قائمتي الحصان، ثمّ تعلق بساقي الحصان محبًّا ذليلًا على وشك البكاء، كما يتعلّق الخاطئ بحديد الولي عند الضريح.

غروب التي تقفُ بجانبها لاحظته وهو يسترقُ النّظر بوجه مهزوم يعلوه الخزي والعطش؛ وبدافع من الخفّة فعلت أقصى ما عندها لتؤكّد لابن الشيخ جهير أنّها تنظر إليه، وتقدِّر أوجاعه، وحافظت على ابتسامة شديدة الوقاحة تبدي بها تعاطفًا متهتّكا معه، فانتبهت لها ثريا، ودفعتها من ظهْرها بقسوةٍ لتتكفئ على المسقى كما كانت، ووجّهت لها إنذارًا مباشرًا بأنها لو جلبت لها بخفّتها أيّ شبهة ستضع وجهها في ماء هذا المسقى حتّى الموت. أمّا هو، عندما بان له بغير أيّ فرصة لأنْ يخدع نفسه أنّها كانت تتمنّى أن لا يعود، انسحب بحصانه وذهب بحزنه لأهله وهو يتمنّى لو عذّبه أبوه بسفر آخر يموت فيه في الطريق.

تماسكت ثريا حتّى عادت إلى البيت، لتصرخ في متاهة الحبّ والمقت، في وجه أمّها بما فعله أحمد اليوم، وقالت إنّه كان مكشوفًا للغاية، وثقيلًا كالمرض، وبعض البنات قد لاحظنَ أنّه حتّى لم يدخل لأهله وجاء إليها بلزوجته وسخَفِه.

المرأة كانت فاحصة، ومتفهّمة، وقليلة الانفعال على خلاف بنتها. كانت تنسج على آلةِ نول بطول بال وهي تكلّم بنتها بصوتٍ عملي ومنشغلة في ذات الوقت في ترصيص الصوف بعناية تثير الضّجر، وتلومها على غرورها الذي يجعلها تعرضُ عنْ شابّ مليح مثل أحمد، وأبوه هو مَن هو! وذكّرتها بأنّ أحمد في نهاية الأمر لا يريد شيئًا مشينًا بل يريد الزواج، وهو لمَّح بذلك تلميحًا خجولًا قبل سفره، وعليها أنْ لا تغترّ بخفّته وراءها، فهذه من الأشياء العارضة في الرّجال، وتذهب بعد الزواج.

وقد سمعتِ الشّابة في نبرة الأمّ ذلك التهديد الهادئ الذي يوحي بأنّها على وشك أن تعريها أمام نفسها، وتعرّي لها ضعفها وقلّة حيلتها، فحاولت أن تغيّر مجرى الحديث، لكن الأمّ أوجعتها وعرَّتها: إنّك تفكّرين للآن في ابن العراقيب الذي فاجأك بالزّواج بعد صبرك الطويل، وأنا لا أريد أنْ أفرغ قبضتك من شيء فيها، بل هي فارغة، ولكنّك مصرّة على خداع نفسك، لقد تزوّج مصلح من الأرملة وانتهى كلّ شيء.

في الليل، كان أحمد في حجرته وحده يفكّر في شيء جميل قد ينساب يومًا ما بنعومة وحزن بينه وبينها، حتّى اهتدى إلى أنّه لا شيء يمكن أن يمسح عارَ لقاء هذا الصبح أجمل من أن يموتَ في السّفر، فينال منها ذلك الحزن النظيف، والأسف النقي، الذي يشعر به الناس على ميّت شاب من الأهل، وتنسى له مضايقته لها؛ وقد أغراه كثيرًا تخيّله لدمعة واحدة مثل لؤلؤة تتْثال على خدّها ساخنة من أجله في يوم ما. وفيما كان أحمد يبلع ريقَه من شهوة الموت الذي يردّ الاعتبار، كان نورُ الفانوس الأخضر يضيء وجهَ ثريا الباسم الحزين، ويعطيها هيئة شهيدة، كانت بنتُ الحي البيضاء الجميلة الطويلة القوام تقفُ مبتسمةً تغالب اللوعة بكبريائها الطّبيعية، وبتلك الملامح التي توحي بالظّرف وقوّة الشخصية، وبعينين باسمتين بهما خليط غريبٌ من الحياء والتّلقائية. كانت مستندةً على حمارها المربوط أمام البيت، وتتحدّث بصوتها المميّز ببحّته ودفئه، مع صاحبتها غروب التي تقف أمام بيت مجاور، التي عبّرت عن تعاطفها مع أحمد عند المسقى، وهي شابّة سمراء نحيفة دائمة الابتسام، وتبدو الدهشة دائمًا في عينيها وفي فمِها المفتوح على أسنان شديدة الابيضاض، وتتمّ نظراتها عن أنها

لمّاحة وقوية الملاحظة ولا يفوتها شيء؛ وقد وصلتْ إلى الثانية والثلاثين من عمرها بغير زواج، لذا كانت تجد نفسها مدفوعة للتّقهقر ومصاحبة الأجيال الجديدة من فتيات العائلة، جيلًا من بعد جيل، لأنّ قريناتها قد تزوّجن واستقررن، وتزوّج بعدهنّ بنات العشيرة من الأجيال التالية. وساعدها على تعطيل إحساسها بالزّمن هذا العود النّحيف الذي منعه القلق والحسرات المتتالية في مواسم الأفراح من أيّ زيادة، حتى كانت تبدو بالفعل أصغر سنًّا من قريناتها.

في ذلك الوقت كان مصلح، الفارس الشّاب، ذو العينين الواسعتين السوداوين الناعستين، الذي له ابتسامة مشعّة حتّى وهو يمشي بمفرده صامتًا؛ قد خرج من بيته شاردًا كأنما استدعاه غضبُها، فنسيَ في شروده أنّه صار يتحاشى المرور من عند بيتها، ها هو ذا قادم بمشيته التي تليقُ بشاعر مهموم، أو وليٍّ منصرف القلب عمّا حوله، مشية ليس فيها خيلاء الكثير من الفرسان، حتّى أنّ مَن يراه لأوّل مرّة، وهو بهذا العود المتماسك المعقول، وهذه الوسامة الطيبة غير المتغطرسة؛ يشك في صحّة ما يشاع عن أمجاده وبطولاته وآخرها ما أدهش الناس به في المعركة الأخيرة في يوم الضباب، والتي دعت منشد القبيلة ذا السّاق الواحدة أن يسميه (الممْسوس) بعد أن أخذ نفسًا عميقًا من الغليون الطويل. ورحّب الأهل بهذا الاسم الذي يعني أنّ صاحبه به مسّ مِن الجنّ أضفى عليه قوّة خارقة، وأذاعوا هذا التهويل بين بعضهم البعض وبين ضيوفهم الذين جاؤوا خصّيصا ليتمتعوا بأخبار الانتصار.

تدقّق ثريا النّظر فيمَن هو قادم مِن بعيد، حتّى تتبيّنه، إنّه مصلح، الذي قتلها حيّة، وتذوب نظراتها فيه بالظّمأ الشّديد إليه، كانت تقول لنفسها ويلي إنّه قريب جدًّا، ثمّ ويلي فهو بعيد تمامًا؛ وغلبها غليان في أعماقها، من شدّة السّخط والعاطفة، واضطربت ملامحها بكل المعاناة والإحساس بالغُبن، وهزّت رأسها كأنها تتوعّد، وهو مازال يتقدّم حتّى أوشك أن يمرّ من أمام الشّابتين، وعلى وجهه نفسُ البسمة المشعّة، وشرود العارفين، وقد وقع بصره بغتة على وجْهها الذي يسبح في نعيم الضّوء الأخضر فنزفت مشاعره، وكاد يجرفه الحنين، لكنه تماسك، وابتلع ريقه، وتمنَّع عن النّظرة الثانية وهو نادم على أنّه سيمرّ من أمامها وهي تقطع طريقه بجرحها الدامي.

نظرتْ له الهائمة وفي عينيها دمعٌ كدمع الموت في أعين الإبل العطشى، ثمّ مالت على ذراعي حمارها فجأة وكأنّها قد أصيبت باللّوثة، وحلَّت بكلّ العصبية في العقدة التي تربطهما بوتد، وضربت الحمارَ من الخلف، فلم يتحرّك لأنّه لم يفهم أين عليه أن يذهب، فضربته مرّة ثانية بقوّة فتحرك بهدوء باتّجاه غروب كنوع من التّخمين. فيما كانت غروب بعينيها المتوقدتين وبسمتِها العريضة تترقّب الموقف بفضول، وتَشعر أنّ هناك شيئًا ما سيحدث ويفاجئ هذا الشّاب الحييّ في شروده واطمئنانه. وعندما كان مصلح- بالضّبط- مارًّا من أمام ثريا على بعد أمتار قليلة، وهو يكتم اضطرابه، نادتْ على صاحبتها وهي ترميه بالكلام، بصوت إنسانة أسْكَرها اليأس: خذي بالك يا غروب مِن هذا الأعجمي الذي فلت منّي.

اغتمّ وأغلق عينيه، وشعر أنّه تلقّى لطمة قويّة، ثمّ فتحهما واستمرّ في مشيه، ولكن بعد أن تخلّت مشيته عن الطّمأنينة وأصابها ما يصيب مشيةَ رجل يعلم أنّه يُنظر إليه بعين ساخطة، بينما انضمّت الفتاتان في نقاش حول التعبير الساخط المُشين الذي تفوّهت به ثريا، فالأعجمي هو تعبير مخفّف عن البهيمة.

وعلى حين كان الآخر يساوم نفسَه على أنّه من الجيد أن يموت، كان مصلح يحاول أن يبرر موقفه، ويؤكّد لنفسه بكلّ ضيق واستياء أنّه لا صكّ لديها تملكه به حتّى تعطي لنفسها الحق في أنْ تهينه إنْ غضبت عليه، ولم يصدرْ منه منذُ أن بلغ مبلغَ الرّجال وعدٌ لها يجعلها ضحية انتظاره، إلّا أنّ ثرثرته مع نفسه أرهقته، وفي النّهاية، كان هناك طفل صغير في أعماقه يحتجّ عليه، ويتّهمه بقتل هذه الشّهيدة الخضراء، التي قطعت طريقه بمأساتها وزيتون عينيها المضاء بالنّقمة، لقد انجرح في عبوره مِن صوتها المنقوع في الألم والحنق، وفي خلٍّ الذكريات البعيدة، ومن جثمانها الذي يتأرجح أمامَ ضميره بغير هوادة، ولقد وجد نفسَه من بعد أن مرّ من أمامها يجابه شيئًا شاهقًا راسخًا أمام روحه، كأنّه سدّ، يشعر بالصّدمة والإعجاب من هوله، وهو هذه العاطفة التي اختزنتها له عبر السنين.

أثناءَ تلك الخطوات التي كان فيها بين دفاعه الرّكيك عن نفسه وبين ذهوله، أخذت غروب التي تعيش شظفًا عاطفيًّا تستحلبُ فيه انتظارها الطويل، تفرغ طاقتها المشبوبة في النصح لصاحبتها، بصدق، وبمتعةِ مَن يصرّ على الكلام عن أشياء يفتقدها، فقد صارت برغم ظمئها وقلّة حيلتها خبيرةً موثوقة الرّأي من طول تأمّلها في أحوال المحبين، فقد جربت كلّ شيء سماعًا من الآخرين، ولم تجرّب أن تسمع هي كلمة حبّ واحدة، فيما أخذت ثريا تشكو إليها بيد مرتجفةٍ أنّها متعَبة حقًّا، بكل ما عرف الجرحى الضّائعين من معنى للتعب، وبكل اللوعة التي ذاقها مَن خسروا كلّ شيء فجأة، وأنّ مخدّتها جمر، ولقمتها مغموسةٌ في المر، وصباحها يأتي كأوّل صبح على الأرملة، وأنّها تموت، تموت حقًّا، وهي تودّ أن يعرف هذا جيدًا أنها تموت بسببه؛ لأنّه ليس من العدل ألّا يعرف ذلك أبدًا، ليس من العدل أن يشدّ حبلًا في العتمة ويمضي، دون أنْ يملأ عينيه بجثمانها المتأرجح، ويعرف أنّها ماتت شنقًا بفعل يده، إنها تريد أنْ تأخذ حقّها منه فزعًا يفسد عليه رضاه عن نفسه.

وقد تأثّرت غروب جدًّا بما سمعت، وألجمها ما صرَّحت به صاحبتها من عذابها، فتفجَّر فيها في هذا العطف ما بها من الأسى من صدود الرجال عنها وقلّة اكتراثهم بها، فقالت فيه لحظتها ما أحبّت أن تحتجّ به على جنسه كلّه، فدعت عليه بأن لا يوفق الله وجهه، بنبرة صعد عليها السّخام. فأسرعت ثريا بوضع كفّها على فمِ صاحبتها، وأشارتْ لها بالكفّ الأخرى تنهيها عن ذلك، وفي عينيها حزنُ روحٍ مهزومة.

وبعدما ارتبكت غروب، وندمتْ على اندفاعها، وسكتت قليلًا، حاولت أن توفّر له بعض العذر على سبيل المجاملة، بصوتٍ بدا عليه عدمُ الاقتناع بما تقول، فهو إذًا لم يتخلَّص منها من أجل شابّة أخرى؛ بل كلّ ما في الأمر أنّ أخاه الكبير ترك صغارًا يتامى، فغلبته الشّهامة وأحزان العائلة، ورأى أنْ يجمع إليه عيالَ أخيه وزوجته، فتزوّج هذه الأرملة التي تكبره بتسع سنوات.

: إنّه كان آخر رجلٍ يمكن لهذه الأرملة أنْ ترجوه، وقد كان- ولا يزال- أوّل وآخر من أرجو. وها أنذا اليوم بعد كلّ هذه السّنين من الرّجاء فيه، لا أستطيع أن أتّهمه بشيء، لأنّ كلّ ما كان لم يكنْ أكثر من كلام قديم لطفلين، كلام كنت- ومازلت- أراجعه كل صباح حتّى يظلّ نضرًا في خيالي، ثمّ من بعد أنِ ارتسَم الشّارب في وجهه وصار شابًّا وسيمًا يمرّ من أمامي متعففًا عن الغزل كنت أجدُ وعدًا من عينيه يتجدّد كلّما وجدته في طريقي، وهذا كلّ ما لديّ للأسف، وكما ترين، كلّ ما عندي عليه لا يكفي حتّى لأن أعاتبه، ولكن هو يكفي لأنْ أغرم به حتى الموت.

في ذلك الوقت الذي كانت تعبّر فيه ثريا عن فيض التّباريح، خرج أحمد بن جهير من تزاحم الأفكار في رأسه ليشمّ بعض الهواء بالقرب من البيت، مع شابّ متحمّس للعواطف المشبوبة ويعرف القصص المرتبطة بأبيات شعر عاطفيّة شديدة التأثير، ومن حظّ أحمد السيّئ أو الجيد، أنّ الشّاب قد عرض عليه أنْ يحكي له قصّة المرأة نائلة ذات الشّعر الناعم كالسيل، الأسود كاللّيل، الذي كان يغطّي ردفيها، الذي قصَّته حتّى صار بطول شعر الرجل المقصّر، فرحب أحمد، فحكى له كيف أنّ هناك شاعرًا أسمر قد هامَ بها، ولكنّها زهدت فيه لأنّها كانت بيضاء جميلة، فذكر في أبيات شدّة حبّه لها، وكيف أنّ الشّقاء على الهجن هو الذي منحه هذه السمرة. وحدث أنِ اشتكت من تساقط بدأ يصيب شعرَها الجميل، فأصابها بالهمّ، ووصل الخبر إليه فشاركها الهموم وهي لا تدري، حتّى خرج مع خادمه إلى بلدة فيها عشّاب معمَّر منعزل يركّب زيتًا نادرًا ثمينًا لا أحد يعرف سرَّه، يعيد نموّ الشّعر مرّة ثانية. وفي طريق العودة هاجمه لصّان وجرحاه جرحًا غائرًا، وأخذا ماله، وحرصًا على أنْ ينتزعا منه القارورة التي كان متمسَّكا بها، فصارحهما بأنّه غفر لهما سلبه وجرحه، لكنّ هذه القارورة بها زيت لامرأة يحبّها لعلاج شعرها، ولم يخرج من بيته إلّا من أجل هذه القارورة، وهو يرجوهما أنْ يتركا خادمه يعود بها وبعمامته إليها، فأشفقا عليه وندما على ما فَعَلا، فقد كان هناك من قطاع الطرق من لا شيء أبغض عندهم من سفك دم عاشق. وتركا الخادم يمضي خائفًا وحزينًا إلى بلده. لما ذهب إليها بالعمامة والقارورة، وحكى لها مأساة الشّاعر المفتون، صرخت وقصت شعرها كالرجال من شدّة النّدم، وأخذت تتحسّر عليه أربعين سنة.

وقف شعر رأس أحمد، وشعْرُ يديه، وسأل الشّاب وهو يشعر بالرضا والانفعال: أربعين سنة؟! فأكّد له أنّ حسرتها دامت أربعين سنة على هذا الرّجل الذي لم تقدّره إلّا بالموت.

وتفرّق عطشى الحب هؤلاء الذين يعيشون تحت السّد، تفرّقوا بعطشهم الذي لا شأن للسّد به، ذهب مصلح باتّجاه سجن الأمير، وذهبت ثريا إلى أرق الوسادة، وذهبت غروب إلى بيتها بمنديلها الذي ينساب طرفاه على كتفها، وهي الشّابة التي بكت في اليوم الذي وقع فيه الغريب في قبضة الشّيخ جهير؛ أمّا أحمد وبعد أنْ ودَّع بكلّ تقدير ذلك الشّاب العاطفي الذي وضع البخور على جمر أحزانه، والذي يحفظ ألف مناسبة مؤثّرة قيلت فيها أبيات الحبّ، دخل وأخذ يروح ويجيء أمام باب غرفة أبيه وقد ذهب صبره، كان يفكّر في النداء على أبيه النائم، ليحاول أن يقنعه بالسّماح له بالذّهاب بقافلة في القريب العاجل إلى بلدة اسمها الكيمان على ساحل البحر الأحمر. ولم يكنْ ما أثار حماسته لتلك الرّحلة التي راقت له إلّا أن الطريق المستقيم إلى تلك البلدة الذي هجرته أغلب القوافل، ولم يعدْ يسمع فيه إلّا أصوات الطيور آكلة القتلى التي تتعجّب من شحّ اللحوم في الآونة الأخيرة، سيجد فيه نهاية نبيلة لقصته، حيث ينزل اللّصوص من مغارتهم، ويقتلون العابرين ولو على الخرز وفروة الخروف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العنكبوت

توارى مصلح في ناحيةٍ قريبة من سجن الأمير وقتًا، بعد أنِ انْجرح رضاه عن نفسه كما أرادت مَن تحبّه، وعزم في جلسته مختليًا بنفسه، وبغضب مثل غضب الصّبيان، على أن لن يمرّ من أمامها مرّة ثانية؛ أمّا هي فكانت قد استأذنت من صاحبتها بعد أنْ أهانته بقليل، وعادت إلى المخدّة والأرق، وهي تشعر بندم صبية. لقد اسودّت الدّنيا تمامًا في عينيها بعد أنْ قالت ما قالت، وتخيلت أنّها لن تراه عن قُرب أبدًا؛ لذا أخذت تطمئنُ نفسَها وهي تتقلّب على جنبيها بأنّه سيمرّ من أمامها مرّة أخرى، بالتأكيد، ولو سهوًا، وستصمت في مروره ولا تنطق بأيّ شيء، وستبتسم ابتسامةَ اعتذار سيلحظُها، فيعرف أنّ هذه الزلّة لن تتكرّر، فهذا ما لديها لتقاوم اختفاءه؛ ومجرّد عبوره من أمامها بغير اتّفاق كلّ مدّة هو ليس كلّ ما تريد، ولكنه يوهم بالأمل.

بعد أن مرّ وقت من انفرادِ مُصلح بنفسه، اتّجه إلى سجن الأمير، الذي اكتشف في التردّد عليه نشوةً غريبة. أخذ يقترب وهو ينظرُ بألم إلى قفص الحديد الذي يغمره النّور بفعل الشّعلتين الطّويلتين المثبّتتين بالقرب منه، فيما كانت سريّة الحراسة المكوّنة من ثلاثة رجال تقف موزّعة بالقرب، وعلى صدر أبعدهم قرنٌ عظيم عليه أن ينفخ فيه فورَ أنْ يشعر بأيّ حركة مُريبة حول الحي. ووصل مصلح إلى قفص الرّجل الحبيس، ورأى في نور الشّعلتين دموعه التي عجنها الغبارُ على وجهه فتجلّطت كالشحم.

في داخل هذا القفص الذي بحجم حجرة، يقف الرّجل الخمسينيّ شاردًا متلبّد الشّعر، ولا يزال يبدو عليه الثّراء من زيّه الأحمر البندقيّ المصنوع من أجود المخمل، وإن كان هذا الزّي الفاخر قد اتّسخ وتمزّق، يقف وينظر أمامه إلى لا شيء بين الأسياخ، كأنّه لم يلحظ بعدُ مجيء الفارس الذي لا ينقطع عن زيارته، وكان يتذكّر الأيام الأخيرة قبل أن يقع في الأسر.

كانت الأمور قبل يوم الضّباب هادئة، فقد أتمّ شيخُ عشيرة منصت- الشيخ غائب بن سلاف- صلحًا مع الأمير في أجواءَ ودودةٍ وسامية، بعد المناوشات التي نجمت عن خلافات تافهة بين فريقيْن من شباب البلدين، وكان هذا الصّلح في قصر الأمير، وبحضور أكابر من البلدات القريبة، ثمّ انسحب الشّيخ العجوز إلى مكمنِه كما كان، مكتفيًا بعودة الأمور إلى نصابها، معبرًا عن افتقاد فطريّ لشهيّة الاحتفال، ولحسِّ المجاملة.

وإلى مدّة، ظلّ الأمير يتهكّم في مجالسه الخاصّة، وفي الحدود المتعارَف عليها، كعادة القرى في أسمار ما بعد الصّلح البارد، على جلافة المناصت وجهلهم، وعلى شواربهم التي يتركونها تزحفُ باتّجاه شفاههم، وعلى الفوضى والصّوت العالي اللّذيْن يدخل بهما الواحد منهم المجالس الكريمة سائلًا عن سيدٍ من السّادة، كأنّه في زريبته يبحث عن تيس من تيوسه جاء يخصيه؛ وخلال تلك المدّة كان كبار حيّ المناصت على الجانب الآخر يتهكّمون مع محبّيهم على الأمير الطّري وكبار الواحة الدجاجات المفتقدين للشّهامة، ويذمّونهم على حادثة قد مر عليها أكثر من عشرين سنة، عندما ظفر بعضُ الناس برجل قتل ابن عمٍّ لهم وهرب، بعد أن بحثوا عنه مدّة، أحاطوا به في سوق واحة الشّهوب التي وصل إليها قريبًا، وظنّ أنّه سيختفي في زحامها، وأخذ يستجير بأهلها وكبارها وهُم يقتلونه ببطء، في قلب السّوق، بالخازوق، حتى ترك القتلة قتيلهم لأهل الواحة الذين خرجوا بعد

الموت بتؤدةِ الزّواحف، ليقدّموا الواجب الوحيد لمن استجار بهم بعد أن تخلص من نكد الدنيا: غسلوه ودفنوه.

واستمرّ كبار الفريقين في هذه الأجواء الخشنة الانتفاخية، والمحكومة في نفس الوقت، والتي يكون الغرض منها المباهاةَ وتسليةَ الضّيوف ليس أكثر، إلى أن تصفو النفوس تمامًا. والشيخ غائبٌ من ناحيته مُنصرف النّفس تمامًا عن هذه النّوعية من الجلسات، ليس بناءً على حسابات ناضجة، بل مِن وحي الطّبيعة البسيطة التي تكره السّخافات والاستعراض وكثرة الكلام فيما لا نفعَ فيه؛ والأمير من ناحيته، لا يتسلّى بذكر الشيخ غائب، ولا يلمح له في أيّ مداعبة من هذه المداعبات الخشنة؛ لأنّ الشيخ- الذي لم يكن فخمًا- كان جديرًا بالتّوقير، فهو رجل واضح ومقتصد ومترفّع عن سفاسف الأمور؛ ليس معرضًا عن المعايرة فقط، بل معرضًا حتى عن توخّي الامتداح، فلا يمدح الإنسان في وجهه بأكثر ممّا يمدحه به في ظهره، لذا كان الأمير يشعرُ في هذه العلاقة العدائية المؤقتة- والحميميّة في ذات الوقت- بأنّ الشيخ خارج هذا الأمر الظريف.

وفي عشيّة يوم الضباب، ولم تكن هناك أيّ نذر لاشتعال المناوشات مرّة أخرى، كان عند الأمير عددٌ كبير من المحبّين والحلفاء من بلاد قريبة يجلسون على شكل حدوة فرس كبيرة يجلس الأمير في أوسطها يحفّه الآخرون، وكان الخادم قد جلب عصارة البرتقال ليعصر لهم في مجلسهم، وهُم جميعًا في غاية الشّعور بالأمن والرخاء، ومعجبون بالفخامة التي تحف بهم، وسأله رجلٌ عند طرف حدوة الجالسين بصوتِه المرتفع: لماذا لا يتبادل الزيارات هو والشيخ غائب كما يفعل النّاس بعد الصلح تعبيرًا عن الودّ ونسيان ما فات؟ قالها بلهجة من يفسح الطّريق للأمير المشتهر بحسّ السّخرية القوي عنده، فسكت الأمير قليلًا كأن نفسه لا تطاوعه على أنْ يجعل الرّجل العجوز غرضًا، لكنّ بعضَ المحيطين بالأمير حثّوه وشجّعوه وهم يبلون شفاههم بألسنتهم منتظرين لذعةَ الفكاهة، فقال بصوت عال حتّى يسمعه مَن سأله، إنّه مثل عنكبوت على جذع شجرة ميتة، لا تعرف أهو حيّ أم ميت إلّا إنْ فزع، وبعد أن تندّ عنه الحركة يعود إلى سكونه الطويل. أخذوا يضحكون على هذا التّشبيه النادر، أمّا هو فلم يضحك، ومرّت به سحابة من الغمّ والأسف، وأكمل سهرته الحاشدة وهو لا يدرك أنّه سيقوم من نومه الخفيف مثقلًا بالشؤم، مستعدًّا للهزيمة، أسيرًا في بلد الشّيخ الذي شبَّهه بالعنكبوت شبه الميت.

ولمّا صار الأمير في القفص، قال الشّيخ جهير للجموع إنّه حكم على همَّام بالسجن مدّة حمل النّساء، حتّى إذا ما خرج قال: وُلِدت من جديد؛ هذا أو يأتي أهله إلى هنا مذعنين ويدفعون الفدية التي يراها. وقد أعجب المهووسون بالأمجاد الانتقامية غير المفسَّرة بهذا الحكم، وتمنوا أنْ لا يأتي أحد أبدًا لفداء الرّجل، أمّا الباحثون عن ثراء فاحش ومباغت تحت سحابة المجد ينزل عليهم بغير عمل، وهُم الأغلبية؛ فقد أكّدوا فيما بينهم أنّ الشيخ جهير سيأخذ على سبيل الفداء نصفَ ما لدى الأمير وعائلته من الخيل والإبل والأغنام والبقر والذهب والفضة، وأنّه سيوزّعها بين الأهل حتّى لا يبقي لنفسه منها تيسًا واحدًا، وأخذوا يتكلّمون في هذا حتى تشبعوا به، وأخذوا يطمئنون أنفسهم بأنّ الأمير وأهله لديهم من العزّة والكرامة ما لا يسمح لهم بتركه للحكم بالسجن إلى نهايته.

انتبهَ الأمير الذي طالت غفلتُه، على صوت مصلح وهو يلقي عليه التّحية باستحياء، وهو الاستحياء الذي لازم مصلح منذُ أوّل ليلة تقدَّم إلى قفصه ليطمئنّ عليه. تمنى له مساءً سعيدًا، فتلفّت الرّجل وهو

مازال في وقفته التي يبدو فيها كشبْه مجنون، وسأله متعجبًا من أين تأتي له السّعادة؟! وبلع ريقَه، وقال كأنّه يكلّم رجلًا من أهله يمكن أن يواسيه، لا رجلًا من أعدائه: ما هذا الذي حلَّ بي؟! قل لي بربّك هل أحلم أنا أم أنّ هذا حقيقي؟!

كان الرّجل يتكلم كما لو أنّ مصيبته حدثت منذ قليل، فقد كان مثل أيّ مكروب، يتعذب بالشعور ببعض التعوّد والتسليم ليندلع فيه مجددًا الشّعور بالصدمة والجزع. لم يستطع مصلح أن يرد إلّا بتنهيدةٍ آسفة، وحاول أن يصبِّره وقال له إنّها شدَّة وتزولُ عمّا قريب، فقبض الرجل على سيخيْن من الأسياخ التي بينه وبين مصلح، بقبضتيه المنهزمتين، كأنّه يحاول أن يهزهما، لكنه هو الذي اهتزّ، فأغمض عينيه إلى لحظات على دمع جديد نزل فوق دمعِه المتجلط، لقد أضعفَ الواقع المرير صحتَه، وكسر نخوته، وجعله غضبُه شبيهًا بانفعال رجل ضعيف يشكو، ثمّ فتح عينيه المرهقتين قائلًا: لم يكن بيننا وبينكم ما يحملكم على هذا أبدًا، كلّ ما شجر بيننا هو خلافٌ تافه بين الشّباب الصغار لا يستحق هذا. أذللتم الشهوب وأمير الشهوب، وجعلتموه في قفصٍ مثل ضبع حبيس، وكان القتلُ أرحم بي وأرحمَ بقلوب أحبابي، ولكنّي تآمرت على نفسي معكم واستسلمت خوفًا من الموت.

سكتَ قليلًا وهو ينظر إلى نور الشّعلتين وفي عينيه لمعة مثل لمعة حجر السبج الأسود الزّجاجي، وفيهما حزن غائرٌ قديم، أقدم من سنوات عمره، ثمّ قال ونفسه كأنّها هناك مع مَن يحكي عنها: وإنّ لي ابنة شابّة رقيقة يانعة، مثل ياسمينة يباركها النّور، وإني لا أخاف من ذبولي ها هنا، بقدر خوفي من ذبولها هناك بعد أنْ عرفت ما حلّ بأبيها الأمير، وكيف أخذوه غدرًا من خلف قصره ولم ينفعه أحد.

عندما سمع مصلح منه هذا الكلامَ بُهت، وشعر أنّه لا يعرف على الإطلاق لم حدث ما حدث، حتّى كاد يسأل الأمير عن سبب الغارة، ولمَ هو هنا؟ ثمّ إنّ الأمير الحبيس انطلق في إرباك مصلح وهو لا يدري بذلك، وتكلّم لأوّل مرّة من خلف الأسياخ بهذه الدرجة من الانفلات.

: إنّه عمّكم الحقود جهير مَن فعل بي هذا، وكان له ما أراد، ما أراد لنفسه، فكلّ هذا الجحيم الذي أُلقيتُ فيه هو خطّة رجل لا أكثر. نعم، هذا هو كلّ شيء، وأنا أدرى به منك، فالكبار يروْن بعضهم بعضًا بغير أوهام، هذا ما أحبّ أنْ تعلمه أيّها الشّاب الطيب المطيع.

انهزمتْ عينا مصلح من كلمات الرّجل التي أحبطته، وأخافته؛ إنّه يتمنّى أن لا تكون هذه هي الحقيقة التي فاحت من فم الرّجل المغلوب على أمره كما تفوحُ الرّائحة العطنة بكل صدق ووضوح، وقد سارَ إلى الرّجل مثخنًا من ثريا التي قطعتْ طريقه، وجعلته يرتاب في نفسه، وسيكون من الصّعب عليه أن يصبّ له الأمير المزيدَ الليلة بكلامه الذي يعني له أنّه خاطر بحياتِه واقْتحم الواحة في خدمة رجل، ولم يكن أسْمى من ذلك ولو لم يعرف.

إنّه الفارس الشّجاع الذي استهتر بروحه، وقاد سريّة الشّجعان في اقتحام الواحة، وهو الذي مرّ من الفِخاخ بقوّة الحظ السعيد هو والسريّة مِن خلفه، وهو الذي اختطف الأمير على الحصان كأنّه يختطف غزالة، وهو الذي سمّوه فارس العشيرة، وأخذ المنشد يمدحه طيلة أربعة عشر يومًا؛ لكن كلّ هذا المجد كان تحت إمْرة الشّيخ جهير، الذي يقول الرجل إنّه يفهمه أكثر ممّا يفهمه السّاذجون في حيّ منصت.

ومصلح مستمرّ في المقاومةِ بكل ما عنده، حتّى باللجوء للفكرة الرّاسخة عند العامة، وهي أنّ أيّ شيء رسميّ هو عادل ونظيف، أو على الأقلّ هو مبرّر، وكلّ ما يدفع الشيخ جهير الناس والأبطال والشّعراء إليه هو ذلك (الرّسمي) الذي يجب أن يُقبَل كما تُقبل الأرزاق؛ لأنه سيد هذه النّاحية في الحقيقة. لكن، رغم كلّ هذا، كانت كلماتُ الأمير التي يردّدها من خلف الأسياخ تنفذ فيه مِن خلال الثقوب التي أحدثتها في نفسه نظراتُ ثريا الغاضبة.

وظلّ الأمير في تنكيدِه عليه، بكلمات قليلة متقطّعة، يصم بها الشيخ بالأنانية، والغرور، والحقد، وحقارة الدوافع، فأخذت بعض الصّور تتداعى أمام مصلح رغمًا عنه، مستجيبةً لدعاية الأمير السوداء، وهو يعمل بكلّ إخلاص على مجابهة تلك الصور المبتذلة والعنيدة التي تسطعُ في خياله ولا يمكن تجاهلها؛ فقد قرَّبه الكبارُ إليهم كنوعٍ من التّقدير له على ما فعله في يوم الضّباب؛ وبعد أنْ جلس مرتبكًا في مجلس الشّيوخ، بجوار جهير، أوحى إليه هاتف داخلي متبجّح بوضوح وبرودٍ أنّه بجوار رجل لا يفكّر في الحقيقة إلّا في نفسه؛ ولقد رأى وجه جهير السّعيد بعد الانتصار السّاحق، وليس من مسافة كما يراه الناس عندما يخطب ويهدر، كان على وجهه سعادةُ رجلٍ محنّك وطموح، لا تشبه السّعادة المتزمّتة لرجل غيور يعيش من أجل غيره، وهو في الحقيقة لم يرَ تلك السّعادة المتزمّتة على وجه أيّ شيخ، ولكنّه يحتفظ في نفسه بتخيل عنها.

لقد واجهه صوتُ الأمير، ووجهه البائس من خلف الأسياخ، بمواجع الوعي التي كان قد نجح كثيرًا في التّغافل عنها، وانزعجَ كثيرًا، لكن عندما أعياه الأمير تمامًا، وظنّ أنّه أوشك على الاعترافِ بصدق كلّ ما يقول، رفع وجهَه، وشرد في السّد الشّاهق، بنيان الوطن، نظر إليه مليًّا، حتّى تماسك إيمانه مرّة أخرى، وشعر بالضّآلة، والمحدودية، وقلّة الحنكة، وظنّ أنّه لا بدّ أنْ يكون هناك ما لا يعلمه.

بعد قليل من الصّمت، اعتذر للأمير بنبرةٍ نبيلة، قائلًا له إنّ نفسه تدعوه لأن يكسر قفل المحبس الآن، ولا يمنعه إلّا خوفه من أنْ يحسبه الأهل خائنًا اشتراه الأمير بالذّهب. ثمّ خطف للبنيان الشّامخ نظرة أخرى، نظرة فيها ورع، وقال إنّه لو كان يعلم ما يعلمه الشيخ جهير لغفر له مهْما كان، ولكنّه لا يعلم.. لا يعلم أيّ شيء.

لم يشأ الأميرُ أن يؤكّد له أنه بالفعل لا يوجد أيّ شيء، واكتفى بأنْ هزّ له رأسه يائسًا وممتنًّا.

ومشى مصلح خطواتٍ قليلة، ثمّ التفت وابتسم، وقال له إنّ هناك خبرًا كان يجب أن لا يعرفه الآن، ولكن سيبشّره به، وهو أنّ الجرْو قادم عن قريبٍ لكي يصالح العشيرة ويفتدي أميره؛ فظهرتْ على وجه الأمير علاماتُ ارْتياح محتشمة، وارْتسمت الآمالُ الطيبة على ملامحه البائسة، بينما كان الفارس يبدي له تعجّبه من أنْ لا ترسل الواحة رجلًا من أهل أميرها أو شيخًا من شيوخها، أو فارسًا من فرسانها المبجّلين، وتعتمدُ على هذا الصعلوك المقطوع غريب الأطوار وحده. قال هذا ثمّ استدار بسرعة؛ لأنّه لا يريد أن يسمع من الأمير جوابًا يرفع فيه قدرَ هذا الرّجل المخادع الموصوف بالذكاء والدهاء في السارحة كلها.

ومضى مصلح في طريق عودته بخطواتٍ بطيئة، فأفصحَ وجه الأمير الغارق في الغبار عن سعادة غامرة أخفاها منذ أن سمع الاسم إلى أنْ يمضي الفارس، بكلّ ما لدى المضطهدين من دهاءٍ يثير

الشفقة؛ إنّه يثق تمامًا في أنّ ذلك الجرو الداهية سينجح في تخليصه من هذا الجحيم، لينتقم هو مِن بعد ذلك مِن هؤلاء الذين أذلّوه شرّ انتقام، وهو يرْجو أن لا يكون هذا الذي يبتعِد ويصغر أمام عينيه في الضّحايا يومها. إنّ الأمير المشوّش، لا يذكر أن هذا الذي كان يواسيه منذُ لحظات هو نفسه الذي اختطفه، أو لعلّه يرغب في نسيان ذلك؛ والفارس الذي كان يحنو على أسيره منذ قليل، والذي غاب في الظّلام تمامًا، لا يريد منه أن يتذكر هذا.

ووقف الأمير يتفحّص جروح يديه متألمًا مصدومًا من منظرها كأنّه يراها لأوّل مرة، ثمّ أخذ يحكّ ظهره في الأسياخ وهو يتأوّه، وبعد هذا عادَ للوقفة الغريبة في منتصف القفص التي ينظر فيها إلى لا شيء. وقف لساعات بلا حركة، تلك الوقفة التي تشبه وقفة بهيمة برّية تهيم بالليل في وادٍ، فأحسّت بأنّ جسدها قد وقعت عليه أنظارُ قطيع من الضواري، فجمدت مكانها وجمدت نظرتها للأمام من شدّة الخوف والتأهب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإغماء

كان الشّيخ جهير أمامَ بيته، ويدُه على ظهر حصانه، قاصدًا الخروج من الحي، وكان على وجهه ابتسامةٌ بسبب ملاحقة ابنه له، ابنُه الذي أراد أن ينفرد به بعيدًا عن أمّه، ليتوسل إليه للمرّة العاشرة. فاستدار الرجل وأعلنَ له بهدوء رفضَه الحاسم لطلبه الغريب الذي لا يفهم له سببًا، قائلًا له إنّه لا يقبل أن يعرّض ابنه الوحيد لمخاطر تلك الرحلة الحمقاء؛ وظلّ الرجل مصرًّا على رأيه حتّى بعد أن أكّد له ابنه مرّة أخرى أنّه يريد هذه الرحلة كي تتغير نظرته إليه، فيعرف أنّ ابنه شجاع قادر على مواجهة الأهوال مثله.

وعندما ظهر على وجه الشّاب اليأس والضيق، وقد غاصت منه في أبيه نظرة استغاثة، بدا معها كأنّه غائب في دنيا أخرى، وضع الرجل يده على كتفه، ووعده بأنه قد يسمح له بتلك الرّحلة الغريبة في أيام أخرى غير هذه الأيام إنْ ظلّ مهووسًا بالفكرة، أمّا هذه الفترة فهو بحاجةٍ إليه بجانبه، في أمر لا يصلُح له إلّا هو، وهو يرجو أنْ لا يخذله؛ فبوغت الشاب، وسرى فيه السّرور رغم الكآبة، فالأبُ المهيب يقول إنّه يحتاج إليه.

وأكمل الشّيخ كلامَه بعد أنْ لاحظ علامات الارتواء التي ظهرت على وجهه، ونصحه وهو يشيرُ من حوله في كلّ اتجاه، بأنْ لا يصرف انتباهه تجاه الأشياء العابرة التي يصرف هؤلاء العامّة إليها انتباههم، فهم يعيشون؛ أمّا نحن السادة، فنغيِّرِ المعيشة، لذا فعليك أن تختار جيدًا ما تهتمّ به؛ ذلك لأنّ أشياء كثيرة- يا أحمد- تأتي للإنسان خاضعةً من تلقاء نفسها، إذا شغل نفسه عنها بالأمور العظيمة، لكن نفس هذه الأشياء تذلّه وتستعبده إذا انشغل بها عن الأمور العظيمة.

وقد ارتاحَ أحمد لهذه الرّوح الجسورة التي يحظى بها والدُه، والتي تتبدّى على معالم وجهه القويّ ونبرته، والتي يحطِّم بها الأشياء تحت قدميه، وتخدَّرَ وجعه، ورغب في أن يحتمي تمامًا في هذا الرّجل المهيب من ضعفه؛ ووعد أباه بلهجةٍ فيها إصرار بألّا ينشغل عن السيادة بالأمور الهيّنة، وإن كان لا يدري ما يقول ولا يدري ما هي تلك الأمور التي يمكن أن يقال عنها إنّها هيّنة. ورغب بكلّ الشّوق في أنْ يعرف تلك المهمّة التي ليس لها إلّا هو، ولكن الرّجل سكت متمتِّعا بما يُبديه ابنه له من شهامةٍ واستعداد، ثمّ قال له إنّ لكلّ شيء أوانه، فألحّ عليه الشّاب، فقال له الرّجل وهو يهزّ رأسه رافضًا: وإليك هذا الدّرس: إنّ السادة لا يقولون شيئًا قبل أوانِ التكلّم عنه، حتّى مع أبنائهم.

وامتطى الأبُ حصانه، ونظر لابنه مِن فوقه، وقال له: لا تقلق، فإنّ ما سيؤمرك أبوك به يومًا ما تستطيع فعله، فقط عليك أنْ تجاريه يومها بغير أيّ رخاوة، فكلّ شيء في النهاية من أجلك أنت. وأخذ الشّاب ينظر لأبيه وهو يبتعد، متفائلًا بذلك الأبُ الذي ينجح في الحصول على كلّ ما يريد، متمنِّيًا أن يتمتّع بمثل هذه الروح التي تخضع لها الأشياء.

بعد وقتٍ قليل، كان كبيرُ خدم الشّيخ جهير عند باب منجم الملح الصّخري، الذي يقع في جبل قريبٍ من واحة الشّهوب من ناحية الحي، وقد رأى سيده صاعدًا على المدقّ فوق ظهر حصانه، فدخل ونزلَ مُسرعًا لينبّه العمّال إلى أن الشّيخ قادم من ورائه، فدبّ النشاط فيهم، وتحرّكوا بهمّة في غرف وممرّات الملح مُستعينين بقناديلَ معمَّرة بالزيت للإضاءة. ودخل الشّيخ بوجهه المترفّع القوي العظام،

وهو يرفع ذقنَه لأعلى، وعلى وجهه سيماء الرّضا التي تنطبع على وجْه رجل منتصر، وأخذ ينظر مسرورًا ومندهشًا للأشكال المهيبة التي صنعها الملح في جوف المنجم الفسيح الذي يبدو بأعمدة الملح المتناثرة في جنباته كأنّه بلا نهاية.

هذا المنجم كان جديدًا نوعًا ما على الشّيخ جهير كما أوحت نظراته المتفحّصة، فتلك هي الزّيارة الرابعة له من بعد أن استولى عليه. واستيلاء الشيخ عليه هو النّكبة التي لا يعرفها الأميرُ همّام في محبسه، فهو مِن أعزّ أملاكه وأملاك الأسرة، وكان مصلح قد أوشك أن يذكر تلك النكبة للمسكين، ليوافقه بها على فراسته في جهير في أنه يعمل فقط من أجل نفسه، وبالفعل فقد فكَّر مصلح بعد أنِ انْصرف من عند الأمير السجين في الليلة التي تكلم معه فيها عن حقدِ الشّيخ وأنانيته، فكَّر في شيء مستفزّ ومُضحك، وهو أنّه لا يوجد اثنان من أهل الحي على ما يبدو قد تَناجيا معًا في أنّ الشّيخ قد استولى على المنجم لنفسه، ولم يرسل حتّى حفنة من الملح هديةً لبيوت الفرسان الذين اقتحموا الواحة ورجعوا بالأمير.

لم يستطعْ مصلح ليلتها أنْ ينزل على هامة الأمير بضربة أخرى، ويُخبره عن استيلاء الشيخ على منجم الملح الهائل، فالمنجمُ كنزٌ كبير، يبيعون منه لتجار ملح الطعام، ولتجار مصانع البارود، وعلاوةً على ذلك فهو يغذّي صنعة الدّباغة التي تشتهر بها الواحة، تلك الصنعة التي جلبتْ لهذه الواحة المتوارية في الصّحراء رحالة ومستكشفين وفنانين، جاؤوا مفتونين بجمالها وخضرتها، ومنتوجاتها الجميلة، وأوّلها المخطوطات الجلديّة التي تقاوم الزمن وحشرات الجلود، وهذا الكنز- أيضًا- يستخرجون منه نوعًا نادرًا من الملحِ في أغواره يخصّصونه لصنعة التّحنيط التي يتكتّمون أسرارها في جماعةٍ سرّية صغيرة جدًّا، ويتلقّاها جيل من جيل بعهدٍ وقسم غليظ أشدّ من عهود الطرق الصّوفية رغم أنّهم يتورّعون عن تحنيط موتاهم.

لقد بلع الشّيخ جهير المنجم ابتلاعًا، دونَ أيّ غصّة، من بعد يوم الضباب والانتصار الساحق فيه بعشرة أيام، استأذن وخرجَ من صفّ الرّقصة الهادئة التي يتمايل فيها الرجال الوقورون، وذهب إلى هناك، ولم يكنِ الأمير الذي شاهد هذا الانسحاب من داخل القفص وهو يتعذّب بالرّقصة الهادئة اللّانهائية يتوقّع أنّ الشيخ انسحب ليذهب بعماله إلى المنجم، دون أن يستشير أحدًا، ليجده خاويًا تتسلّل إليه الثعالب وبعضُ الخفافيش، وفيه شموع أوشكت فتائلُها المضاءة على الفناء بعد أن تحوّلت تلك الشّموع الضّخمة إلى انسكابات حزينة متجمّدة، بعد أن هرب العمّال في يوم الضباب وتركوها موقدة.

وقد استحوذ الشّيخ جهير من قبلُ على نسبة السدّ إليه، أنْ يقول أهل الحي وأهل السارحة كلهم إنّه الرّجل الذي اختمرت بذهنه فكرة بناء السّد ودعا إليها، وهذا لم يكن صحيحًا على الإطلاق؛ فقد كان السّد فكرة المسافر دومًا مديَن العجمي الذي يرى صنائع الشعوب، شقيق سلطانة زوجة مصلح وأرملة أخيه، عرضها مديَن بهدوء أمامَ جمع غير قليل من الناس، أشار إلى اللّسانين الصخريّين المرتفعين، اللّذيْن يبدوان كجدارين هائلين متقابلين تبقّيا من معبد قديم، وقال إنّه يمكننا أنْ نحجز ماءَ السّيول ببناء حائطٍ شاهق يصل بين هذين اللّسانين يرتفع حتى أعلاهما، ونعيش في أمان إلى الأبد من خطر العطش ومواجع التّرحال بحثًا عن مياه الشرب، فالحياةُ التي تحياها الشّعوب وهي لا تحمل همَّ الماء أبدًا هي حياةٌ أخرى لا تشبه حياتنا في شيء.

قال الشيخ مديَن هذا ثمّ سافر مرّة أخرى، وكل ما فعله جهير هو أنّه قال ذات الكلام الذي سمعَه أكثر من عشرةِ رجال من فم مديَن بعد شهرين من غياب الرجل، وكان جهير وقتها شابًّا في منتصف الثلاثينيّات ضمّه الشيخ غائب منذ قليل إلى مجلس شيوخ العشيرة بعد أن ظهرت عليه علامات قيادةٍ كاسحة قبل أن تظهر في رأسه شعرةٌ بيضاء واحدة، وشعر هو أول ما انضمّ بأنّه مازال ينتظرُه المزيدُ من الارتفاع، وأنّه يليق به أكثر ممّا حصل عليه. قال جهير نفسَ كلام مديَن، ولكنْ بلهجته هو وحماسته التي تجعل الأمور منتهية، فتصرّف الرجال بنفاق فطريّ، وأيّدوا هذه الفكرة العبقريّة باعتبارها فكرة لم يسمعوا بها من قبل، وتدلّ على نباهة غير معهودة.

وتعجّب الشيخ غائب بن سلاف جدًّا وقتها، فهو متأكّد من أنّه سمع هذه الفكرة لأوّل مرّة من فم مديَن العرقوبي، وكان جهير مِن ضمن مَن سمعوها مثله؛ فآمن بأنّ الناس لا ينصتون إلى أفكار، بل ينصتون إلى أصوات.

وعندما كان للحائط الذي يبنيه البناءون ارتفاعُ طابق واحد، استحسن غائب- وعددٌ هزيل من المسنّين المحافظين الذين يخشون من التّغيير- أن يقف الارتفاع عند الحدّ الذي بإمكان الإنسان أن يتسلّقه؛ كأنّهم يشعرون أنّ القدرة الإنسانية المتمثّلة في بناء حائط ارتفاعُه أربعون مترًا في بيئة بكر وتحت قبّة السّماء؛ هي قدرة تعبّر عن إرادة عصيان، وهم كذلك يخشون من سخط السّماء إذا ما أبدوا حرصًا شديدًا على الاستفادة من أكبر قدرٍ مُمكن من ماء السماء، مؤمنين بأنّهم لم يخلقوا لهذا، وأنّهم يعيشون على الرّزق الذي يساق بطريقة بسيطة، وأن الطبيعة من خصالها الهدْر، ومن هذا الهدر أنْ يذهب الماء في الرّمال، ويجب عليهم أن يعيشوا دونَ أن يفسدوا على الطبيعة مزاجها.

رفضَ الشّيخ جهير هذا الكلام رفضًا قويًّا، بغير أيّ شعور بالحرج من أحد، وأصرّ على رفع الحائط إلى مثل أربعة عشر طابقًا كطوابق البيوت، أيّ إلى قمّة أللسانين، وهذا كان نفس ما أشار إليه مديَن في اقتراحه المنسي. وأبدى تهكمًا من رأي المسنين الملتفين حول غائب بذهولهم وأيديهم المرتعشة، ولكنه التّهكم الظّريف الذي يبدو كتهكم رجل حنون ومهذب، وسأل النّاس الملتفّين سؤالًا بسيطًا إن كان يرونَ أنّ الماء لهم أم للرّمال؟ فصاحوا: بل لنا.

يومها أخذ الشّيخ غائب يتلفّت يمنةً ويسْرة لأنّه غير قادر على التعبير عن أفكاره بطريقة مُقنعة، فهو يعتقد أنّه يحارب عن معنًى أصيل، لكنّ هذا المعنى الأصيل متقشف وغير مغرٍ، ويجدُ صعوبة في التّعبير عنه، فشعر بالهزيمة فيما كانت الرّيح تلعب بثوبه وجهير يربّت على كَتفه، مشفقًا عليه من تشتت الأفكار.

وهكذا تغابى الناسُ من يومها، ونسبوا السدّ تمامًا إلى جهير، بالرّغم من أن مديَن هو واحد من أحبّ الناس إليهم، وكان مديَن نفسه يسبح مع هذا التّيار من النكران فلا يولي اهتمامًا يذكر بنسبة فكرة السّد إليه، وحدها أمّه التي سبحت ضدّ التيار، وحرصت على التنكيد على الناس في نفاقهم، فكلّما ذكروا السّد في كلامهم أمامها، قالت هذا الذي كلّمني عنه مديَن قبل أن يكون، وكلّم عنه رجالًا يعرفون أنفسهم؛ ولم تملّ من هذا الكلام حتّى بعد مرور أربعة عشر عامًا على بنائه.

ومديَن- وإنْ كان يحظى بما يجعله أهلًا للرئاسة؛ فهو- تاجرٌ ثريّ مثل جهير، ويمتاز عنه بأنه من كبار العراقيب أصحاب الشّياخة، وهو مستمعٌ جيد، وحليم وصبور، ومعروف في البلاد المحيطة

ومرحّب به؛ إلا أنّ هناك ما كان يضعف فرصتَه للفوز برئاسة العشيرة إن رحل الشيخ غائب، فهو كثيرُ السفر، وقد جعله طول الأسفار مفتقدًا لروح التّزمّت المطلوبة في رجل يجمع الناس من حوله في بيئة صحراويةٍ منعزلة، ومفتقدًا للصّلابة اللازمة وبواعث الرفض المقدّس، فقد انفتح على الشعوب، ولم يعدْ مشحونًا بسوء الفهم للغرباء، واكتسب الجرأة على أكثر شيء يكرهه المحافظون المتعصبون وهو التجريب.

طيلةَ السّنين من بعد بناء السّد، لم يدخل الشيخ جهير في منازعة متبجّحة على السيادة مع الشّيخ غائب، الشيخ غائب الذي يعيش على رجاء رجوع أبيه سلاف، الذي تغيب منذ عشرات السنين! كان الرجل يعيش على هذه الفكرة الغريبة، المقاربةِ جدًّا للجنون، وهي أنّه يحفظ مكان أبيه إلى أن يعود ويسود النّاس كما كان، تلك الفكرة التي سيطرت عليه وهو شاب صغير، وكانت تبدو وقتها في الزّمن الماضي أمرًا صعبَ الاحتمال جدًّا، وتشبَّع هو بها وتمسَّكت بها روحه، ونسي أن يتخلص منها في الوقت المناسب.

لم يدخل الشّيخ جهير في منازعة متبجّحة مع الرجل الذي اعتبره تراثًا يجب أن يُكرَم، وفي نفس الوقت أخذ يكبر أمام الناس ويترسَّخ في وجدانهم، وأخذ يثبت أنّه صالح لأن يكون عنوانًا لجماعةٍ تُحيط بها الصّحراء وترغب في أنْ تكون مرهوبةَ الجناب، حتّى تمكّن من أن يأخذ حتّى بعقول الكثير من جمهورٍ غائب من المسنّين والعراقيب على مر السنين.

أمّا الشّيخ غائب، فكانت تسيطرُ عليه أحيانًا تشنّجات السيادة وهو يلاحظ أنّه لم يعد شيخًا حقيقيًّا منفردًا بوجود هذا الرّجل، وقد كان هذا قليلًا ما يحدث، ويحدث بذكاء، مثلما قال عندما كان ذاهبًا للصّلح مع الأمير إنّ الأمر أهون من أنْ يرافقه لمجلس الصلح ثلاثة يمثلون بيوت العشيرة، وأنّه لا يريد أن يشعر الأمير بأنّ كبار بني منصت يتزاحمون ليجمعهم به صلح ويشعرون بالسّعادة لأنّهم يصافحونه، فأخذتهم الأنفة، وتركوه يذهب منفردًا، فعقد الصلح وحده عن بني منصت. وقد اغتبط الأميرُ بقدوم غائب بغير جهير، وأراد أن يبجّل الشيخ كنوع من الإغاظة لمنافسه المتغيّب، فوضع اسمَ الشّيخ قبل اسمه في وثيقة الصلح مع كلمات تنمّ عن تقدير واحترام بالغيْن.

كانت هذه مرّة من مرّات تشنّج السيادة، أمّا ما كان يغلب على الشيخ غائب فهو مصاحبة إحباطه وحذره، ومصاحبة إيمانه بأنّه باقٍ إلى الموت في الشّياخة، وليس عليه إلّا أن يتصرف بحساب. وكان مؤمنًا بأنّ متعة الشيخ جهير بتفوّقه عليه، أقوى من متعته بالانفراد بالشياخة بعد أنْ يموت لو كُتِب له أنْ يسود، وكان واثقًا بأنّ الشيخ جهير يستشف غيظه المكبوت، ويتلذذ بالعذاب المُستديم الذي يسبّبه له، عذاب أن يتعايش الإنسان مع رجل تفوَّق عليه واكتسحه؛ لذا كان هذا العجوز الأخلاقي المثير للشفقة ينفق قدرًا كبيرًا من طاقته الواهنة في منع نفسه من الانحدار إلى الحسد؛ لأنّ هذا يعني عنده أنه سيموت يومًا ما خاليًا من الشرف. وقد حرَّك فيه الخوف من الانحطاط في الحسد خوفًا آخر يمسّ الكرامة، وهو الخوف الشديد من أن يتّهمه الناس بالحسد، ممّا جعله يبدو في أحيان كثيرة، ولدفع هذه التهمة التي لم يتهمه بها أحد، مؤيدًا لأفكار جهير بكلّ تعصّب؛ هكذا كان عذاب العجوز الأخلاقي.

عاش الشيخ غائب حريصًا على الحياة، شيخًا في انتظار أبيه، وعاش الشيخ مدين من ناحيته بغير حرصٍ على شيء من الرئاسة، ومن بعد يوم الضّباب الذي زلزل الناس، تساوى حرص غائب بلا

مبالاة مديَن المسافر الذي فاته يوم الضباب وفاته زواج أخته الأرملة من شقيق زوجها الذي يصغرها بتسع سنوات، مثلما فاته من قبْل بناء السّد، حِرصُ غائب ولا مبالاة مديَن كلاهما بلا أيّ قيمة، فقد جاءت السّاعة العنيفة التي جعلت الشيخ غائب منزويًا في الركن لا يملك إلّا ما توفّره الشيخوخة من كبرياء هشّة، ولم يعد هناك أحد غير جهير، وصار التفكير في منازعته شبيهًا بالكفر، ودبّ في العامّة الهوس به، حتى وقعت في أيام الاحتفالات حالات إغماء عجيبة، أصابت بعض السيدات والآنسات بعد صياحهنّ باسمه عندما رأينه أمامهن، وكان هذا شيئًا في الحبّ لم يطمح إليه أحد.

لقد سكرَ أهلُ الحي من نشوة الانتصار العجيب، وتهيّجت بالقفص الذي يقف فيه الرجل في بؤسه نوازع الفخر والكبرياء الكامنة في صدورهم، ووجدوا أنفسَهم قد وقعوا أسرى للشيخ جهير، وما سطع عليه من إفاقةٍ سلطويّة مجلجلة، وما لمع في عينيه من جاذبية هذيانيّة عندما تكلّم في يوم الضباب كأنّما يخاطب الملايين، وصار يعامل من وقتها كرجل فتوحات ملهَم لا يولَد مثله في كلّ جيل.

وقف الشُّيخ جهير قليلًا على باب حجرة من حجرات التّخزين في منجم الملح، وعيناه تتبع العمال وهم يدخلون أمامه حاملين على ظهورهم أجولةَ الخيش المملوءة بالملح ويكدسونها بالدّاخل، وتتبعهم وهُم يخرجون ليحملوا غيرها. وبعد قليلٍ أتى إليه كبير الخدم واقترب منه بكلّ توقير وهمسَ إليه بأنّ أصبع (عارف) قد تورّم كثيرًا وانقلب لونُه إلى الاخضرار، وأن مِن سوء حظّه أنّ طبيب الحي قد غاب في طلب بعض الأعشاب والمراهم، ولم يجدوا علقات يضعونها على أصبعه فتمتصّ ما فيه؛ فرأى جهير أنّ أصبع هذا الشابّ قد تسمّم، وقد ينساب السمّ في جسده حتى يهلكه؛ وأمر كبيرَ الخدم بكلّ هدوء وهو مازال ينظر إلى العمال بأن يقطع له الأصبع، غير أنّ الخادم ابتسم ابتسامة حييّة متخاذلة، وصرَّح بأنّ قلبه لا يتحمّل هذا، فأمره بأنْ يدخله عليه بعد قليلٍ بدعوى أنّ سيده يريد أن يراه.

وقبلَ أن يعود كبيرُ الخدم بالشّاب كان جهير قد أعدّ عدّته، ودخل الشاب الرقيق بعد قليل، وعلى ملامح وجهه تبدو آثارُ الثّقافة والرّقي والألم، وبقايا ذعر، ويبدو عليه إنه فاقد للشعور بالأمان، وأنّه يشعرُ بالغربة عن زيّه، وعن هذا العمل المضني، وعن هذا الشيخ المخيف، وعنْ هذا المنجم الذي عضّه في ظلماته شيء غريب أثناء رقادِه وهرب تاركًا خيطًا من الدم واللّعاب. ابتسم لسيّده ممتنًّا من سؤاله عنه، وهزّ رأسه شاكرًا، وقال له الشيخ إنه حزن من أجله كثيرًا، وهو لا يحبّ أنْ يخسر ولدًا صالحًا ومتعلّمًا مثله، وأكّد عليه أنه سيعتمد عليه كثيرًا في قادم الأيام، وسيرحمه من هذه الأعمال الشّاقة التي لم تكن تليق به في الحقيقة، فملأ النور وجهَ الشّاب رغم آلام أصبعه الشّديدة، واغرورقت عيناه بالدموع، دموع شابّ منهك يطلب الرّحمة.

أمره الشّيخ برفق بأنْ يستدير ويعطيه ظهرَه لأنّه يريد أن يقرأ عليه، فاستدار الشّاب وهو يبتسم لمَن يقفون أمامه يتابعون الموقف، وكان سعيدًا بهذه العناية، وعلى وجهه فضول من ينتظر مفاجأة. غير أنّ الدّنيا اختفت من أمامه بمناظرها وإحباطها وشيخها المخيف الذي أسره منذ أربعةِ أعوام بتهمة قتل ناقةٍ من أصائل إبله الثّمينة في المرعى، في رحلة صيد طائشة لشاب متمدّن يجيد لغتيْن أجنبيّتين، بصحبة شابّين من مالطا، بعد عودتهم من واحة الشهوب حاملين هدايا من الجلود المدبوغة المخطوط عليها بخطوط عربية جميلة، وفرَّ المالطيّان وتركاه في قبضة الشّيخ الذي اعتبره عبدًا له إلى أن

يستوفي ثمنَ النّاقة منه بخمس سنوات من العمل. وكان الشاب الصغير يحاول أن يفهِمَه أنّه جاء إلى الصحراء لزيارة الواحة وشراء الجلود مع الشابّين الأوروبيّين، ثمّ أحبّ أن يصطاد؛ وهل هذه غزالة يا لوح؟! هذه ناقةٌ أصيلة أغلى من جدّتك.

لقد ضربه بعصا من غصنِ تفّاح على رأسه ضربةً مضبوطة ليفقد بها وعيه ولا يكون لها أثر مؤذٍ، فنزل على وجهه، وقعد الشّيخ بجانبه على الفور، وفرد ذراعه اليسرى، ونزل بساطور على أصبعه، فصرخ الشابّ صرخة واحدة رهيبة وتجدّد إغماؤه. وفي كون إغمائه المظلم، الذي تومض فيه نجماتُ الألم النّائية، ألقي في روْعه أنّ هذا الرجل الذي لا يفلت منه أحد، له حسّ غيبيّ يحرّكه، وأنّ هذا البتر لأصبعه هو عقابٌ له على أنّه أرخى أصابعه التي تشدّ وتر القوس حينما ترك المتسلّل ذا الكوكب السيار الأخضر في ليلة المحاق، وأن اللون الأخضر الذي اكتسبه أصبعه لم يكن اعتباطًا، بل جاء توبيخًا وتذكيرًا بالكوكب الذي ترك.

وكوى الشّيخ جرحَه بسكّين كان قد أمر بوضعها على النّار، واشتمّ الشاب في غياهب إغمائه رائحةَ الشّواء العابرة، وسمعه يقول بصوتٍ يأتي من بعيد جدًّا، إنّه يرجو أن يبقى معه هذا الشّاب كاتبًا له إنْ شاء بعد أن تنتهي السّنوات الخمس، وقد خالط حنق الشاب وشعوره بالظلم شيء من السرور، كأنّما لروح الشيخ قوة سميَّة، تجعله قادرًا على أن يجذب ضحاياه الضعفاء إليه للأبد، بنوع غامض من الإدمان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شجرة الحناء

أثناءَ انفراد الشيخ غائب بنفسِه في فناء بيته في وقت الظهيرة، في سلامٍ خريفيّ جريح، وهو ينظرُ إلى موقع شجرة الحنّاء التي لم يعدْ لها وجود، جاء إليه مصلح بغير موعدٍ، ووقف عند الباب، كأنّه قطّ تطفّل على مكانٍ به ظل، فدعاه الشيخ للجلوس، ثمّ غاب في صمته، كأنه يستأنف أوجاعه التي قطعتها الزيارة.

واستغلّ مصلح صمتَ الرّجل وشروده في تأمّل ملامحه المتهرّبة، وحاجبيه الرفيعين المتّصلين، وعينيه المليئتيْن بالأسى، وقد استعدّ لأنْ يستدرج الرّجل شيئًا فشيئًا ليعرف منه رأيه الذي يخفيه في صدره، في هذه الفترة العجيبة التي يعيشها الحي؛ واختار أنْ يفتح شهيته بالسّؤال عن الأيّام الأولى والنّاس القدامى، كما يحبّ المسنّون، ثمّ يدنو خطوة بخطوة إلى هذا الجيل الحاضر وملحمته الأخيرة الخطرة. وظلّ الرّجل صامتًا بعض الوقت بعد أن سمع السّؤال، حتّى شعر الشّاب بالحرج، فقد خشي أن يظنّ الشّيخ أنّه جاء يفسد عليه جلال اكتئابه وعزلته بسؤال يبدو بريئًا عن الذّكريات الجميلة لا يستحقّ زيارة مفاجئة، لكنّ الشيخ طويل الهموم كان يتهيَّأ لا أكثر.

أخذَ الشّيخ نفسًا عميقًا، ونظر بعيدًا، وأخذ يبثّ إليه إجابات خيالية شاعرية، مريحة، لا تجهد غريزة الحذر عنده، ولا تجهد الذاكرة، تفيض بالجَمال والرّحمة، وانتعشت شيخوخته التي كوتْها الأيامُ والتقلّبات المريرة والفقد، في ظلال الصّور البهيّة التي يبثّها عقله بسخاء، وارتاحت من قيْظ التّركيز، وتكلّم عن كلّ ما يحبّ أن يتكلم عنه، بغير ترتيب، عن الليل الذي يحمل أصوات الأجداد الرّاحلين على حين غرّة، وعن نزيف الذّكريات في الأشياء القديمة المحْفوظة، وموقع شجرة الحنّاء الأولى بالقرْب من باب البيت، الذي لم يعدْ به شيء، وتكلّم عن خطى القوافل الحثيثة إلى السّراب بالنّهار، وعن حداء الأوهام بالليل، وعن قبور الأحباب التي يكسوها الرّبيع بالخزامى، والقشعريرة التي تعْتريه عندما كان يطلّ على البئر التي انفضّت عنها العشيرة، وعن اشتياقه للمشْي على قدميه في الحيّ كما كان يمشي ليندهش من تشابه السّلالة.

وتكلّم أمام هذا الشّاب المتفهِّم عن حنينه الشّديد لرؤية دفينة الحناء، تلك الأشياء العظيمة كلها التي وضعوها تحت السّد؛ وقد كان مثل هذا الحديث عن الرّغبة في رؤية الدفينة مرّة أخرى حديثًا بغيضًا بين أهل الحي، يتشاءمون منه، دونَ أن يصرِّحوا بذلك، من باب التأدب، هُم يغيّرون- فقط- مجرى هذا الحديث بكلّ حصافة، إنْ ساقه واحدٌ من القلّة من أصحاب الحنين، فهُم وإن كانوا يعظّمون تلك الدفينة، إلّا أنّهم يعظمونها على أنّها صارت بعيدة، بمنأى عن أنْ يطالوها، فهُم لهم حياة جديدة، فيها نشوتهم، وشهوتهم، وشغفهم، وغرورهم، وغيرتهم، ومنافستهم، وركضهم؛ وقد رضوا بهذه الحياة بكلّ ما فيها، وهُم قادرون على تملق الحياة الأولى بجميع رموزها، لكنْ لا يقدرون على شيء أكثر من التملّق الذي تواطئوا عليه، وهم لا يرغبون في الحقيقة لتلك الحياة الأولى أن تعود، إلّا ما تنطق به الألسنة زورًا في مجالس السّمر، وهُم يؤمنون تمامًا- دونَ أن يتكلّموا فيما بينهم عن هذا الإيمان- بأنّ هذه الدفينة لن ترى نورَ الشّمس مرّة أخرى إلّا على أنقاض بُنيان الوطن، على أنقاض الواقع كلّه، وهُم يبغضون ذلك كلّ البغض، لكن لا يُعلنون ذلك البغض؛ لذا ينتاب الواحد منهم، وعلى فترات متباعدة، شعورٌ يتكتّمه بالعداوة تجاه تلك الدّفينة المهدِّدة، يتخلّل شعوره تجاهها بالتعظيم.

أخذ الشيخ يتنعَّم بهذه الإجابة الحالمة، شاعرًا في استرساله بالفرج الذي يشعر به من يطيِّر سربَ حمامه تباعًا في وقت أصيلٍ طيب الرّيح والنسمات، وابتسم الشّاب ابتسامة حزن وهو يشاهدُ علاماتِ الارتياح على وجه الشّيخ وهو يهرب بعيدًا في نعيم التعابير، مضللًا توجّسه الفطري من الأيام في ضباب الخواطر الجميلة، هذا التوجّس الذي كان مثل كلب ضالّ يكتفي بالصّداقة المتقطّعة مع الشيخ، ثمّ التصق به وقرّر أن يلهث عنده للأبد منذ يوم الضباب.

شعرَ الشّاب بالغبطة بالجميل الذي صنعه للشّيخ، وإن ظلّ يذكر جيدًا أنه لم يكن قد جاء من أجل هذا الفيض الأخّاذ، وكان يعرف أنّه لا يزال معه عدّة أسئلة متدرّجة حتّى يصل إلى السّؤال الوحيد الذي جاء من أجله، ولكنه عجز عن أن يمسك نفسه وهو يشعر بالخدر من ذكريات الشّيخ، فعاجله قبلَ أن ينام بفعل هذا الخدر، وسأله السؤال الذي لم يسأله أحد لأحد: لماذا حدثَ ما حدث؟ لماذا أسرنا الأمير؟

ألقى سؤاله الشّديد على الرّجل الآفل، ذلك السؤال الذي يتعلّق بغريم السنين الفائتة كلها، الغريم الذي يجرّ الرجل المسنّ في سلاسل المنافسة بغير رحمة، من سنة إلى سنة، تلك المنافسة التي تواطأ الكلّ على السكوت عنها. ولقد سأله هذا السؤال دونَ أن يذكر اسم الشيخ جهير؛ مراعاةً منه لحساسية الشّيخ وأحزانه. وقبل أن يتفوّه الشّيخ بأيّ كلمة أتبع سؤاله بسؤال آخر، عن الآثام الخافية التي قد يكون الأمير ارتكبها وفجّرت كلّ هذه الضغينة، والتي من المؤكّد أن الشيخ يعرفها جيدًا إنْ كان لها وجود؛ كلّ هذا حتّى لا يضع الشيخ في مواجهة فخرية رئاسته، وكان في قرارة نفسه يرجِّح أنّه لا يوجد أيّ شيء.

وشعر الشّيخ المرهق بالارتباك والمعاناة، والقلق، فهو حسّاس وكريم، وخجول، ويخشى أن يكون الشابّ متأهبًا لأن يسأله بقسوةٍ وصراحة بعد قليلٍ عمّا يشعر به ناحية سلطة جهير على النّاس وقلوبهم، وهو السّؤال الذي يفضّل أن يموت قبل أن يسمعه من أحد.

ونظر إلى مصلح بعينيه المشبّعتين بالوجع والهروب، اللّتين حوّلتهما الشيخوخة إلى اللون الرّمادي الداكن، نظرة سريعة مرتبكة ومستعطفة، كتلك النّظرة التي ينظرها الرجل وهُم يقتادونه إلى رجلٍ يخاف أن يشهد عليه، كأنّه يقول له: لن يأتي منك أنت أذاي، أليس كذلك؟ ثمّ أخذَ يفسح لنفسه طريقًا بين حشائش الحاضر والذّكريات في حديثه الذي يتجاذب أطرافه مع مصلح، ومضى فيه هائمًا، وطال كلامُه الهارب، حتّى يبدو أنّه نسي كيف يتوقف عن الكلام، حتّى فقد كلّ منهما الآخرَ تمامًا في تلك المتاهة، لدرجة أنّ الشّاب نام على نفسه عند الشيخ في أثناء الحديث بطريقة مضحكة ومزْرية.

وبسبب أنّه يحاول بكلّ بؤس مقاومة النّوم، كان يصل إليه ما يدور وهو نائم وقد مدّ ساقيه ورمى رأسَه إلى الخلفِ من خلال الصوت، ومن خلال لحظات عابرة ويائسة من التفتح، كالتي يختطفها مَن أوْشك على الغرق. لقد جلس الشّيخ مربعًا بعد أنْ أنهك نفسه، وأنهك ضيفه في مسارات الحديث، وعاد بسيطًا جدًّا، وترك خادمه الأبكم يفلّي له شعْرَه بيده، وهو يوصيه بأنْ يفتش جيدًا لأنّ رأسه يأكله. وبعد قليل، انبعث صوتُه عاليًا مندمجًا كأنّما هو شخص وحيد لا شيء يحيط به، ولا أحد حوله يقظًا كان أو نائمًا، وأخذ يرجِّح أن الناس يقولون الآن عنه إنّه صار رجلًا كئيبًا جدًّا، تحيّره هواجس لا يستطيع التّصريح بها؛ هذا ما يجب أن يقال عني. أليسَ هذا صحيحًا؟

وأجاب نفسَه وهو يهزّ رأسه: صحيح.. أظنّ أنّ هذا ما يقال. والحقيقة التي لا يعرف...

وقبل أن يكمل كلامه، انبعث نفسُ الصّوت الذي يشبه صوتَه صوتَ الابن المتهكم، الذي لا يختلف عليه إلّا في برودِه، وقاطعه بذاتِ النّبرة الرّائقة التي سمعها الغجري عندما انتهك الحيّ ليلًا، تلك النّبرة التي يشوبها التندّر والمداعبة، والتي يحب أن يشاكس بها الناس كبار السن ليتمتّعوا بردودِ أفعالهم العصبيّة اللطيفة: سلامتك يا أبي، أتحدث نفسَك؟

عندما سمع مصلحُ هذه الكلمات وهو بين أمواج النّوم السوداء العاتية (سلامتك يا أبي، أتحدث نفسَك؟)، طفرتْ من عينه دمعة إشفاق، بينما شعر الشّيخ الذي بوغت بالضيق والحرج، ثمّ قال بعد أنْ سكت قليلًا: وهل جننت أنا يا خِلْفة العجوز حتّى أكلّم نفسي!!؟ إنّي أكلّم خادمي.. أم تريد أنْ أغلق فمي؟!

ردّ الابن بنفس لهجته المداعبة والمتندرة: على راحتك.. لكنْ لا تنسَ أنّه أصم وأبكم.

- وهذا هو ما أريد؛ أنْ أجد مَن لا يسمع فأكلّمه، وأبثّ إليه الهموم التي ضاق بها صدري. فاذهبْ الآن بعيدًا؛ لأنّي أريد أن أتكلّم، اذهب، هيّا.

وبعدَ فترةٍ من الصّمت، أخذ يكلّم خادمه، بعد أنِ اطمأنّ لنوم مصلح: هذا الشّاب الذي جاء ونام عندي، مندهش ممّا حدث، ويريد أن يفهمه، وهو كذلك حائر، لا يعرف كيف يواجه شيخه بأنه لم يعدْ أكثر من تراث. كيف أقول لهذا النّائم عندي إنّه يعسر عليَّ فهمُ ما حدث، ويعسر عليَّ فهمُ الطّمأنينة التي يشعر بها أهلنا وهم ينتظرون ذلك الجرو الماكر كي يأتي ويصالحهم ويحرّر أميره بالفداء؟!

فما أفهمُه أنا رغم متاعبِ الشّيخوخة هو أنّ هناك عاقبة شديدة تخفيها الأيام، قد تكون فوق كلّ ما يتصوّره رجلٌ مثلي. وأنا أخاف من تلك العاقبة المستورة عنّا، وأخاف في ذات الوقت من أنْ لا تكون هناك أيّ عاقبة، أي أنْ يمضي الرُّجل من هنا ولا يفعل أيّ شيء البتّة بسبب أنّه صارَ مرعوبًا من جهير؛ هذا ليس لأنّي حاقد لا سمح الله، ولكن لأنّ ذلك الفوز الكبير سيكون فتنةً لي، وأنا في سنّ لا يليق فيها للرجل أن يُفتَن.

لقد آمنَ الناس بجهير، إيمانًا يجعلهم يتّقون أنْ يعرفوا دواخله، كما فعل بهم الإيمانُ بالسّد، ذلك الإيمان الذي حرَّج عليهم الصّعود لينظروا ويعرفوا كمْ يدّخر من المياه فيه، بعد أن مرّت علينا ثلاثُ سنوات بغير سيول، كنّا نصرف فيها من الماء بغير أيّ حساب. وهكذا كان السّد يبدو دائمًا وكأنّه سدّ جهير؛ لأنّ كثيرًا من الشّبه يوجد بينهما، وفوق هذا فالنّاس يفضّلون أن ينسبوا الأمورَ العظيمة للشّجعان لا للأذكياء، حتّى الأشياء، كلّ الأشياء لو نطقتْ لاختارت أن تلحق نفسَها بالشّجعان ولو كانوا فَجَرة.

وغابَ الشّيخ في المشهد القديم والأسى يعتصرُه، عندما ربّت الشّيخ جهير على كتفه بعد أن وافقه النّاس على أن يرتفع السّد للأعالي، فأزاح الشيخ غائب يدَه بشدّة وهو مستاء، ليست يد جهير، بل يد الخادم الذي لم يظفرْ بشيء من قمل رأسه، وأكمل حديثه:

الذي يثير استغرابي الشّديد هو أنّي أعلم جيدًا دهاءَ جهير، وقوّة تدبيره، ومهارته في إتمام الأمور ببراعة على أحسن ما يريد؛ لذا أنا لا أصدق أنّه يغيب عن ذهنه أنّ الشّر يبدأ بعد أن يخرج الأمير همّام من القفص، لكنْ لا أعرف على أيّ تعاسة يراهن بنفسه وكلّ عشيرته فيشعر بكلّ هذا الأمان!

وهكذا تغضّن وجهَ الرجل وهو شاردٌ في خيالات مأساةٍ قادمة من بعيد حتّى لم يعدْ يشعر بمصلح، ولا بالخادم الأبكم، ولا برأسه الذي يأكله، حتّى نام في مكانه بعد قليلٍ وعلا شخيره، فقام مصلح وخرج بهدوء وهو يحوْقِل متأسِّفا من آلام الشّيخ العتيقة، مؤمنًا بأن الشيخ غائب هو أقدمُ أسرى الشّيخ جهير، لا الأمير همّام ولا الشاب القاهري.

سلاف، أبو الشّيخ غائب، كان شابًّا صغيرًا، نَمَا متفوِّقا على ما كلّ ما يدور حوله، وعلى كلّ مَن يحيطون به، كأنّه غريب تربّى تحت شجرة في عالم فردوسي ووجدتْ روحه فرجةً في صفّ ذلك النّسل فدخلت فيه. كان صادقًا وبريئًا ومنصرفًا عن الظنون ولا يشغل نفسه بالتّفاهات، ولم يره أحدٌ إلّا بثوب نظيف، ولم يره أحدٌ وقد أفقده الغضب حلمه فقال ما يندم عليه. وكان من القلّة القليلة جدًّا في جيله التي تعرفُ القراءة والكتابة، ولديه رقاعٌ يسهر على قراءتها ليلًا في ضوء المصْباح في بيته أو أعلى الكثبان الرّملية المحيطة، وجلود مدبوغة في واحةِ الشّهوب كتب عليها خواطرَه الطيبة، واحتفظ بها في جرابٍ من القطيفة الخضراء ولا يعرفها أحدٌ غير ابنه الذي آلتْ إليه الرقاع والجلود من بعد ذلك.

وسمع- ذات مرّة- بعالِمٍ جليل من بلاد الحرمين سيمرّ قريبًا من البلاد في طريقه للسفر الطّويل، وتحمّس لأن يذهب إليهً في إحدى منازله في الطريق ويطلب منه العلم. وودعته زوجتُه الصّغيرة متأمّلة في رجوعه السّريع، عند شجرة الحناء التي زرعها لها منذ أيام بالقرب من الباب، ولمّا مضى أسرعت وراءه تودّعه على أوّل الحي مرّة ثانية وهي تبكي، فقد كانت تحبّه جدًّا. وكانت في أوّل شهور حملها بالطّفل الأوّل، والأخير، ولمّا حان وقتُ وضعه ولم يكنْ أبوه قد عاد، بل وكانت هناك بعض الأقاويل أنّ (سلاف) قد مات في الطريق؛ سمّت الأمّ مولودَها (غائب).

لقد نما غائب مهذَّبا حسَّاسا وقلقًا من الشّعور الثقيل بأنّه يتيم، وأنّه وحيد، وأنّه ابن رجل ربما صرعَه العطشُ في الصحراء، حيث ذكر بعضُ البدو الرحّل أنّهم شاهدوا في مضيق بين جبلين لا تنزل الشّمس إلى أرضه جملًا يمضغ الذّباذب الصوفية الملوّنة المعلقة على رقبته من الجوع، وقد التصق بطنُه بظهره، وربّما يكون هو جمل سلاف؛ ولعلّ صاحبه ألقى بنفسه بين الشّقوق وهو يجود بأنفاسه الأخيرة بعد أن ضجر من امتصاص الأحجار، حتّى لا تأكل النسور جثمانه.

كان لدى غائب هذا التّواضع الذي لدى طفلٍ مات أبوه ميتة شنيعة وتركه لأصدائها، ولكن أمّه الأميّة التي احتفظت بلفائفِ الأب المباركة بكلّ تعصّب وهي لا تعرف ما فيها، والتي كانت تكحّل عيني زوجها الشّاب قبل أن يسهرَ على القراءة، وأخذت إلى آخر عمرها تتشمّم في قارورة المسك الأبيض التي خلّفها؛ زرعت في ابنها الأملَ العجيب طيلة السنين- وإلى أن ماتت- بأنّ سلاف ربّما يهلّ وجهه مشرقًا في ربيع قادم، وقد فرشت الصحراء تحت قدميه بساطًا بهيجًا من شقائق النّعمان، محمّلًا بالعلم والقوة، ليقود كلّ هؤلاء الناس، ويسفِّه الذين رجّحوا موته، الذين هم كلّ مَن حولها بلا استثناء. وقد تشرَّب غائب هذا الأملَ الدافئ كما تشرّب لبن الرضاعة، ولأنّه عرف أنّ الناس لا يصدّقون هذا الوعد، منذ أن بدأ يجرّب أن يبوح به للصّغار على هامش اللّعب والقصص الخرافية؛ اكتفى من وقتها بأن يغذّيه داخله، من لحمه ومشاعره وأوجاع أمّه (راشدة) التي ماتت وهي لا تعرف إنْ كانت أرملة أم لا.

وتزوّج غائب بن سلاف العرقوبي في شبابه من امرأة حسناء من بيت طوق، البيت الذي يرأسه الآن جهير، منتشيًا بزحام إخوتِها الكثيرين الذين يعشم أن يعوّض بهم وحدته، فوجدها امرأةً صعبةً شديدة المِراس، فتهرّب من ذلك وأعاد اكتشافها من جديد، فوجدها صعبة شديدة المِراس، فآثر البقاءَ معها رغم ميله للدَّعة والسّلام. وقد ألهمته (مليكة) بطول العشرة بعضَ الشّدة اللازمة للسّيادة، وأخرجته قليلًا من رَهَق أمّه، ومن بعض شرودها والأصداء المعذبة للأشياء التي تحتفظ بها من تركة سلاف، على أنّها كانت في ساعات الغضب تقول له مهدّدة إنّها أخت الاثني عشر رجلًا، وأنّه تحت الهيمنة ولو كَرِه، فيتّقي شرّها وهو يشعر بحزن عميق ليسَ على ما بدر منها؛ بل على الحزن المؤبّد الذي ينتظره. وهكذا عاش وهي تساعده على أن يسودَ بين الناس، ويجدّد يتمه وضعفه بينه وبينها، ويلتقي في خياله بأمّه الحزينة المتوفّاة، ينتظران معًا وجهَ سلاف على حصيرة الشظف.

وأخذَ غائب يتقدّم في الحياة مدفوعًا وملهمًا باضطهادين، اضطهاد الحكاية القديمة المحزنة واضطهاد الواقع ممثّلًا في زوجة قويّة، زوجة قوية كانت تعرف جيدًا أنّه جاء إليها يبحث فيها عن أمّه، فأفهمته بطريقتها أنّه لم يعد لأمّه وجودٌ على الأرض.

وقد كان جلّ همّه في حياته مع امرأته التي أتعبتْه حبًّا وشدّة، هو أنْ لا يلحظ الناس ارتفاع صوتِها عند الغضب، وجموحها كفرس بريّة تعضّ في حبل السّياج، وأن يسايرها ويتحملها ويتّقي نوبات غضبها، ولم يكنِ المسكين يعرف أنّ كلّ ما ظنّ أنّه نجح في ستره معروفًا حتى للصّبيان.

وقد أنجبتْ له هذه المرأة التي كانت تحذّره بالاثني عشر رجلًا إن ضايقها، رغم أنّه لا يضايقها؛ اثني عشر ذكرًا، وابنتيْن، تزوّجت الابنتان، أمّا ذكورها فماتوا تباعًا، من طال عمره فيهم وصل للسّادسة عشر، وفيهم مَن مات فور ولادته، ثمّ ماتت المرأة من الأحزان والسكري بعد أن أصابها في آخر الأمر بالعمى والهُزال الشديد. وقد كانت في أيامها الأخيرة تتهمه بإخفاءِ عشيقات في غرفته، وتفتّش عنهنّ تحت السرير وفي يدها مكنسةٌ من عرجون التمر (الجرباح) لتضرب بها العاشقة التي ستعثُر عليها، وقد وافتها المنيّة تحت السرير المصنوع من ضفائر السّعف وهي تحاول جذبَ عشيقة لا وجود لها.

دفنَها الرّجل وهو دامع العينين، وكان يشعر وهو يقف على قبرها بخليطٍ عجيب من الضيق والامتنان، كذلك الخليط الذي يمكن أنْ يشعر به سجينٌ خرج من السجن أكثر خبرة ورشدًا. وتردّد إلى وقت في الزّواج بعدها، إذ ظلّ يحلم بها فترة تأتيه وتمارس مهمتها في التفتيش، وكان يتنفّس الصعداء في منامه لأنّها لا تجد أيّ رفيقة في كلّ مرة، حتّى استجمع أعصابه وزارها عند قبرها، وقال لها بخجلٍ وبعد مقدّمة مكشوفة ومرتبكة إنّه يفكّر في الزواج، وغادر بعد أنْ صارح بذلك فورًا، فامتنعت من يومها عن زيارته في منامه، وهو لم يعرف إن كان انقطاعها علامةً على الرّضا أم علامة على الهجر والخصام.

وتزوّج من أرملة من بيت عميم، تعيش بغير أيّ رأي، أنجبت له ابنه (خلف) وهي في الخامسة والأربعين، وقد كان هو في الواحدة والسّتين، وقد استقبله بفتور شديد غير متوقّع منه، رغم أنّه كان بحاجةٍ ماسّة إلى ولد ذكر. ونما الطّفل وهو ذو لون قاتم قليلًا عن لون أبيه ولون أمّه، وكان الولد ينمو ويؤكّد بمرور الوقت أنّه لا يملك أيّ شبه بأبيه، ولا يرث منه أيّ طبع من طباعه، وفوق هذا لم يكنْ

يحبو إليه كما يفعل أيّ طفل متعلق بأبيه، ويتجاهله كأنه لا يراه، ولا حتّى ينفعل فرحًا بالألعاب التي يقدّمها له، وعندما يضطرّ أن يطلب من أبيه أيّ شيء، يظهر عليه الضّيق من هذا العجز الذي تسببه الطفولة.

وكان الأب الذي يبادله بعنادٍ مريض ذاتَ التّجاهل، ويطلق عليه (خِلْفة العجوز)، يبحث عمّن بدأ فيهما هذا النّفور، وكان ميّالًا لأن يعتبر استقباله الفاتر له فوْرَ ولادته هو مجرّد ردّ فعل، متوقّعًا أنّ الأجنّة يُهمَس إليها بعد نفخ الرّوح فيها، كلمات عامة مبهجة، لغرس الأشواق للدنيا القادمة، ويكون من هذا الهمس تبشير بآباء شبّان مرحين، فعرف الوليد الذي لم يبصر بعد، ومِن خلال حدسه القويّ الذي مازال في أوْجه؛ أنّ الأمر ليس كذلك، فجاء إلى الحياة وهو محمّل ابتداءً بشعورٍ راسخ بعدم الرضا عن أبيه.

وقد كان الأب العاجزُ تمامًا عن اكتشاف أيّ ذكريات مضحكة أو حزينة بينه وبين تلك الزوجة العابرة التي ماتت وهي تلدُ هذا الولد، والتي كانت مثل كتابة على الرّمال طمستها الريح، كان يواجه نفسَه أحيانًا، ويستنكر ضعف تعلّقه بابنه الأخير كما يتعلق الآباء، ويشعر بالذنب والأسف بسبب هذا الفتور العجيب، فيحاول من جديد، ويحتضنه، وبشدّة، لكن لا يجد أبدًا ما كان يشعر به وهو يحتضن الاثني عشر طفلًا؛ في كلّ محاولة عقيمة في احتضانه، كانت تراودُه وجوههم المبتسمة، وتفوحُ فيه مع الذّكرى الروائح الدافئة لأحضانهم التي تشبه رائحة التمور.

وعندما بدأ يلقّن هذا الطفل الأخير قصّة والده الذي ربّما يعود مع شقائق النعمان، حتى يرث عهدَ الانتظار من بعده، وجد أنّ هذا الابن الذي كان شديد الشّبه في الهيئة والطباع بخاله البسيط الذي يعيش في الواحة وقد ترك الحيّ والعشيرة وتزوّج من أهلها، وعمل هناك في الصّباغة، وجده لا يشعر بأيّ حماسة لهذه القصّة، كأنه لا يصدق وجود هذا الجد أصلًا، فضلًا عن أنْ يصدّق عودته، وقد كان يبدو بكلّ جلاء مستخفًّا بها؛ وهنا توقّف الأب تمامًا عن احتضانه، وشعر أنّ إحساسه تجاه ابنه هو قبس أودعَ في ضميره من نور العدالة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بطعْمِ الإثم

كان مصلح يحتسي القهوةَ مع زوجته سلطانة، وعلى عينيه قماشة مبلّلة بالماء البارد وضعتها له لأنّه استيقظ وهو يشتكي من حرارةٍ فيهما، وقد علتْ وجهه ابتسامة، مثل طفل غمُّوا عينيه في اللّعب. كانت ابتسامة اندهاش من كوْنه زوج هذه السّيدة اللطيفة الرصينة التي كانت زوجة لأخيه؛ بعد كلّ هذه الأيام التي مرّت لا يزال يشعر أنّه هو نفسه فوجئ بهذه الزيجة مثلما فوجئ الآخرون. كان يرجو أنْ لا تقوم أبدًا، وأن تصبّ الفنجان بعد الفنجان، وأن لا يفعلا أيّ شيء يهزّ ما يسري بينهما من هناء، لعلّ هذا الوقار الخجول الذي يحفّ بهما يسْفرُ عن شيء عفويّ بينهما، يرعيانه ويتعجّبان منه كما تعجّبا من أمر الزواج.

وتمنّى مصلح أن تبدأ جلسة الشّيوخ بعد قليل دونَ أن يدعوه، لأنّه اليوم يريد أن يكون شابًّا متواضعًا من شباب الحي يعرف جيدًا ما يريد، إمّا أن يجعل هذا الزواج حقيقيًّا ودافئًا بغير أيّ تردّد، أو يدعه ساميًا هكذا في فلك الخدمةِ العائلية الشريفة بغير أيّ ضعف، وإن كان يشعر بمشقّة في أن يظلّ الأمر على هذا القدر من السّمو، فبالرغم من أنّه في خبيئة النفس، في الأعماق العنيدة التي لا تعترف بالمستجدّات، لا يزال يرى نفسه محبًّا مخلصًا لثريا، ويؤمن بأنّه قد كتب عليه أنْ يبقى مكتويًا بنار حبّه الأوّل إلى النهاية، وأن يبقى سقم الهوى بين ضلوعِه إلى أن يرافقه إلى المقبرة، وأن تصدق فيه الصّور الهائلة التي أجّجها شعراءُ الصّحراء في عذابات القصائد عن الحبّ الذي لا يُنسَى، وأن يكون مصيره كمصير المسنين الصّريحين الذين فقدوا أغلبَ أسنانهم، وجلسوا في مجالس السّمر الدافئة، وأعينهم الضيقة تمتلئ بلمعةٍ من الحسرة تنكشف في أضواء الحطب، وهُم يقولون إنّه لم يهدّ أبدانهم إلّا قديم الجوَى، بالرّغم من هذا كله، إلّا أنّ وجوده بالقرب من سلطانة يغيّره شيئًا فشيئًا، ويزيده أنسًا بها وتعوُّدا عليها، رغمًا عنه، ولم يعدْ لديه القدرة الكافية كي يقاوم للأبد روح أنثى واعية ولطيفة ومهتمّة تعيش معه تحت سقفٍ واحد. إنّ به ميلًا بطعم الإثم تجاه سلطانة بدأ يشعر به، ويكبر فيه الآن وهو يحتسي معها القهوة، ويسمعها ولا يراها، متمنيًا أنْ لا يدعوه أحد أبدًا إلى مجلس الشيوخ.

بعد قليل كان هناكَ بينهم، بغير أيّ رغبة، يسترجع صوتها، والطّريقة الرقيقة الخجولة التي وضعت بها الكمّادة على عينيه؛ لقد أرسل الشيخُ غائب يدعوه إلى مجلس الشيوخ، فجاء وجلس بين اثني عشر رجلًا من بيوت العشيرة الثلاثة: بيت عرقوب، وهو البيت الذي يتزعمه الشيخ غائب، ويتزعم العشيرة كلّها، وبيت طوق الذي يتزعّمه الشيخ جهير، وهو البيت الذي تتجه إليه كلّ أسباب الزّعامة لتخرج من العراقيب للأبد، وبيت عميم، وهم أكثرُ الناس في الحي عددًا، وأبعدهم عن مشاغل الرئاسة ومواهبها، وأكثرهم صخبًا في جوّ المناسبات.

بدأت الجلسةُ وعلى وجه الشّيخ غائب تظهر حالةٌ عارضة من الاستبشار لا يفهمها أحد من الجالسين، فقد كان يطمحُ في دخيلة نفسه في أنْ يباغته الشّاب الطيب النظيف ويباغت الحاضرين، ويسألهم: لماذا حدثَ ما حدث؟ فطالما أنّ هذا الاستفسار كان يضنيه عندما زار الشّيخ ولم يجد إجابة، فليس مِن البعيد أن يحمله معه إلى هذه الجلسة.

وذهبتْ آمال الشّيخ بسرعة، ورجع إلى حالته الطبيعية من الهمّ والتّوجس، فقد كان عدم الارتياح باديًا بشدّة على مصلح، ممّا ينبئ بأنه لن يباغت الحاضرين بأي سؤال، وسيترك الكبار كي يديروا

المهزلة. مصلح الذي راهنَ عليه الشيخ لم يعدْ بالفعل مرتاحًا بينهم، فالاحتفاء به وتقريبُه هو في النهاية إجراءٌ تكريميّ مؤقت، وهو يريد أن يعود بسرعة إلى حجمه الطّبيعي قبل أن يعيدوه هُم، أو قبل حتّى أن يستثقل بعضُ الكبار وجوده؛ وهو أيضًا يريد أن يعود إلى بيته، ويتركها تضع القماشَ المبلل على عينيه مرّة أخرى حتى بعد أن بردت عيناه، ويستمتع بالضّغطة الخفيفة الحانية لأصابعها المرهفة، ويستمع إلى صوتها الدافئ، ويندهش من كوْنها امرأته، ويشرق وجهُه مرّة أخرى بالابتسامة الطفوليّة الرائعة، بدلًا من أن يمكث هنا ويكتسب مع الأيام مثلَ هذه الابتسامة المأساوية التي يلزم بها الشيخ غائب نفسه عندما يقع بصرُه على جهير في الجلسة، والتي يتوارى ما فيها من افتعال في ثنايا التجاعيد، تلك الابتسامة العليلة التي عوَّد نفسها عليها من بعد يوم الضباب، والتي ينكر بها الجرح النافذ الذي يشعر به من كوْن جهير قد وجّه له إهانة بالغة عندما أسر الرجل الذي تصالح معه.

وأفاق مصلح من شروده على الشّيخ غائب وهو يسأل الحاضرين عن رأيهم في زيادة الحرس المتيقّظين حول القفص، ليرتفع عددُهم إلى عشرة رجال يوزَّعون بعناية، اتقاءً لأن يحاول أهل الواحة إرسال سريّة في عماية الليل لتحرير الأمير. قال إنّهم يعرفون أنّ الحراس ثلاثة، وربما أعدّوا خطة على هذا العدد الضئيل، ويتلكئون في إرسال الجرو، لعلّهم ينجحون في استخلاص أميرهم منّا، وقد نفاجأ ونحنُ ننتظر ذلك الجرو، بأنّهم باغتوا الثلاثة في عتمة الليل قبل أن يصرخوا، وعالجوا القفلَ بحديدهم، وأخذوا أميرهم. أمّا لو غيَّرنا عدد الحراس، وصاروا عشرةً مثلًا، ووصلهم الخبر؛ أفسدنا عليهم حسابَهم، ويئسوا وقنعوا بإرسال الجرو من أجل الصلح.

واستبعد الحاضرون جميعًا هذا الاحتمالَ الذي قدّمه إليهم كهدية مباركة حلَّت عليه بالليل والنّاس نيام، واعتبروا إلهامه الذي دعاه لعقد هذا الاجتماع العاجل ضربًا من الخيال البعيد، فهؤلاء النّاس أرسلوا ما يؤكّد رغبتهم في فكّ أسْر الأمير بطريقة مسالمة، وهم يدركون جيدًا أنّ أهل الحي سيبدؤون بقتلِ الأمير إذا فوجئوا بأيّ غارة جاءت لتحريره.

أخذوا يؤكّدون على أنّ الهجوم من أجل إخراجه من السجن سيكون فكرة جنونية، وعلى أنّ أهل الأمير لا يقدرون على ثمن هذا الجنون، وحياة الأمير عند الشّيخة شمسة- التي لها الكلمة هناك في غياب زوجها- هي أثمنُ من كرامة الواحة كلها. كان الشيخ ينظر في وجوههم يشحذ بعينيه من أيّ منهم تأييدًا لتفكيره وهواجسه، ولمّا لم يجد أيّ تعاطف مع ما قال، ارتاب تحت الأثر الطّاغي للإجماع في نفسه، وهزّ رأسه متأسفًا، ورأى أنه رجل مبالغ في حذره وهواجسه، وأخذ يضغطُ بسبّابتيه على صدغيه، كأنّه ينبه دماغه حتى لا يستسلم لمفاسد الشّيخوخة، وتمتم كأنه يوبِّخ نفسه.

وأخذ الشّيخ ينصت للرّجل الذي صار مشكلته بكلّ تركيز، مختبرًا قدرته على مقاومة نفحات الشّرود، ممّا جعله يشرد أكثر من المعتاد، فيما كان الشيخ جهير يتكلّم بلهجته الفخمة الهادئة التي اكتملت راحته فيها بعد أن استتبّ له الأمر من بعد النصر، وينبههم إلى أن رفع عدد الحرّاس إلى عشرة سيقلق أهلهم، أهل حيّ المناصت، وسيفهمون منه أنّ الكبار الذين كانوا يستمدّون منهم الطمأنينة صاروا يشعرون بالقلق، فتنتقل إليهم عدوى الخوف، فإنْ خاف كلّ منهم على حدة، سيبدأ في مراجعة خوفه مع الآخرين، فإن تكلّموا فيما بينهم عن ذلك الخوف ازدادَ أكثر وأكثر، وإذا خافوا بهذه الطّريقة

حاسبوا الكبار على كل ما حدث، وهكذا، فإن العدد القليل من الحرّاس هو تعبيرٌ عن غرور مطلوب؛ لأنّه لا شيء يفرِّق جماعة مثل تنازلها عن غرورها.

وبالطّبع، فإنّ كلّ الحاضرين أخذوا يهزّون رؤوسهم طربًا من الحكمة التي تنضح من كلامه وهو يؤكّد أنّه لا غنى للأمم عن العنْجَهية لمنع الانفراط، وأن قلّة الحراس كانت شيئًا بارعًا وكابوسًا شديدًا أصاب أهلَ الواحة بالذّهول؛ لأنّهم فهموا أنّ أعداءهم لا يشعرون بالخوف ولا يشعرون بالندم؛ قلّة الحرّاس الذين وضعناهم يا إخوة، جعلتهم يشعرون أنّهم ضعفاء وتافهون.

الشّيخ غائب الذي فشل في تجنّب الشرود بسبب استماتته في تجنب الشرود، حرص على أن لا يبدو أقلّ منهم تعبيرًا عن الإعجاب به، ذلك لأنّه خائف جدًّا من أن يحسد الرجل، أو أن يلحظ أحدُهم أنّه لم يحتفل بالكلام بالقدْر المناسب فيتّهمه بالحسد، أمّا مصلح فكان يتردّد في رأسه نفس السؤال البسيط: ولماذا حدث ما حدث؟

وأخذوا يراجعون الرّسائل الشفهيّة التي خرجت من الواحة، وتؤكّد نيّة حكّامها في إرسال الجرْو ليبحث في أمرِ فكّ أسْر الأمير همام؛ وكان الشيخ حشّاد، كبير بيت عميم، وهو رجل ظريفٌ وغير مبال؛ يعبّر عن إعجابه بالجرو الذي له سمعة عجيبة في دهائه ومكره وصناعته للألاعيب، فأخذ يحكي طرفًا من قصصه المشوّقة. وقد تعجّب الشيخ غائب من زعم حشاد أن هذا الجرو صاحبُ علم خفيّ يغير به طباع الحيوان من الوداعة للشّراسة، ومن الشراسة للوَداعة، فقد اشتكى له أحدُهم بأنّ كلبه لو رأى سارق المواشي ينقّب جدار الحظيرة هزّ له ذيله، فراهنه الجرْو على تغيير طبعه، فأعاده إليه بعد ثلاثة أيام، وهو لا يكاد يجعل أحدًا يمرّ من أمام البيت إلّا وقطع طريقَه وأعاده من حيث جاء وهو يكشّر عن أنيابه، وانتهى سرور صاحبه به عندما قتله النّاس تخلّصا من الشّر الذي زرعه الجرو فيه بقوة غامضة. ثمّ ختم الشّيخ حشاد كلامه بأنْ قال وهو يضحك: هذا اللعين الذي نزل من رحم امرأة بلهاء كانت تبيت عند المقابر، والذي يقال إنّه جاء من نطفة جان؛ أخافُ أن يلعب بنا لعبًا، وأنا أفضّل أن نعطيه سيِّده قبل أن يتكلّم ونتقي شرّه.

عقدَ الشّيخ غائب حاجبيه المعقودين أصلًا، ودعا بالسّتر، ثمّ عرض عليهم بجديّته الظريفة، وهو يشعر بالقلق والإفلاس؛ أنْ يستأجروا رجلًا حسّادًا معروفًا من بادية قريبة ليحسد الجرو في دهائه مقابلَ أجر؛ وهو رجلٌ يأخذ مهنته الغريبة بالجديّة والتوقير اللازمين باعتبارها من أنشطة الرّمي، ويتقابل مع زملاء التخصّص النادر في جوّ رفيع من تبادل النصح والخبرات؛ فضحكوا وتخوّفوا من الآثار الوخيمة لمضايفة ذلك الرجل؛ لأنّه سيحسد غالبًا، ومجانًا، بني منصت على العزِّ الذي أوصلهم لأسر أكرمِ رجلٍ في المنطقة.

أعرضَ الشّيخ جهير بكلّ كبرياء عن التكلّم عن الجرْو، ولم يحتفل بأي نادرة حكوها عنه، مُعتبرًا أنّه لا يستحقّ أن يُذكر في جمع كهذا، وكان هذا يستفزّ الشيخ غائب الذي تخوّف ممّا استفاض فيه الشّيوخ هذه المرّة عن دهاء الجرْو، فقد بدا له هذا الدُّهاء المرعب بابًا من الويل فتحه الشيخ جهير عليهم، ونظر إلى مصلح نظرةَ إفلاس طويلة، لأنه أدرك أنّ الشاب لن ينوب عنْه في اتّهام جهير بجرّ العشيرة إلى مأساة، ولن يكسر نغمة التوافق السائدة بين الشيوخ، وامتلأ بطاقةٍ سالبة مفاجئة، وأخذته تلك الرُّوح التي تتلبَّس الكبار وتجعلهم يعيدون تذكر الأشياء التي أثارت استياءهم مهْما كانت بسيطة،

فقال وهو ينظر في وجوه الرجال: إن كان للأمير شابّ نابه وغيرُ خامل سيأتينا ليحرّره، فمعنا هنا شابّ نحن أيضًا قرَّبناه، شابّ لا يزال يحتفظ بكلّ همّته ونشاطه سيتنبّه بالتأكيد لكلّ حركات وسكنات ذلك الرجل الخفيف مجهول النّسب، فإنّنا نحن الكبار، حقيقةً، لا نصلح لهذا، فقد بلغنا من الكبر يا إخواني، ما قد يجعلنا ننام عند النّاس فجأة.

وبينما كان مصلح قد بلغ به الضّيق مداه من الشيخ الذي لم يغفر له نومه عنده، ورماه بهذه الكلمات التي لم يفهم مغزاها أحدٌ غيره، ضحك حشّاد كبير بيت عميم وقال للشّيخ غائب وهو يشير إلى مصلح إنّ عليه أنْ يعرف أنّ الشابّ الذي يدفعه للأمام لأنّه من العراقيب مثله، والذي تزوّج من أخت مدين ثاني أكبر العراقيب بعده، والذي قرَّبوه جميعًا لأنّه أسر الأمير همام؛ عليه أن يعرف أنّه يسقي الأمير ويواسيه، ولا ينقطع عن زيارته.

شعرَ مصلح بالحرج والضّيق، وكان يودّ أن يمتلك الشجاعة ليقول له أيّها الظريف وهل تعرف لماذا حدث ما حدث حتّى لا يستحقّ الرجل منّي شربة ماء؟! ولمحَ مصلح في وجه جهير شيئًا من الرّضا بهذا الإحراج، وشرد في بقيّة وقت الجلسة وهو مستاءٌ لأنّه يشعر أنّ الشيخ جهير الذي حرّضه على أسْرِ الأمير فأطاعه طاعة عمياء؛ قد تغيّر من ناحيته، ربما لأنّه يزور الرّجل في محبسه.

وخرج مِن هناك بعد انتهاء الجلسة وهو يشعرُ بكراهية لكلّ شيء حوله، وبغربة عن كلّ شيء، كما لو كان هذا الحيّ قد أسره منذُ ولادته. وقد دبّت فيه نزوة انتقاميّة عابرة وهو يمضي وحده في الظّلام، مثل قبلة مختطَفة في العتمة خلخلت في لحظة واحدة وقارَ العالم، تمنى معها أن ينتصرَ الجرْو على هذا الحي، بخدعة شديدة الذكاء ومهينة، يرى على إثرها في الصبح الحرج والذّل في عيون كلّ الناس الذين يعيشون هنا، حتّى الذين يحبّهم، وفي دخان هذه النزوة الانتقامية الذي صعد من نفسه، تحرَّك فيه الظّمأ للعاطفة، ذلك الظّمأ الشديد الذي يبطل في الإنسان عندما يستولي عليه الرُّغبة في تفسير أيّ شيء، وهو لا يعرف على أيّ جهة عليه أن يحملَ صبابته الغريبة، ولكنّه سيترك الملابسات تقود غزله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سريرُ القرفة

سائر النّهار لم يظفر المسكينُ في بيته بأيّ شيء، ولا صبّتْ له القهوة، ولمّا جاء الليل مرّ من أمام بيت ثريا لائذًا بحبّها، متناسيًا أنّه عزم على أنْ لا يمرّ من هناك أبدًا، ولكنه لم يجدها، فذهبَ إلى الأمير وعادَ ولم يجدها، ولأنّه كان في حاجة خطرة إلى الحبّ؛ اعتقدَ أنّ عدم وجودها وقتما أحبّ أن تكون موجودةً أمام بيتها، هو إساءةٌ بالغة لن يغفرها لها، وأخذ وقتًا حتّى ينام في تلك الليلة، قضاه في النّظر من كوّة صغيرة في غرفته إلى الأضواء التي تبعثها الرّغبات الأبدية للخنافس.

وعلى عادته الصّباحية أولَ ما يستيقظ، قام من غرفته العزوبية الطّابع بالبيت، ووقف عند الباب المُشْرع السّتار لغرفة أطفال زوجته سلطانة الثّلاثة من أخيه الرّاحل وهم نائمون على بطونهم بعمق، وابتسمَ واستعادَ ثقته بنفسه ككلّ يوم، تلك الثقة التي تبعثرها بالليل أضغاث الأحلام الصّريحة. لقد أدمن هذا الأمرَ وواظب على التقوِّي به منذ أوّل مرّة حدث فيها أن وقفَ هكذا يطلّ عليهم، ويقول لنفسه بلهجةِ راهبٍ يحاول أن يجدّد حماسته لعيشته القاحلة بلا نساء: هل كان عليَّ أن أتركَ هؤلاء ينامون في بيت رجلٍ غريب؟!

وكانت زوجتُه الثّلاثينيّة التي على قدرٍ من الرّصانة والجَمال، ذات الأنف الشامخ والفم الصّغير المتوتّر؛ جالسةً في بهو البيت، وأمامها بعضُ الجبن والبيض المسلوق، وإبريق القهوة، وتنتظره بعاطفةِ أخت كبرى، وتقول له دعْهم يفطرون في وقت لاحق.

جلسَ أمامها وكلّمها أثناء الطّعام وهو يتمتّع بالميزة التي يوفّرها له الكلام معها، وهي ميزة لا يجدُها غالبًا حتّى في حديث النفس عندما يختلي بذاته في أيّ ناحية في الخلاء، وهو أن يتكلم بغيْر أيّ مَزاعم، ودونَ أيّ هالة أو إفراطٍ في تقدير الذات، ويرجع هذا بالتأكيد لأنّه لم يتحوّل أمامَها من شخص مغمورٍ لا وجود له تقريبًا إلى بطل؛ بلْ كان يشبّ أمامها شيئًا فشيئًا منذ أن كانَ طفلًا خجولًا لطيفًا، لذا كان يشعر أنّها تعرفه جيدًا، أكثر ممّا يعرف نفسه.

كلّمها، كما كلّمها من قبل، عن الرّجل الأمير المسكين الحبيس مثل ذئبٍ جريح، قال لها إنّ الأمير همَّام الذي كان يحذر ولا يتكلّم بسوءٍ عن الشيخ جهير، قد تكلّم معه واتّهم الشيخ بالحقد؛ بغيْر أيّ ذرةِ خوفٍ من أن أفشي ما قاله، وبأنّه فعل ما فعل من أجل مجدِه، وقد وجدت نفسي، وبكلّ صراحة، أكتشف من وقتها أنّني لا أفهم بتاتًا لماذا فعل الشّيخ جهير ما فعل، ومشيت من عند الرّجل وأنا أشعر أنّه لطمني على وجهي، وتمنّيت أن يكون ثمّة سببٍ قويّ يعرفه الشيخ جهير ستبْديه الأيام. وذهبتُ للشّيخ غائب، وانفردتُ به، وسألته، فغرق من سوء حظّي في الحكايات المبعثرة والمجاز والذّكريات القديمة، والخلط بين الأحياء والموتى، حتى إنني نمت عنده، ثمّ ذهبتُ لمجلس الشيوخ الذي لا يسأل فيه أحدٌ هذا السؤال، ولم أكن هناك مستقيمًا ومغفّلًا لدرجة أن أتكلّم بين هؤلاء المحنكين عمّا يعرضون عنه.

أنصتَتْ له بوجهٍ متحفّظ دونَ أن تردّ بأيّ كلمة، وبعد أن تشتّت قليلًا من دقّة فمها المكتنز والمُرتبك، أكمل بهدوء: هل تتخيّلين أني تذكّرت في نومي ما دار بيني وبين الشيخ جهير قبل أنْ أخطف الأمير؟ فأنا كنتُ قد نسيت كلّ ما تحدّثنا به في اللحظات الأخيرة، كما يحدث لي عادة في الأوقات الشديدة، لقد

سألته باستعطاف: لماذا يجبُ أن أخطف الأمير؟ قل لي حتى لا أفلته ولو عقروا حصاني من أسفل منّي. وقد ردّ بكلمات مبعثرةٍ بصوت منخفض لم أفهمها أو لعلّها لم تكنْ ذات قيمة، لكنّي أرجّح الآن أنه شتمني. فقلت له بماذا سنبرّر لأهلنا عودتنا بالأمير وبيننا وبين واحتِه تجارة، وليس بيننا وبينه ما يستحقّ أن نبدأ حربًا قد لا تنتهي في هذا الجيل؟ فقال إنّ علينا فقط أنْ ننتصر، وهنا، في هذا العالم، لا يحتاج المنتصر أن يبرّر انتصاره، فالناس سيقومون بهذه المهمّة على أكمل وجه. وضربني يا سلطانة على صدري ضربةً قويّة، وأشار لي كي أنطلق فانطلقت؛ وقد كان عجيبًا أثر قبضته على صدري، فقد هجمتُ بعد ضربته بغير وساوس.

نعمْ يا سلطانة، في هذا العالم لا يحتاج المنتصرُ إلى أن يبرّر انتصاره، وأنت سمعتِ كما سمعنا جميعًا حكاياتٍ كثيرة، ومنها أنّ الأمير همام قد تكلّم عن امرأة شريفة من نساء الحي، لا داعي لذكر اسمها، هكذا تقول الحكاية، وكان يقول إنّه يعمل على أن ينالها ولو كلّفته وزنها من الذّهب، فلمّا نقل أحدهم ذلك للشّيخ جهير في غدائه، تقلَ ما بفمِه من طعام، وتصلّب وجهه، وحلف على أسْر الأمير تأديبًا له. وليس العجيب أنّ مَن سمعوا تلك القصة وقصصًا أخرى منكرة قد بكوا، العجيب أنّ مَن اختلقوا تلك القصص كانوا يبكون من شدّة المشاعر التي أجّجها في صدورهم الإحساسُ بالشّرف والعزّة المستعادة، وكانوا يزدادون حبًّا للشيخ بعد أن يبثّوها بين الناس.

قالت له سلطانة إنّها تودّ أن تنصحه، وتريدُ منه أن يتقبّل النّصح منها باعتبارها أكبر منه سنًّا، فقاطعها قبل أن تكملَ كلامها بكلّ حنان وخجل، راغبًا منها أن لا تشغل نفسها كثيرًا بـ..

وخجلَ من أن يكمل كلامه ويقول: فارقُ السّن الكبير بينهما. فقاطعته ودخلت في الموضوع مباشرة لتغلق باب التودّد الذي يفتحه باهتزاز طفلٍ متلصّص على أمّه، ولتعفيه من خجله من الكلام عن كبر سنّها عنه، وقد كان هذا الخجل مؤلمًا لها بما فيه الكفاية؛ لأنّ الرجل بما فيه من خشونةٍ هو الذي يقع على عاتقه الاستهتارُ بالأمور التي تأخذها المرأة بحساسية.

: حسنًا؛ أنصحُك أن تكون أكثرَ احتراسًا وحذرًا؛ فشابّ نقيّ ومعروف مثلك هو عرضة للكراهية أكثر ممّا يظن. وهمَّام هو أغنى رجلٍ في السّارحة بغير منافس. وأنا أعرف أن مروءتك وتأنيبَ ضميرك هما اللّذان يدفعانك للعناية به، لكن...

فقاطعها: هل يمكن أن يظنّ واحدٌ من الناس أنّي أودُّه وأخفّف عنه طمعًا في أن يجازيني؟

: فليحسب الناسُ ما يحسبون لو ظلّ بالقفص. لكنْ ماذا لو تسلّل رجال من الشهوب وكسروا قفلَه وطاروا به؟

فتكلّم وهو يحتمي بالصّورة الوضيئة لشيوخ العشيرة وهُم يستبعدون الاحتمالَ الذي طرحه الشّيخ غائب في وقوع عملية تحرير فدائيّة، وعبّر عن أنّ هذا مستحيل، فهناك حرس، وهناك شعلتان، وهناك بوقٌ يُسمع الأصم.

فأثنتْ على عقل الشّيخ غائب الذي فكّر في هذا، ولكنّها كانت أكثر رسوخًا من الشيخ في الدفاع عن أفكارها، فأوضحت لمصلح- بكلّ بساطة- أنّ الحرس هُم عبيد تشتريهم الدّراهم، وأنّ الشّعلتين يمكن أن يُقال انطفأتا بفعل الرّيح والغبار، وهزّت رأسها تعبّر عن بساطة الموضوع. ثمّ قالت له إنّه شابّ

شهم وحَسَنُ النّية، ولكنّه لا يأخذ الحذر الكافي من المكر والظنون السيئة، وأنّه قد يفعلها حتّى واحدٌ من الأهل يرمون له الذّهب فيضع السّم للحراس الثلاثة في طعامهم ولا يبالي، وتأتي فيه التّهمة.

صدِمَ في البدء لأنّه يتخيّل للمرّة الأولى أنّ هذا جائز الحدوث، ثمّ دافع عن نفسه أمامها وقال إنّ العشيرة تعرف مدى حرصِه على أهله، وأنّه يفديهم بروحه في الشدّة، وأنّه هو الذي خطف الأمير على حصانه، فلو حدث هذا، واستيقظوا على قفصٍ مفتوح لا أحد به؛ لنْ يليق بهم وقتها أنْ يفكّروا فيه. وبروحها الواقعية لم تكنْ تقيم وزنًا كبيرًا لهذا الكلام الشّبابي الحار، وقالت له إنّ الناس يريحهم الشكّ فيمَن يضحّون ويقدّمون الكثير.

وتوقّف عن الأكل قلقًا ممّا قالت، ومنبهرًا بكوْن امرأته أنضجُ منه، فتوقّفت مثله على الفور، بطريقة أشعرته بالثّنائية بينهما، وهمَّ لصبّ القهوة فأسرعت لصبّها له ثمّ لنفسها، كان يشعر أنّ هذا- على الرّغم من بساطته- مؤثّر، وحميم، فشردَ وهو ينظر إليها، وهو يعيد نطق كلماتها الأخيرة، كأنّه يبرّر شروده في وجهها بآرائها في صراعِ العشيرة الذي ضعف اهتمامه به بالأمس فوْر خروجه من الجلسة، وهو الآن، في هذه اللّحظات التي ينظر فيها في وجهها، لا يمثّل له أيّ أهمية، كان يتلذّذ بكوْنها على مسافة قريبة، ويتلذّذ بمحاولة فهمها، ويتكلم في أعماقه بالتحرّق الذي تكون عليه روحٌ ترغب في خطف المعرفة، بنفس هذا التحرق فيه لمعرفة ما يدّخر السّد للأيام القادمة، (قلقة أنتِ عليَّ أمْ على أسرة نشأتِ يا سلطانة، وهل مازلت مطالبًا بشيء أمْ جزاني الله خيرًا، فقد عملت ما يجب عليَّ عمله، وهل غطّيت الرايب الذي تكلّمتْ عنه أمّك أم ليس بعد؟).

فاستفسرتْ منه بعد أن طال شرودُه في وجهها إنْ كان قد استاء من كلامها، فأثنى عليها وعلى كلامها، وقال إنّ كلامها به تعقُّل مطلوب، وأنّه أثار إعجابَه كثيرًا، وهو يشعر بالرّضا لأنّ له امرأة تبدو ذكيّة مثل أخيها.

هزّت رأسها من هذا الإطراءِ بالشّكر الحزين لمسكينةٍ وضعت في كفّها المبسوطة عملة أصغر من رجائها، وقالتْ وكأنّها تفكّر ولا تدري أنّها تكلمه، وبعينين حريصتين ومهمومتين: وكن كتومًا يا مصلح.. ولا تحكِ.

ولمّا رأت نظرةَ استغرابه لأنّه لم يفهم ما قالت، استوعبت أنّها نطقت ولم تكن تحدّث نفسها كما ظنّت، فصمتت بحَرَج، واسترسلت في التكلم معه عبر عينيها المحزونتين فقط، ثمّ أنزلت عينيْها للأرض، ففهم ما كانت تريد أنْ تلمّح له، وغلبه الخجل والحيرة، ولكنّه لم يفهم إن كانت تعاتبه أم تعاتب نفسها.

قامَ ودخل إلى غرفته وصارحها مِن هناك بصوتٍ فضفاض بأنّه يشعر بعد ما سمعه منها بأن فيه سذاجة ما كان يظنّ أنّها فيه، وستكون بلوى كبيرةً لو ذهب همَّام بفعل فاعل؛ فلم يكن هناك مَن يقترب منه أكثر منه هو والحرّاس. وقد أتته نبرتُها فأنعشته، كما ينتعش أيّ رجل بنبرة الفخْر في صوتِ زوجته: أنت لستَ ساذجًا.. ولا تقلْ عن نفسك ذلك أبدًا.. فأنت مِن دون الشّباب تجالس شيوخَ منصت، الفخذُ جنبَ الفخذ.

خرجَ بثوب آخر، ووضع بجانبها الذي كان يرتديه لتغسله، وجسمه قد اضطرم رغمًا عنه من أثر فخرها به، وقد أحسّت- بفطرتها- باضطرامه العابر، وربّما أيضًا من التمدّد التنّيني لفتحتي أنفه،

فأخفضت رأسَها ذاهلة، متحاشية أن تتكلم فيعلن الخجل الذي يعلق بصوتها أنّها أحسّت بما اعتراه، أمّا فمُها فقد زاد ارتباكًا.

بعد أنْ ألقى ثوبَه بجوار سلطانة فأثير وأثارَ كأنّه ألقى قصيدة، ومضى حاملًا أشجان شوقه المكبوت، حلَّت سلطانة شعْرَها وهي جالسة وحدَها في غرفتها، وأخذت تحدق وهي مستندة بظهرها في ملامحها في المرآة التي أمامها، بقلقِ امرأة ثلاثينيّة تشعر أنّه لا يزال الوقت مبكرًا جدًّا على استقبال الشيخوخة بهدوءٍ خريفي، ولا يزال مبكّرا جدًّا على استقبال الأوجاع التي تزيدُ اثنين تضامنًا، وعلى أن يكون الرّجل هو شريك طيب في احتساء القهوة وفي تأمل الدنيا الفانية من النّوافذ المواربة، وعلى أن يكون أعذب ما تقدّمه العينان للشريك هو الطمأنة.

أخذتْ تمرّ بأصابعها كثيرًا على خدّيها، حتّى تأكّدت أنّهما لم يتغيرا تقريبًا عما كانا عليه منذ منتصف العشرينيّات من العمر. وقبضت على ثوبه الذي ألقاه بجانبها، وشردت فيه طويلًا كأنّها تستنطقه، وبانَ عليها الهيام، وقرَّبت الثوب من أنفها الرّشيق المرسوم، وشمَّت ما فيه من فوضى العرق والطّيب، والغلظة البريئة للرّجولة الطيبة، وضمّته لصدرها، ومالت عليه بقُبْلة خرافيّة، وأخذتْ نفسًا عميقًا.

ورأتْ فيما يرى الذي تنهال عليه الذّكريات فجأة، الطفلَ مصلح وهو يبتسم خجلان، وأخوه، زوجها الشّاب عبيد، يربّت على كتفه في ذلك الصباح، كانت تراه من الستارة الشفيفة لغرفتها، وينادي عليها أنّ أخاه جاء ليبارك لها، فخرجت من غرفتها في ليونةِ عروسٍ مشبّعة بالعطر والبهجة، والدّهون الخاصّة التي دُعِك بها جسمُها البارحة، بهذا التّفتح الربيعي لواحدة خرجت للتّو من برعم العذريّة. مدّ الصغير يده، وبارك لها الصّباحية وهو مندهشٌ من جَمال الحنّاء في يديها، ومن الصّليل المتغنّج للجلاجل الفيروزيّة المعلّقة بخلخالها الفضيّ، فقبّلت خديْه، وسحبته من يدِه لغرفتها، وأعطتْه بعضَ الحلوى من علبة، وهو يحدق فيما حوله من أثوابها المزركشة والحرير، والشّموع الملوّنة، وقوارير العطر، والزهور الصحراوية الصغيرة البنفسجية والحمراء والبيضاء، المُلقاة على فرش السّرير، والتي تبدو كأنّه نبتت عليه من جديد بفعل العاطفة، وقد تخدَّر من رائحة القرفة التي تفوح من سريرها.

خرجَ وهي تمسك يدَه، وجلسَ بغبطة لا تخلو من غيرة الصّغار، يلاحظ هذا الانسجام العجيب بينهما، وهما لم ينفردا ببعضهما البعض إلّا من البارحة، كأنّهما طائران يميلان معًا لليسار واليمين، ويصْعدان ويهبطان في آنٍ واحد، بغير إشارة، ومضى مأخوذًا بموسيقى المكر التي بينهما، التي جعلته يشعر بأنّه دخيل، وأنّهما اثنان لا ثالث لهما، مضى في هذا الصّباح ووجهُه يستعدّ للضّحك أو البكاء، منبهرًا بحياة البالغين السريّة، وناقمًا عليها.

أفاقتْ فجأة من الهيام والذّكرى، وعضّت على شفتها السّفلى، الصغيرة الممتلئة، والمرتبكة، ورمتِ الثّوب من يدها كأنّها ترمي تهمة، وخفضت رأسها كأيّ شخص غارق في الشعور بالنّدم على زلّة كان يمكن اجتنابُها، وغطّت شعرها، ورسمت على وجهها ما استطاعت رسمه من ملامحَ جادّة، وقامت وفتّشت عن شيء تلهّي نفسها فيه، حتى التقطت مقشّة الجرباح، واستخدمتها بمعنويّات محاربٍ يحاول أن يجدّد حماسه، رغم أنّه لم يكن هناك أيّ ذرة غبار تركتها هذه المرأة النّظيفة

والنشيطة تبيت على سجّاد الأرضية. كانت تكنس بيدها اليمنى وتمسك بالأخرى فتحة ثوبها رغم أنّه لا أحد عندها حتّى تخشى أن ينظر إليها وهي منخفضة، ولكنّ هذا لأنّها تخيّلت يد زوجها الذي مضى تمتدّ بهدوء في الفراغ نحْو نحرها، هذا ولم تلحظ المسكينةُ أنّها تصدر أنفاسًا مرتفعة عجيبة عالية، مثل أنفاس الفرس وهي تعدو، من اعتلاج الرّهبة والرّغبة إلى هذه اليد التي لا وجودَ لها.

ومصلح التّائه في متاهة العاطفة، لا يجد شيئًا يعوّض به ظمأه في هذا الصباح إلّا العطف على الأمير، حتّى إنّه صار يحمل همَّ فراق الرجل، وقد خرج من عند زوجته إليه، مستمرًّا في مواظبته على الذّهاب رغم القلق الذي شعر به بسبب اتفاق زوجته وكبار العشيرة على أن زيارتَه للرّجل الأسير غير مناسبة، مستمرًّا بدافع اليأس لا النّزاهة ولا التمرد، فهو يعرف أن تردّده على الأمير قد حُسِب عليه، وانقطاعه لنْ يفيد على أية حال، بل قد يُنظر له باعتباره حيلة لو حدث وتمّ تحرير الأسير بهجوم ليلي. وفي زيارته الصّباحية هذه للقفص، فوجئ بأطفالٍ من الحي يضايقون الأمير ويزعجونه، وينخسونه بعصيّ اللعب كأنه حيوان، فيزمجر، ويصرخ، فيتراجعون، ثمّ يعودون، حتّى اضطرّ لضبط وقفته تمامًا في منتصف القفص حيث لا تصل إليه عصيّهم. وكانوا يسبّونه بحماس شديد، ويعايرونه بكلّ تعصب، إذ كانت العقوبة المُخزية التي وقعت عليه في أذهانهم البسيطة هي عنوانًا لجُرمه الذي لا يعرفونه على نحو دقيق، هذا مع ما قد وصل إلى أسماعهم بصورة مشوّشة كنتيجة للاتهامات المتفاقمة الموجهة للأسير، التي تتكون بدافع الأمزجة الشّخصية واتجاهات الخيال، وقد وصلت إلى درجة يمكن أنْ يخشى معها على حياته، ومنها أنّه انتهى إليه، باعتباره أميرًا للواحة وارثة الأسرار العظمى، علم السّيمياء الذي يحول به المعادن الخسيسة إلى ذهب، ولكي يحصل عليه فهو في حاجةٍ إلى دماء أطفال أطهار لم يبلغوا الحلم، ومن السّيمياء امتلك جبلًا من الذهب الخالص في قبْو قصره المنيف، كان ينزل إليه وقد وضع على عينيه غمامةً حتّى لا يخطف بصره، وهناك في زاوية، صندوقٌ من خشب السّنط مليء بالجماجم الصغيرة.

زعق بهم مصلح وهدّد مَن يعود للرّجل مرّة ثانية، فانسحبوا بتلكّؤ أطفال يدَّعون الرجولة ورباطة الجأش: لا تصرخْ فينا. كان ما يزيدُ مصلح انزعاجًا من هذه الممارسات الغبية والجهولة أنّها ترجح عنده أنّه لم يشاركْ في معركة شريفة؛ بل شارك في جريمة مشينة غرضُها تحطيم الرّجل الذي كان ذنبُه الوحيد هو أنّه أعلى أهل السّارحة مكانة، لم يشارك في ذلك، بل كان على رأس هذه الجريمة التي تمّت بغواية الولاء، وبإقناع ضربة على الصدر. ولم يكنْ مصلح قادرًا- بالطّبع- على تحرير نفسه تمامًا من الولاء الذي يخيِّم عليه وعلى غيره، ويعترف بأنّه مخطئ، وأنّ العشيرة مخطئة أيضًا، وتفتقد في خصومتها للحسّ السليم، وكلّ ما كان يرجوه هو أنْ يكون هناك سببٌ مخفيّ لا يريد الآخرون ذكره، وأن تتوقّف العشيرة عن إرهاقِه بتلك التّصرفات وهذا المزاجِ الفاسد الذي يسمحُ بترك رجلٍ مثل هذا الرجل لعبة للأطفال العدوانيّين.

نظرَ همام إلى مصلح بامْتنان واهنٍ، وعيناه بهما دموعٌ قديمة متجلّطة، أمّا ملابسه فزادت اتّساخا، وضاعتْ تمامًا بقايا الرّائحة القويّة من الصندل والليمون التي جاء بها، وفقد مع العطر كثيرًا من هذا الإحساس بأنّه أمير، بل وإحساسه بأنّه إنسان. وقدّم له مصلح لفافة طعام من أسفل القفص، فسحبها بغيرِ إباءٍ وحرج، وقرفَصَ وانكبّ بوجهه على الطعام. وشعر مصلح بثقلٍ على لسانه مِن تحسّره

على الرجل. وصارحه همام بكل بساطة بعد أنْ عبّر له عن شعوره بأنّه وصل إلى آخر مداه في الملل، بأنّه على وشك أن يصدّق أنّه حيوان.

رفعَ مصلح وجهه عن وجه همَّام، كي يمنع عن نفسِه البكاء على حال الرجل، فيما شرد الرجل في حلم الحريّة، حلم العودة، لا لكي ينعم باستقبالٍ يليق به من الناس والوجهاء، بل يريد أن يذهبَ عند الشّرفة الشرقية المفتوحة على الزّراعات، ويهشّ البلابل المتجمّعة، ويفرش حصيرًا وينامُ كفلّاح بسيط مجهد.

وبعدَ أن فرغ من الأكل شكا له جروحه، فقدّم له مصلح الدّهان الذي وعده به، فأخذ يدهن على يديْه وظهره، وقد تجعَّدت ملامحُ وجهه. وكان يتلفّت حوله بعيني ذئبٍ محاصر، خائفًا من أن يرى أحدُهم دهانه، فيأخذونه منه من بابِ التّنغيص. ثمّ أخفض صوته وسألَ مصلح بجدية وقلق: يا مصلح؛ ألا تتّفق معي في أنّ هذا السجن الذي أقبع فيه هو في حكمِ البيت؟

لم يفهمْ مصلح سؤاله، ولكنْ بعد قليل تبيّن من شرحه كم يشعرُ بالقلق من العفاريت التي تأتي شاهرةً السّيوف، وتقتل الرّجال الموجودين في الخلاء، ولا تقتحم البيوت، وبخاصة هؤلاء الذين يحملون أسلحة ولم يلقوها.

كان الجرْو الذي وعدَ الشّيخة ومن معها بتحويل الحرّاس الثلاثة الذين يحرسون القفص إلى الوَداعة التّامة، حتّى يكون الأمر سهلًا على الغجريّ وعصابته، وحتى يمكنهم أن يهزؤوا من أعدائهم؛ قدْ أطلق من بعد ليلةِ المحاق بأيّام قليلة كذبةً مُتقنةً روّجها عن طريق من يطيرون بالأخبار المثيرة في الواحة، وفي غير الواحة؛ وهي أنّ هناك رجلًا نجَّس نفسه واختلى في مغارةٍ في جبل (أبو رحومة) القريب نوعًا ما من الواحة، واستنجى بالحليب، وأخذ ينادي في الجنّ بعزائم السّحر الأسود الشديدة، وقد أخذت زوايا المغارة المظلمة تردّد النداءات من خلفه، بصدًى مثيرٍ للرّعب، وهو جاهلٌ بهذه المعارف الجليلة، وضعيف القلب لا يتحمل الحضور، فحضرت العفاريتُ الشّديدة على هيئة قرود، ومعها مصباحٌ أحمر يسيل منه النور مثل الدم، فشرع سيفَه في وجوهها وهو يصرخُ من الرعب، فشتمته العفاريتُ بأمّه شتيمة قبيحة وهي تضحكُ متعجّبة ممّن ينادي عليها ثمّ يخاف، وأمرتْه بكبريائها، وبعيونها الجادّة، وقد انتصبت أذيالُها من خلفها بأنْ يلقي سلاحه ويقول ما عنده، إلّا أنّ ذلك الجاهل المشئوم أبَى، وأخذ يدَّعي أمامَها الشّجاعة ويهزّ سيفه كأنّه لا يخاف، ففزت عليه كأنّها خفافيش وأردته قتيلًا، ومزّقته بأسنانها وأكلت قلبَه في المغارة وهو مازال ينبض، وانطلقت هائجةً في الخلاء بعد أنْ راق لها طعمُ القلب وقد حملتْ سيوفًا، وقد طلب أهلُ الواحة المعونةَ من رجلٍ أفريقيّ معمّر، يلازم ضريحَ الشّيخ العارف علبة، وهو سيعدُّ خلال أيام قليلة شيئًا يجعلها تفضّل الحرق على البقاء في السّارحة، وهي لنْ تدخلها من بعد ذلك لألفِ عام، وهو يؤكّد للناس جميعًا من أهل السارحة على أنّها لن تقتحمَ البيوت على أهلها، وعلى مَن يكون في الخلاء وتظهر له أنْ لا يفقد هدوءه، ولا يشهرَ سيفَه، لكي ينجو منها وتتركه بغير غيظٍ وتزهد فيه، بل يضع سيفه ويتمدّد على ظهره كأنّه على سريره، واضعًا يديه مُتَصالبتيْن على صدره كما لو كان مسخوطة من مساخيط الفراعين المحنّطة، ويقول: (حباب حباب)، هذا أو لا يلوم إلّا نفسه.

وقد طافت خرافة الجرْو بأرجاء السّارحة، ووصلت إلى حيّ المناصت ولم تمنع الخصومة تداولها، ولم تمنعْ مِن وصولها للأمير نفسِه الذي أخذها على محْمَل الجدّ، وهو لا يتوقّع على الإطلاق أنّها خرافة صُنعت من أجله.

ولأنّ العفاريت من جنس آخر، حدثَ نوعٌ من التضامن الإنساني، بين الأمير وحراسه، ففي اللّيلة الفائتة تجمّعوا عند سجنه، باعتباره أميرًا له خبراتٌ مميزة في الحياة. في البدء لم يكن متحمِّسا لهذا التجمع بداوعي الخجل لا أكثر، فهؤلاء يحملون (القصرية) التي يخرج بها من خباء صغير من القشّ ينصبه على هيئة قمع في محبسه بعد أن يقضي حاجته، ولكن بعد قليل من الثّرثرة التي كان حريصًا على أنْ لا ينظر فيها إلى وجوههم انزاحَ عنه إحساسُه بالحرج، وبدأ يشعر بشيء من الأهمية، وهو شعورٌ يفتقده تمامًا منذ أنْ جيء بها إلى محبسه، وأخذ يوصيهم بإخلاص وهو يشعرُ بالغبطة لأنّهم يهتمّون بالاستماع إلى رأيه، بأن يذعنوا إن جاءت العفاريتُ، ويضعوا سلاحهم حفظًا لحياتهم؛ لأنّ هؤلاء مردةٌ من الجن لا قِبَل لنا نحن البشر بهم. وصار سعيدًا لأنّ هؤلاء الثلاثة يوصونه وهو خلفَ الحديد بإلحاحٍ أنْ يجعل عينيه معهم، وأنْ يصرخ بأعلى صوته إنْ حدث لأحدهم مكروه؛ وراقَ له أن يشعرهم بالخبرة ورباطة الجأش، وكذلك العلم، فقال- وقدْ غمرته غطرسةٌ عابرة تليق بأمير- ناسيًا أنّه صار في هيئة رجلٍ متسوّلٍ ومجنون، إنّه لا يخشى من الصّراخ إنْ جاؤوا وحاربوهم، وسيصرخ بمجرّد ظهورهم لتنبيه الحيّ كلّه، اسألوني: لماذا؟ فسألوه: لماذا؟

هذا لأنّهم وقد تشكّلوا في هيئة قرود، لا يستطيعون أنْ يفعلوا بالأجساد التي حبسوا أنفسهم فيها غير ما تقدرُ عليه القرود، فهي قد تقتل بالسّيف، وتقفز قفزات رائعة، وتعضّ عضّات لا شفاء منها، ولكن لا تستطيع أنْ تحطّم القفل الحديدي الثقيل، وتدخل إليه وتقتله؛ سألتك بالله، نعم يا رجل، كما وضّحت لكم، فليس عجيبًا أنْ تكون في غاية الخفّة والشّراسة والمهارة التي تتحملها أجسادُ القرود، لكنّها لا تستطيع بقوّة هذه الأجساد أن تكسرَ القفل الثقيل، ولا أنْ تثني الأسياخ وتمرّ من بينها إليَّ. ولمّا سمعوا منه ذلك تمنّوا لو تكون حراستهم من داخل القفص.

ولأنّ المسألة مسألةُ حياة أو موت، ولأنّ الحرّاس ذهبوا إلى النوم منذ بزوغ الفجر، أحبّ أن يدقّق معلوماته عن طريق مصلح، ليس لأنّه يتأهّب بالفعل للصّراخ لكي ينجد الحراس وقت اللّزوم؛ بل لأنّه فقط يحبّ أنْ يطمئنّ إلى أنّ العفاريت لن تقتحم عليه سجنه بعد أن تفرغ من الحراس.

لقد مضى أكثرُ الحرّاس قوّة وشجاعة من عنده، وقد لعبتْ برأسه فكرةُ أنّ العفريت الذي قد يظهرُ له حاملًا سيفه هو ذو قوّة قرد، ووحشية قردٍ في نهاية الأمر حتّى لو كانت تعمل فيه روحُ مارد، وقد خامرته فكرةٌ سعيدة بأنْ يقتل العفريت الذي سيهاجمه، وخصوصًا أنه جاء من قرية أفريقية طالما تمتّع فيها بأكل القرود، وتخيّل أنّه قد يحيا للأبد رافعًا رأسه بذكرى هذا الإنْجاز النادر. إذًا بينما قام الجرْو وفريقُه بواجبهم على أكمل وجه؛ كان الأمير- وتحت الضّغط العاطفي للطف حرّاسه معه وطلبهم للاستشارة- يضعفُ عملَ الخطّة الساحرة لإنقاذه من دون أنْ يدري.

كان الجرْو قد أطلق أكذوبةَ العفاريت شاهرةَ السّيوف بعد أنِ اطمأن إلى آخر شيء كان يجب عليه أن يدقّقه ولا يترك الغجريّ حرًّا في التصرّف بشأنه، وهو تحديد مسار الثّغرة الأفضل. وقد حصل على خدمةٍ مُبهرة من رجل بسيطٍ غافل من أهل الواحة يملك ذاكرة متوحّشة وقدرة على أن يكوِّن العالمَ من

جديد بعد أن يمرّ به، وهو رجل لم يكن يجد شيئًا هامًّا يستخدم فيه قدراته، فكان النّاس في الواحة ينظرون إليه على أنّه رجل تافهٌ يذكر معلومات كثيرة جدًّا لا أحدَ يحتاج إليها، ويتابع نسل الكلاب العادية التي لا قيمة لها، ويحدّد آباءها وأمهاتها في ستة أجيال. جاء الرّجل وجلس على الأرض في سطح القصر ليلًا، وقد أشعلوا له المصابيح، وأمامه الشّيخة والجرْو وحرسُ الشّيخة، واستخدم الحصى والحجارة والرمل وقطع الطمي الجافّ في رسم الحيّ بأكمله على مساحة قيراط، بنسب سليمة بين المعالم، واضعًا كلّ بيت، وكلّ عريشة، والبئر القديمة، والمرابط، وحتّى المجريين القديمين اللّذين كانت العشيرة قد حفرتْهما حتّى لا يكسح ماء السيل منازلها. لقد قام عن هذا العمل البديع وهو حزين، لأنّه انتهى منه، وقد أعجبه جدًّا أنْ يكون نافعًا، وفرِحَ بالانبهار والتقدير الذي في أعين الواقفين. حتى وهُم يشكرونه كان مصرًّا على أن يقدّم المزيد، فحدّد على الخارطة ثلاثَ نقاط بها كلاب تتّسم بالعدوانيّة.

لقد مرّت تلك الليلة التي وصلتْ فيها أخبارُ القرود للحيّ بسلام إذًا، وفي اللّيلة التي تليها أكّد الأمير- مرّة أخرى- على أنّ المُهاجمين قرود بأرواح شيطانية، لهم أذيال القرود، وقامات القرود، والآليات الحمراء للقرود، فداعبتِ الحارسَ أحلامُه مجدَّدا. وفي الليلة الثالثة، كان الغجريّ الذي اعتمد مسارَ الثّغرات الذي حدّده له الجرْو، يرتكز خلف مخازن جهير على يسار القفصِ بعيدًا ومعه القرود؛ حيث يرى بغيرِ وضوح حارسيْن من الثلاثة، أمّا الثّالث فكان بعيدًا قليلًا عنْهما على رأس الطّريق إلى الحي، ثمّ انتقل بخفّة وهو منخفض ونزل في المجرى الذي كان السيلُ قديمًا يجري فيه. مكث فيه بعضَ الوقت ثمّ انتقل بقروده إلى بقعة صغيرة مليئة بالحشائش ففرّت منها بعضُ الأرانب السوداء مذعورة، وكان يرجو أن لا يفاجئه فيها ثعابين. ومن هناك رأى الحارسيْن يتكلمان معًا من مسافة، ويسري الصوت في نسيم الليل، حاملًا نبرة ودودةً قلقة، وظهر الثالث البعيد، الذي غار من تعاضدهما وأخذ يرفع صوته بأي مزاح حتى يشعر أنّه معهما. وجعل الغجري الثنائيات تنظر إلى الحراس، ويعرف كلّ ثنائي هدفه، وهزّت القرود رؤوسها معلنة استيعابها، وهي تنظر له بذكاء بأعينها العسلية لا يعوزه إلّا النطق.

وقبيل الفجر، في ذلك الوقت الذي يشعر فيه الحراس في زرقة الظلام بأنّ الخطر قد زال، وأنّ الهواءَ البارد قد لعب برؤوسهم وصدورهم، وأنّ الخمول وضعف الحواس يلفّهم، وأنّ أرجلهم قد بردت وتيبّست من تحت الثياب، توقّف الغجري الذي يرتدي زيًّا أسود، عليه شعرٌ كشعر القرد عن التّفكير في الذّهب، وتقنع بقناع على هيئة رأس قرد، وخرج ومعه سريّته من بين الحشائش على الحرّاس الثّلاثة، كلّ قرديْن على رجل، والحارسان اللذان كانا يتكلمان معًا، ارتعَدا في حضور القرود التي شغلتهما منذُ أن سمعا بها، واتبعا التعليمات وهُما في قمّة الارتباك لشعور كلّ منهما بأنّه في مواجهة اثنين شرسين من عالم الجنّ يحملانِ السيف، وأنّ عليه أنْ يهدأ ويخضع، ولا يثير حقدَ هذه الأرواح اللعينة. وفي نفس اللحظة، وضع كلّ منهما سلاحه، وتمدّد، ووضع يديه على صدره، دونَ أن ينطق بكلمة واحدة، ودونَ أن يمعن النظر في القرديْن اللّذين وقفا عنده، ودون أن يفكّر في زميليه، وفي نفس اللحظة قالا حباب حباب، وأغمضا أعينهما بكاملِ الثّقة في التّحذير الذي انتشر، فماتا بسلام على إثر طعنة قاتلة في العنق.

وقد كان الأميرُ أثناء ذلك مثل دجاجة في قفص تشاهدُ مذبح أخواتها، وتنتظر اليد التي تمتدّ إليها بالسكين، أمّا الثالث، فقد دفعته أحلامُ المجد، وخيالُه الحسّي الغليظ الذي لا يتصور العوالم الأخرى لمواجهةِ العفريتين المقاتلين، فقطع رأسَ أحدهما بضربة واحدة، لكن الثّاني قد طعنه طعنةً بسيطة في فخذِه فأربكَ الحارسَ قليلًا، وعندما أراد أن يكلّل نجاحه بقتل العفريت الثاني، كانت القرودُ الأربعة التي قتلت الحارسين قد اندفعت إليه لتساعد زميلها الباقي في المواجهة ولتثأر لمقتل الزّميل الذي راح في المواجهة، فوجد الرجل نفسَه في مواجهة خمسة بعيونها غضبٌ عارم وحقدٌ مخيف، تسعى لأنْ تحيط به كي تقضي عليه، فأخذ يلوّح بسيفه مذعورًا حتّى شقّ طريقه بينها، ثمّ رمى سلاحه وانطلق باتجاه الحي.

وقد وصل الرّعب بالأمير إلى درجةِ أنّه ودّ لو يحفر الرّمل في أرضية السجن ويدفن نفسه حيًّا. وعندما فتحَ الغجريّ القفل وهو يهنئه بالنّجاة، لم يفهمه الأمير، لم يكنْ لما سمعه أيّ معنى، وسارع بإلقاء نفسه إلى الأرض حتّى لا يثير غيظ العفريت الذي فتح القفل كما يفتحه البشر، وتصالبت يداه وهو يقول حباب حباب، فقال له الغجري: هذه ليست لك، قم يا أمير للنّجاة، ولمائتين وخمسين أوقية من الذّهب، وأقسم لك بأنّي لست قردًا، فقال الأمير بكلّ الرّعب، وبلهجة متوسّلة: أعرف، أعرف، حباب حـ.. وأغمي عليه قبل أن يكملها وامتلأ فمه بالزّبد، ووجهه بالمعاناة.

أخذ الغجريّ يضربه على وجهه وصدرِه ضرباتٍ متلاحقةً لعلّه يفيق، ويسحبه من لسانه، وهو يقول له: لقد تعبْنا كثيرًا يا رجل حتّى جئنا إلى هنا، وفعلنا الكثير، ولم يكن عليك أنت إلّا شيء واحد فقط: وهو أنْ لا تصدِّق.

ويئسَ الغجريّ، وتلفّت حوله خائفًا من أن تتكشف المكيدةُ العظيمة، فصفَّق للقرود، وخرج إليها، وأخرج سيفَ كلّ حارسٍ من الاثنين القتيلَيْن من الغمد، وقفل القفلَ كما كان، وقال للأمير الممدّد أمامه غائبًا عن الوعي: لا وفّقك الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الصّفير

استيقظ الأميرُ صباحًا بإلحاح الشّمس، وقد أثّر الرمّل على خدّه، ووقع بصره على بقعة مبللة من الرّمل من لعابه، ودونَ أن يعمل عقله، رأى الحقيقة تطلّ عليه قبيحة ومقزّزة، كأنّها فأر يرْنو إليه من بين هذه الأسياخ التي ينامُ ووجهه إليها؛ كان قد أدرك وحده، وفور استيقاظه، أنّه أفسدَ منذ ساعات قليلة في زرقة الليل حيلةً ذكيّة صنعها الجرو. ظلّ واضعًا خده على الرمل وهو يشعر بالحسرة والخجل والنّدم، وهو يحاول في ذات الوقت أنْ يغذّي ذاته الذليلة المحطمة ببعض الإطراء على أنّه فهمَ ما حدث، وببعض التّفاؤل بالواقعة الجريئة، متناسيًا مثل كلّ الخاسرين أنّ الفهمَ الذي تنحني له الحياة في الأزماتِ ومفترقات الطّرق هو الفهم في الوقت الصّحيح؛ وككلّ العاجزين، أوهمَ نفسه بأنّ الحيلة سيتمّ تنفيذُها مرّة ثانية بحذافيرها، كأن الزمن قد عاد إلى الوراء، وأنّ عليه- فقط- أنْ لا يصاب بالإغماء في المرّة القادمة، وأنْ يصدق الرّجل الذي سيجيء في هيئة قرد.

وقد تابع بقلقٍ شديد من سجنه مولدَ القصّة التي سيتمّ تداولها في الحي، خائفًا من أن يفطنوا إلى ما فطن إليه؛ لذا كانت عيناه تلعبان عندما كان ينظرُ إلى الوفد الأوّل والأخير القادم إليه من أجل تقصّي الحقيقة، مستعدًّا بأغلظ الإيمان لأن ينكر ضلوعه في الهجوم (الخسيس) لتحريره، ومستعدًّا بأغلظ الإيمان لأنْ يؤكّد أنّه يرغب أن يمشي من هنا بالطّريقة التي ترضي سادة الحيّ، وكان قد أعدّ كلمة فارغة ليحتالَ بها حتى يدفع أيّ تهمة عن نفسه في تورّطه في الهجوم: (الحرية ليست كلّ شيء).

وقد مرّت الأمور بسلام، فالوفدُ جاء بغير شكّ فيه، وطرحوا عليه أسئلة قليلة بسيطة، بلهجة لطيفةٍ بشكل واضح، وقد ذكر لهم ما شاهده في اللّحظات القليلة، وقال لهم إنّه سرعان ما أصيبَ بالإغماء من هوْل مشاهدته لأحد هؤلاء العفاريت وهو يمسك بالأسياخ متلهفًا للدخول عليه. وقد توافقت شهادته إلى حدّ ما مع شهادة الحارس النّاجي الذي قال عن صاحبيه القتيلين إنّهما اختارا مقاومةَ العفاريت؛ هذا لأنّ كلّ شيء حدث بسرعة البرق لدرجة أنّ هذا الناجي لم يقطعْ بما حدث، فرجَّح أنّهما أشهرا السّلاح ولم يستسلما ويرقدا، وقد كان وجودُ السّيفين خارج الغمد دليلًا قاطعًا عند مَن يستمعون إليه بأنّهما حاولا المحاربة بالفعل.

وشهادتُه بخصوص أنهم جميعًا قد اختاروا الحرب لا الاضطجاع وإلقاء السلاح، قد غازلت التوقّعات المغرورة لأهل الحي، فقد اعتبروهم قد تصرّفوا بما ربّاهم عليه الحي العزيز الذي يعيشون فيه، وبما تُمليه عليهم أعراف أسيادهم الشّهام. وقد تعامل هؤلاء المحققون البسطاء بأريحيّة مع فوارق في الشّهادتين، ذلك لأنّ رجالًا مثلهم يمتلكون هذا الحسّ القوي بالانتماء يترفّعون عمومًا عن ملاقاة روايات الانتصار من شهودها بعقول مرتابة موسوسة.

وقد غرق الحيّ في احتفالية غريبة عصبية، فوق دم اثنين من الحراس قد تمّ دفنهما بسرعة حتّى يتمّ دفن الخسارة المتكبّدة، وقد كان في السّعادة التي يشعرون بها شيء موجع، كان ظلّ الحقيقة المؤسفة التي لا يعرفونَها يخيّم على تلك السعادة. لقد آمنوا تمامًا بأنّ الحارس الباقي على وجْه الحياة، ثلث السّرية، والذي أصيب إصابةً خفيفة في منتصف باطن فخذه، قد قتل عفريتًا، واحتفلوا بكوْن رجلٍ منهم قد استطاع التصدّي لعفريت وأرداه قتيلًا، وقاموا بتخييط رأس القرد الطّائر في الرقبة وطافوا به الحي، وقد تسابق شعراؤهم غزيرو الإنتاج في مثل هذه الظّروف في التّعبير عن فخرهم بعشيرتهم

الغالية التي سئمت من قتل الناس فشرعت في قتل الجن؛ والمنشد ذو السّاق الواحدة، حكى القصّة بطريقة غريبة، وبتفاصيل باطلة، وجَمَله الذي يستندُ عليه وهو ينشدُ ويحكي، يتنسّم دخان الطّباق بتلذذ، وسمّى الحارس (ذبَّاح الجن).

وقد صفع الشّيخ جهير الحارسَ الأسود الطويل العريض على قفاه وهو يبتسم، كأسلوب خشن لتقدير عبد، ووضعَ على رقبته العريضة سلاسلَ من الذّهب والفضة، فيما كان الحارس ينظر للأمر بعينين سوداوين فيهما قلقٌ فطريّ من خطورة المجد، وتركه الشيخ جهير للناس يمشون به هنا وهناك وهو يبتسمُ ابتسامة ساذجة وفخورة، وخالية من أيّ شائبة حزن على الزميلين، ويمشي مشيتَه المتأثّرة بجرح فخذه كأنّه جريح ختان، وكلّما مرّ بناحية أخذه رجل من يده واخترع له مسارًا جديدًا، فتحرّك معه بطواعية ثور مستسلم لدوائر الساقية التي لا تنتهي، وهكذا أخذ يلفّ ويدور حول نفسه وحوله الناس، في احتفالات ليست بنفس الروح التي كانت عليها احتفالات النّصر بعد يوم الضّباب، كانت رخيصة وفوضوية، وكان الحارس الأسود المزدان بالذّهب والفضة يبدو في تماشيه وابتهاجه وقلّة فطنته؛ كما لو كان حيوانًا من حيوانات القرابين قد زيّنته جماعة وثنية قبل الذبح.

كان التّعليق الذي تردّد في ذات مصلح وهو يضحك ضحكة الإنكار هو أنّ هذا ليس صحيحًا، ليس صحيحًا. لم يقتنع بهجوم العفاريت، ولكنه لم يقدر على القبض على حقيقة ما حدث، ولم يعصر رأسه في التفكير فيه. وقد شعر وهو يشاهد الحارس يحمل الذهب والفضة ويخرج من كلّ ناحية وخلفه فوج الصائحين؛ بأنّ عباءة البطولة التي رموها على كتفيه في يوم الضباب، تكادُ تطير بعيدًا، مع رياح التّهريج، ولم يكن يتمنّى ذلك، لكن لم يكن يسيئه أن يحدث، لأنه يراها، تلك البطولة، جعلته قابلًا للابتزاز، خائفًا على السّمعة. ولم يستبعدْ مصلح، وهو يرى نظرةَ نكاية عابرة في زحام الحفل وضجيجه، من الشّيخ جهير؛ أن يكون الشيخ قد بالغ في تكريم الحارس، لكي يصرف بهذا البطل الجديد الأنظار عنه كبطل أقدم.

ولم يكنْ مصلح وحيدًا في شعوره بالغربة والقرف، الشّيخ غائب أيضًا لم يكن يؤمن بصدق الحكاية التي طار بها النّاس فرحًا، وهُم يرون عفريتًا على هيئة قرد ميّت محمولًا على ظهر بغلٍ أسود، وقد فشلوا في ضبط الرأس على الرّقبة بدقة، فبدا الرّأس مائلًا لليسار ولأسفل في الغرزات البشعة الغليظة، ممّا أعطى للقرد العفريت إطراقة نادم على تهوره، ويمضي وراء مَن اغتاله بعدّة أمتار، ويلفّ يمينًا ويسارًا مثلما يلفّ في غابة البيوت الخفيضة، كما لو كان يقودُ البغل بكلّ هذا الأسف، والحارس كان يلتفت وهو يزكّ برجله اليمنى قليلًا ليطمئنّ على أن جثّة العفريت مازالت تتابعه.

كان هذا الإسفاف، وكثرةُ الصياح، والمناخ الذي فيه شيء من الرّقاعة، وفوضى الاحتفال الذي استغنى فيه جهير عن الكبار فخرج مرتجلًا بعيدًا عن التقاليد الثابتة للاحتفالات التي كان يغلب عليها الرّصانة والحشمة، يبدو في عيني الشّيخ غائب كبداية لعهدٍ جديد يربط فيه جهير نفسه بالعامة مباشرة دونَ مجلس، ودونَ تسلسل، كلّ شيء هالك، إلّا العاطفة.

رأى الشيخ الحفلَ شعبيًّا ومنفلتًا كتلك الحفلات الارْتجالية التي تندلع فجأة في الساحات المفتوحة في المدن المزدحمة، التي يشعر فيها المحترمون بالغربة بين السوقة في يوم السوقة، وكان يقرأ خروج بعض الناس كلّ قليل من زحام الحفل على أنّه انسحاب، انسحاب من هؤلاء الذين شعروا بالنّفور،

دونَ أنْ يعبّروا عن هذا النفور، كنوع من التأدب مع الأغلبية الخطرة التي غازلها الشيخ وصفر لها، فهاجت كالذباب؛ ولم يكن الشيخُ على يقين وهو يراقب الناس ببصره الضّعيف إنْ كان ما يظنّه هو الحقيقة التي لن يسمعها من أحد، أم هوَ وهمٌ من أوهامه التي تلعب به.

لقد شعر الشّيخ غائب بالكثير من الألم والعار، وبالقليل من التشفّي، وذكّره الحفل الوضيع الذي يحفّ به من كلّ ناحية، بما شاهده في القاهرة مرّتين من قبل في زياراته القليلة، من اندفاع النّاس للشّوارع للتّعبير عن فرحهم الغامر والعبودي، بأيّ لمحة من الشجاعة أو النزاهة تظهر في قرارات الحاكم، ضدّ عدوّ خارجي، أو ضدّ التّجار الجشعين، صادقة كانت تلك اللمحة أم مؤلَّفَة، تعبّر عمّا يعتزم عليه الحاكم أم هي مجرّد ترضية للخواطر، حتى لو كانوا قد باتوا وهم يشكّون من تعسف شرطته أو كثرة ضرائبه أو النّعيم الذي يرفُلُ فيه هو وأحبابه وقد تركهم جوعى. لم يكن الشّيخ غائب الذي زار القاهرة منذ سنوات طويلة بقادرٍ على فهم حبّ الرعاع المَرَضي لأسيادهم، وولائهم المتهتّك لهم، وها هو يطلّ بزاوية وجهه على بشائره الكَالحة من النافذة، ويسمع قعقعةَ الصّفيح والنحاس، وقد وصل أهله إلى منتهاهم في الإيمان بجهير، جهير الذي ركب الانتصارَ الوهمي بإلقاء السّلاسل، وتحرير العبد، ذلك العبد الذي سأله جهير أمام النّاس إنْ كان يريد شيئًا آخرَ غير الحرية؟ فدنا من الشّيخ بإجلال غامر، وهمس إليه يسأله، إن كان يمكنه، وهذا بعد أن ينتهى الاحتفالُ الليلة أنْ يطبخ القرد قبل أن يتغيّر لحمه؟

وقد كان الشّاب عارف الذي قطع الشّيخ جهير أصبعًا من كفّه اليسرى؛ حاضرًا في الاحتفال الفوضوي، مبتسمًا ابتسامة عريضة، وهو أكثرُ النّاس إيمانًا بأنّ ما يحدث هو التباشير العفنة للانْحطاط، على يد هذا السّيد المغرور، لقد نضج كثيرًا بفعل المرارة التي خلّفها عنده اجتثاث الأصبع، فصارَ يبدو أقلّ خجلًا وانطوائية عمّا كان عليه، وأكثر جسارة في التعامل مع الآخرين، وتخلّص من حرْصه المبالَغ فيه على أن لا يحرجه أحد، وإنْ كان في نضجه وميض مقلقٌ من الزّهو غير المبرر، مثل التّباشير الأولى للأمراض العقلية.

كان الشابّ يقنع نفسَه طيلة سنوات اعتقاله الأربع في الحي حتّى يدفع بعمره ثمنَ الناقة التي قتلها؛ بأنّ الأمور يمكن تحمّلها، وأنّه سيخرج منه بقصّة سيكتبها كتلك القصص الأوروبية التي طالما سحَرَته، وأنّ هذه المعاناة الشّاذة التي حلّت بحياته هي في سبيل إعداده روائيًّا عميقًا يتفجَّر فيه الإبداع من وحي شرخه، لكنّ صبره قد تبدّد مع البتر؛ لم يستطع أن يؤمن بأن هذا البترَ ثمنٌ لأيّ شيء على الإطلاق، وعليه عادَ لتفسير ما مرَّ به خلال السّنوات الأربع على نحْو متشائم، ومجمل هذا التّفسير أنّه إنسان منكوب لا ينتظره أيّ تعويض، أو حتى تفسير جميل مؤجّل للنكبة العريضة.

تحمَّل ضياع أربع سنوات من عمره، لكن لم يتحمّل فقْدَ أصبع؛ كان يمكن التّحايل على معنى الأيام، حتّى يمكن أن يقال إنّها بلا معنى، لكنّ الأصبع محسوس، وغيابَه هو نقصٌ لا يمكن التهرّب منه؛ لذا كان يتمنّى، عندما كان يشعر أنّ أصبعه الذي لم يعدْ له وجود يأكله، أن يجد أيّ وسيلة للانتقام من هذا الشيخ، حتّى لو كان انتقامًا رخوًا وضعيفًا مثله، بل هو يريد أن يكون الانتقام رخوًا وضعيفًا وظريفًا كأنّه نوع من التّأنيب لا أكثر. كانت ترعبه فكرة أن يطير مِن هنا قريبًا مثلَ ريشة ليهبط في عالم حقيقي بهذه العاهة المستديمة، ويُنسَى هنا تمامًا ولا يُذكَر في أيّ حكاية.

لقد شعر أنّه لا يوجد أيّ تعويض ينتظره من الأيام بعد حياةٍ سافلة وعريضة كمخطوف لم تقبل توسّلاته، مخطوف رضخَ في النّهاية للحكم الجائر ولم يحاول الهرب، مخطوف وصل بعد مرور عدّة أشهر على مكوثِه في هذا الوضع المهين، وقد تعوَّد كالصقر على حياة الأسر، إلى أنّ الحي هو الواقع والقدر، وأنّ الهروب الذي بدأ يصير فرصةً متاحة، هو الغيب المخيف. وما أجَّج شعورَه بالخسارة، هو أنّه أشعل مصباحَه في مثواه الضيق الذي اختاره لنفسه في منْجم الملح، وأخذ وهو ينظرُ للفراغ الذي خلّفه الأصبع، يحاول كتابة قصّته بافتتاحية قوية قبل أنْ يغادر هذا العالم الغريب المنعزل، لينهل من إلهام المكان قبل أن تتبخّر الصور. واستمر أيَّاما على هذه الحال، ينظرُ إلى الحي من عدّة زوايا، ويتفرّس في وجه سيده، ثمّ يعود ويشتم الرّائحة الزّاخرة للملح، ويتوسَّل إلى أيامه الماضية في بقعة الضّوء الكهرماني، فصدم بأن التّفاصيل تهرب منه، وتلاعبُه، وتهزأ بتصفيره لها، وتختبئ منه، مرّات ومرّات يكتب، ويندفع في التّدوين اندفاع المحموم، ليحقّق كنزه، كنز الرّواية، لكن كان يجد في كلّ مرّة أن كلّ ما عاناه لا يريد أنْ يتجاوز العشرين صفحة مع تنميق الأسلوب؛ هذا الذي يرزح تحت وطأة الشّيخ الرهيب، وبقي له القليلُ في عالمه المقبض، اكتشف أنّ قصّة آلامه العظيمة ومكابدته وحظّه العثر، ترزح تحت وطأة الاختصار، وربّما للأبد.

ومثْلما شعر مصلح برغبةٍ قويّة للّجوء للحبّ عندما تشكّك في بطولته وفي رشد الجماعة، شعر عارف بذات الرّغبة عندما تشكّك في قدرته على إثبات ذاته، وعلى الانتقام الإبداعي ممّا حدث له؛ والأمر صعب بغير شكّ، ولكنّه ليس مستحيلًا، فالأجواءُ فوضى، وهو في النّهاية في أعين النّاس هنا يظلّ أمامهم أرقى قليلًا من عبدٍ صريح، وأحقر مِن أن يثير التفات شابة من بنات الحيّ، وأجبنُ من التفكير في ذلك؛ بسبب ظلّ العبودية الملقى عليه لا يشعرون بخطورة لباقته وحسن مظهره ورهافة حسّه، ولا بخطورة تعليمه الذي يتفوّق به عليهم جميعًا.

وقد كانت غروب في أمواج الحفل، تدور مع دوائره، تتابع ما بين المضيّ خلف العبد الذي يلمع في الفضّة والذهب، وبين المضيّ خلف القرد بخيوط رقبتِه البشعة، وكان على رقبتها، كما عادتها، الوشاحُ الذي تعقده على جانب الرّقبة ليتدلى طرفاه على كتفها من تحت غطاء الرّأس، كأنّ هذا الوشاح علامةٌ تؤكّد بها هذه الفتاة التي ضاعت بين الأجيال على أن وجودها حقيقيّ، وأنّها ليست شرودًا حزينًا لشخصية لا وجود لها، كانت مثل عارف، إنسانًا يخاف من النّسيان.

وبدافع من العاطفة التي فيها شيء من نزوة الانتقام، نزوة الانتقام التي يسيل لها لعاب الإنسان أحيانًا ضدّ مَن يشبهه في الشّقاء، وبدافع من حنان غامض؛ شعر به تجاه هذه التعسة التي تكبره بسنوات، نظرَ لها هذا الفاشل في كتابة القصّة، بذلك القدر من الشّجاعة الذي يظهر في الأيام الأولى على مَن تحطّم أملهم، وابتسمَ وتمتمَ بشفتيه، وأمال رأسَه تعبيرًا عن أنّها راقت له، فالتقطت هذه الإشارة النّادرة التي لم تلتقط مثلها من قبل، وثبّتت نظرها عليه بطريقة مباشرة وصريحة، حتى لا يبحث عن غيرها في هذه الوفرة، وابتسمت ووجهها ملثّم من تحت أنفها، وتمتمَتْ بفمها المدثر، كما يتمتم الفلكي للكوكب الذي وجده بغتةً بعد أن أنفق عمره في التفتيش عنه في زرقة الكون المديدة.

لقد كانت غروب متعَبَة، وقد استهلكت في خيالها في السّنوات الخمس الأخيرة نصف رجال العشيرة، من الشّباب والشيوخ، حتّى الشّيوخ كانت تتخيّلهم وقد ماتت زوجاتهم وتقدّموا لها، وتأسّفوا في رحاب صدرها الحنون وهُم يسْعلون؛ على العمر الذي ضاع مع الراحلات العجفاوات أو السّمينات، أو

المتقوّسات الأرجل، حتى الشيخ غائب نفسه مرّ سريعًا عبر غيمة من غيمات الطموح الحزين، وأحمد بن جهير عبَرَ بروح تتّصف بالجسارة والقسوة المثيرة وتخلّص من رهافته وأنثويّة نظراته، حتّى مصلح نفسه حبيب صاحبتها اجتاز في شعاب أحلامِها المربكة بطريقة مباغتة وطاغية متخلّيا عن صمته وخجله، ممّا جعلها تتهرب من ملاقاة ثريا لستّة أيام من فرط شعورها بالخجل من تلك الخيانة اللا إرادية في الأحلام المتبجحة الاحتجاجية.

وأخذَ عارف يلاحقها بابتسامته، يريد أنْ يجهِزَ عليها بحبّه، وأخذت هي تتلفت، وتستغل أيّ مجالٍ يموه على انجذابهما ويستره عن أخبث الناس نيّة، لتنظر بعينين ثابتين مليئتين بنور كنور الضّراعة، بدون خوف من الملاحظة، وبدون خوف من الأيام، فنظرت إليه طويلًا بالنّهار وقد تملّكتها سعادة فردوسية، خلال السّيل الحالم المنهمر من التمور التي يرميها الناس لأعلى، وكانت تشعر أنّ التمور تهوي إلى الأرض ببطء، بما يليق برقّة الأشياء في عالم الحب والحبور، ونظرتْ إليه طويلًا نظرات إنسانة يشتعل جوفُها بالجزع، كإنسانٍ شرقي لديه خوف أصيلٌ من الفراق، وقد كان هذا قبيلَ الغروب، من خلال الدّخان الصاعد من قدر نحاسية ضخمة وقفت عجوز أمامها تطبخ للمحتفلين على نار الحطب وهي تقلب الطعام بالمغرفة، واستغلّت مبارزة ليليّة بالسّيف بين شابّين، وادّعت التّحفز والفضول، لكي تنعم برؤية وجهه كما يحلو لها، بهيًّا في شرر المبارزة. ومع ذلك، كانت أحيانًا ما تنظر إليه نظرات جادة مستفسرة، تشبه نظراتِ الغضب، بكلّ ما لدى إنسانة في الثلاثينيّات من عمرها من شعور بالمسئولية عنِ العاطفة، فكان يرتدّ مع هذه النظرات صغيرًا مهزومًا، ومستاءً، فتلحقه مرّة أخرى بنظرات مرحّبة، ومتوسّلة؛ لشابّة على وشك البكاء تحت وطأة ما لديها من عاطفة وعقَد، فهي- أخيرًا- أمام الرجل الذي ميَّزها في الزّحام، وكانت تعاني من أنّه لا أحد يميزها حتّى لو خلا الطريق إلّا منها. وفي نهاية الحفل، مضت إلى بيتها وهي سعيدة بنفسها، أكثر مما هي سعيدة به، وفي داخلها خصامٌ للزمن؛ لأنّ الشيء الذي انتظرته طويلًا، وأتعبها كثيرًا، حدثَ بالسّهولة الشّديدة التي تحدث بها الأشياء كلّ يوم، بغير زخم القواعد المرعية التي وضعتها للحياة العاطفية الذي كانت تغرق فيه، كان أسهل من تثاؤب كلب، فلماذا إذًا لم يحدث منذ سنوات؟ ودخلت إلى غرفتها واحتفلت بما حدث بالطريقة المعهودة على مَن تحقّق لهم شيء متأخّر جدًّا: نامت نومًا عميقًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الضلالة

وقد أمر الشّيخ جهير في الليلة الأولى أنْ تظلّ الاحتفالات بمقتل العفريت ثلاثة أيام، وكان يحيط نفسه وهو يقول ذلك برجالٍ آخرين من وجوه العشيرة، غير هؤلاء المعتمدين الذين يبجّلونه في مجلس المشورة، رجال قد فقدوا عقولهم فيه، ويحبّونه أكثر ممّا يحب نفسه، ويضطربون أثناء تعبيرهم عن أفكارهم أمامه، فأحسّ بينهم أنّ هذا التبجيل الذي يحفه به الكبار المعتمدون في مجلس المشورة لم يعدْ يكفيه، وأحسّ بالمتعة كلّما لاحظ بطرف عينه واحدًا منهم غائبًا في الزّحام لا يشعر به أحد. وقد كان هناك مَن لا يصدّقون ما حدث، ولكنهم تكتموا فرادى ما لا يؤمنون به، لأنّ أغلب الناس مِن حولهم قد عبّروا عن إيمان عميق ومضحك بأن ما على ظهر البغل هو عفريتٌ مقتول بالفعل، وسيكون التّشكيك في صحة هذا الانتصار هو خيانة في نظر تلك الجموع.

وفي اليوم الثّاني، تغيّب معظم العفريت عن حضور الاحتفال؛ لأنّ الحارس الأسود قد طبخه، وقد ترك لهم رأسَه فحنّطوه بسرعةٍ بالملح والصّبار، وثبّتوه على خشبة فوق البغل الأسود، ليظلّ القرد نادمًا حتّى بعد أن صار بغير جسد.

وغروب التي استمرّت في أوّل يوم، ولمدّة عشْر ساعات، في تبادل النّظرات مع عارف حتى نامت وقدماها متورّمتانِ قليلًا، قد قرّرت وهي في طريقها للحفل في اليوم الثّاني أن تكون أكثر رصانة، وأنْ تعطيه القليلَ من النّظرات مقارنة بالأمس، حتى يظمأ إليها ويجن بها، كلّ هذا وهي تعرف بكلّ أسف أنّ هذا الإعجاب لا طائل منه، فمِن شبه المستحيل أنْ يزوّجوه منها؛ وهذه النّصيحة، نصيحة التمنع، بالطّبع ممّا اختزنته من تعايش قوي مع القصص العاطفية منذ خمس عشرة سنة. وقد فاجأها الشّاب عديم الخبرة بأنْ لم يظهر في الحفل في اليوم الثاني على الإطْلاق، حتّى كادت تبكي، واكتشفت في بكائها أنّ العطش العاطفي يقف بها على حافة الجنون. انتظرتْه لساعتين، ولمّا لم يظهر عادتْ لبيتها مُغتاظة، وأخذت تذمّه وتقول لنفسها إنها رضيتْ بالهمّ ولم يرضَ الهمُّ بها، وتذكّرت بأقصى ما استطاعت من شماتة اندفاع ثريا في إهانة مصلح، وعزمت على أنّها ستنهش هذا الشّاب بكلمتين عندما يمرّ بالقرب منها، ليعوي منهما سائرَ يومه؛ غير أنّها هدأت بعد وقت، وغسلت وجهها، وتحسّست طرفي منديلها، ورجعت إلى موكب الحفل بسرعة؛ لأنّ شغفها جعلها تعتقد أنّه حضر، وانتظرته هناك ثلاث ساعات وهي في قمّة البؤس والانهيار، وكان عليها أن تعبّر عن السرور كالذين من حولها، بينما هي في قمّة القلق والافتقار إليه، تتلفّت وتنتظر ظهوره من كلّ ناحية وهي تصفق، تردّد الأهازيج وهي لا تسمع ما تقول من الهمّ، ثمّ عادت لبيتها وهي لا تردّ حتّى على السلام من المارّات بها، وكانت تقول لنفسها: أنا مسكينة جدًّا.

في حفل الختام باليوم الثّالث، ظهر بالليل، وتنفّست الصّعداء عندما رأته ينظر لها ويبتسم، فابتسمت له ونظرتْ بعينين لائمتين، فأخفض رأسَه كمَن يعتذر، وقبلت اعتذاره بطريقة أموميّة، وظنّت أنّه من المناسب لمَن كانت في مثل عمرها القليل من النظرات الطيبة، أمّا تبادل النظرات لمدّة عشر ساعات كاليوم الأوّل؛ فهذا مُهين بشكل ما، ويورث شعورًا بالضياع من بعد ذلك.

لقد غاب عارف متعمدًا حتى تظلّ متأجّجة به، وقد نجح، وهي رضيتْ له بهذا الانتصار عليها دون أيّ خبرة. وقد ترك رسالة مطويّة بين ورقتين من أوراق التّين الشّوكي وهما يدوران مع الموكب

الفوضويّ الذي يتقدّمه العبد الذي لم يتلق العلاج لجرح فخذه فصارت مشيته في اليوم الثالث واضحة العرج.

مصلح الذي كان يرفض الحفل، كان يمرّ رغم ذلك بسرعة باحثًا عن ثريا خلال الأيام الثلاثة، تاركًا في البيت سلطانة التي لا تحبّ الشّيخ جهير مثل أمّها، ولا تحبّ احتفالاته، والتي لم تفعل شيئًا سخيًّا منذ أنْ وضعت الكمّادة على عينيه. كان مصلح يمرّ مرورًا عصبيًّا، وهي ثريا كانت تبحث عنه أيضًا بسرعة، ولكنْ في مواعيد مختلفة، وبعيدًا عن غروب، لعله يظهر وتعتذر له بعينيها عن كلامها، وربما تفعل فيه هذه الفوضى شيئًا، وتحرّكه إليها كما يصيب بعض الناس الهوسُ في الأفراح. وعندما قرّرت الانسحاب بيأس في ليلة الختام، وهي مشدودة إلى منظر القرد المهزوم، السّائر في مسار مفروضٍ عليه، غارقًا في الضجيج، وهو لم يعد إلّا رأسًا فوق عصا، وجدت فارسها أخيرًا، غير أنّ ظهره كان لها وهو ذاهب في اتجاه السجن كما اعتادت قدماه، فتمتمَتْ باسمه وقد كانت تودّ أن تصرخ به كي يلتفت، وينجدها وينجد نفسه، ورجعت لبيتهما منهزمةً مثل أرملة فشلتْ في الاقتراض. وقد كان أحمد بن جهير أيضًا ينسحب بانسحابها وهو يكاد يبكي، لأنّه قد تعشّم في جوّ الحفل المرتبك وغير التقليدي أن تنسى نفسها وتضحك في وجهه، ولكنّها رأته وكأنّها لم تره، مضى وهو يعاني من صقيع رحيلها، ويمنع روحه التي تودّ أن تذهب خلفها.

وبعدما انتهى ضجيجُ الحفل في الليلة الأخيرة بقليل، وانطفأت كثيرٌ من الشّعلات والمواقد، وخيَّم شيء من الغمّ والنّحيب الصّامت على أنحاء الحي، كان مصلح مستندًا برأسه على الأسْياخ مُحبطًا مهدودَ القوى، كأنّه هو الحبيس، والأمير يستمع إلى مقدّمات البوح وهو يخاف أنْ يقول الشّاب شيئًا باهظًا كما توحي هيئته المعذّبة، ثمّ يندمُ من بعد ذلك على ما قال، لذا كان يحاول أنْ يبدو غيرَ مكترث كثيرًا بالاستماع إلى مصلح، الذي كان يهمس بنبرةٍ حائرة بأنه لا يدري حقيقةً ما فيه، إلّا أنّه يشعر بشيء يبرعم في أعماقه مثل زهر الخزامى؛ وأخاف أن أرعاه يا أمير الشّهوب، ثمّ تحرقه الشّمس، وتقذفه الريح، هل تفهمني، أو هل جرّبت شيئًا مثل هذا مِن قبْل؟ هزّ الأمير رأسه نافيًا وهو يشعرُ بالقلق، فأكمل مصلح كلامه: إنّ البرعم إنْ مسّته يدٌ حانية، ينفتح، وينتعش، ويشعر بالامتنان، وعندئذ يكفيه النّدى، غير أنّه مسكين، لا يتحمل الهجر.

أخاف أنْ أجعلها تعشم بأنّي لها وحدها في لحظة شوقٍ عمياء تجتاحني، وبيني وبينها ستر ليل، وخطوتان، ثمّ أتغيّر، ربّما بعد شهر، أو بعد سنة، أخاف أن يحدث ذلك، وأتوقّع أنّه سيحدث، وقتَها هي لن تتحمَّل؛ مثلها مثلَ البئر التي تركناها فذهب ماؤها، وأنا لا أحبّ أنْ يذبل أحد بسببي، ولا أخفي عليك خوفي في ذات الوقت من أنْ يكون هذا الذي أفكّر فيه لا يخطر لها ببال، فتصدم في ذلك العطش الذي ألمَّ بي تجاهها، وتعتبرني متهجِّمًا على هذا الهيكل الذي ترفرف فيه روح أخي.

فقال له الأمير بنبرةٍ فيها شيء من التردّد، تعقيبًا على ادّعائه أنّه لا يحبّ أن يتسبّب في ذبول أحد، إنّ ثريا قد ذبلت بسببه، وإنّ عليه أنْ يتذكّر ذلك ولا ينساه أبدًا. وهزّ مصلح رأسه مُعترفًا، وسكتَ الأمير قليلًا ثمّ قال: كأنّي فهمت من كلامك أيّها الشّاب أنّك تتحدث بهذا الاحتشام عن امرأتك، وكأنّي فهمت أنه ليس بينكما.....

أشار له مصلح راجيًا أنْ لا يقول شيئًا، وسكتا طويلًا، وكان يصل إليهما صوت عزيف الرمال الذي يشبه أرقّ الأرواح، ثمّ وجد نفسه ودونَ أيّ فضول من الأمير يفتح شبّاك الذاكرة على مهل، ويفسح له ليطلّ معه: في ذلك اليوم الذي غيّر حياته، كان عند سلطانة وأمّ سلطانة في البيت، وفي يده فنجانُ قهوة ووجهُه للأرض، والأطفال حوله يتمسّحون فيه وهو يربّت عليهم، والجوّ فيه بقية كريمة من بخور الحزن، والمرأة العجوز ضعيفة البصر، والتي تنظر للآخرين برفع ذقنها لأعلى، المعروفة بالصراحة، كان يبدو عليها أنها تعدّ له سهمًا من سهامها.

- رحم الله أخاك، كنت أعتبره ولدي وليس زوجًا لابنتي.

ازدادَ وجوم سلطانة، وانتقل الوجومُ منها لأطفالها الثلاثة، تبادلوا النّظرات بينهم، وكل منهم مشفقٌ من حزن الآخر.

- وهو كان يمدحُك يا خالة في ظهرك، ويعتبرك أمّه.

- هل يصدّق أحدٌ يا ولدي أنّه مرّ على موته ستة أشهر؟! رحمك الله يا عبيد.

ومرّ وقت قليل من الصّمت، قطعته المرأة بجسارة العواجيز الباردة: (ترك عندي رايبًا مكشوفًا).

فأصاب الذّهول سلطانة وانسحبتْ إلى غرفتها وهي تدبّ على الأرض مثل طفلة محتجّة: يووه يا أمّاه.

أمّ سلطانة: اسكتي... وجع.

وانسحبَ الأطفال بعيون تخاصم الجدّة، رغم أنّهم لم يفهموا سبب احتجاج أمّهم عليها، ولم يفهموا ما قصّة هذا الرايب المكشوف الذي تركه أبوهم. وبعد شيء من الصّمت الذي كان البردُ يعتري فيه جسم مصلح من المفاجأة، حاولتِ العجوز مرّة أخرى أن تثير فيه النخوة: (أخوك ترك عندي رايبًا مكشوفًا).. هل تغطّيه أم تتركه؟

بعد شيء من صمتِ رجلٍ متفاجئ تمامًا، وبصوت ديكٍ صغير مبحوح: أغطّيه.. أغطّيه.

- متى يا مصلح؟

- بالمهل، فأنا لم أكنْ أتوقّع.. قليلًا من الوقت.

- إلى متى هذا القليل؟

فقال متوتّرًا: يا خالة، بعض الصبر؛ كي أجهّز نفسي، أنا لست مستعدًّا.

أشارت بهزّ كفّها وهي مقلوبة، ما يفيد الفهم والاستيعاب: فهمتك، فهمتك، ليس عندك الآن فرش ترميه عليها.

تلقّف الحجّة التي منحته إيّاها: هو هذا، فتح الله عليك.

- خيرًا؛ خذْها بيتك ويغطيها كمُّها.

وضع مصلح يدَه على كتف الأمير الذي استغرب القصّة؛ وقال: ومِن يومها، ولهذا اليوم، لا أدري إنْ كنتُ عند سلطانة، وأمّ سلطانة، قد غطّيت الرّايب أم لم أغطه.

عندما عاد أحمد بن جهير إلى البيت كئيبًا، فهمت أختُه الرقيقة سببَ اكتئابه، واختارت بعد تردّد أن تلومه على مطاردته الأخيرة الصباحية البائسة المكشوفة عند السّد، عندما رجع من السّفر، التي بدا فيها كطيفِ ميت، فقد تكلّمت عنها إحدى بنات عمّها من باب الغيرة على بيت جهير، وألمحت إلى أنّها لم تكن المرَّة الوحيدة التي يبدو فيها ابن العمّ ملهوفًا. دخلت عليه غرفته، وبعد القليل من المقدّمات المحرجة، لامتْه، قالت له إنّ له أنْ يحبّ هذه الثريا أو لا يحبّها، لا أحد له أنْ يلومه على ما في قلبه، ولكنْ عليه أن لا يتابعها في الطّرق. بالطبع كانت حجّته الأولى التي قالها بلهجةٍ هزيلة أنّ هذا كان من قبيل الصّدف، كانت حجة غير مقنعة، ثمّ بدأ ينفتح معها عندما ذكرته بأنّها أخته، وأولى النّاس بستر ضعفه، وانخفض رأسه على الوضع المناسب للاعتراف، وبدأ بالدّفاع عن نفسه، فهو لم يتخطّ حدود الحشمة، ولم يقطع طريقها، ولم يبعث لها برسالة مع أحد، ولم تسمع ثريا منه كلمةً واحدة من كلام الغزل، لم يفعل ذلك، ولم يقدر عليه.

ولم تتركْه أخته إلّا بعد أنْ وعدها وهو مجبَرٌ بأنّه من هذه السّاعة لن يطاردها، ولم تكتف بذلك التّنغيص، بل عبرت له في معرض حديثها معه عن ظنّها في ثريا هذه أنّها شابة قوية ومغرورة، وهي ربّما بحاجة إلى رجلٍ تطارده ويتعبها برصانته، ويعجبها باعتزازه بنفسه؛ وكانت هذه الكلمات التي تقولها وهي لا تلقي لها بالًا، والتي يفتقد معانيها تمامًا؛ تعمل فيه كالمشرط.

وهو لم يتركْ أخته في المقابل إلّا بعد أنْ وعدته بأنْ تأتي له بمكنونها؛ فقد قال لها وهو يقاوم الشّعور بالإذلال، إنّ بعض الناس يهمسون، وهم كما تعلمين لا يتركون أحدًا في حاله؛ ثمّ سكتَ وقد وقف الكلام في حلقه وانتفخ به وجهه، فشجّعته على الإكمال، فقال وقد اغرورقت عيناه بالدمع، يهمسون بأنّ بالها مشغول بمصلح العرقوبي.

كان من الواضح على ملامحها أنّها تعرف ذلك، ولكنّها اختارت أن تماشي أخاها في بوحه، فعبّرت عن استغرابها الشّديد: هذا الذي تزوّج قريبًا من أرملة أخيه وجعله أبوك بطلًا؟! فهز رأسه، فأظهرت امتعاضَها، وقالت له ألا يكفيك أنّها لا تهتمّ بك، وتريد أن تزيد وجعَك بأنْ تتأكّد تمامًا من أنّها تهيم بشابّ متزوّج، ناسيًا مَن أنت ومَن أبوك؟

يغمض عينيه ويفتحهما ويقول إنّ الأمر ليس بيده، هو يعرف أنّه ابنُ كبير العشيرة كلها، لكنّ قلبَه يغلبه، ويصحو، أوّل ما يصحو، على طيْفها، كما أنه ينام، إنْ نام حقًّا، على طيفها، وكلّ ما صدَّته وتجاهلته تعلّق بها أكثر، وهو يتمنّى لو امتلك الشّجاعة، وخلت الطرقات إلّا منها ومنه، ليقول لها سوَّدتِ عيشتي بلا أيّ ذنب، فقدّمي لي معروفًا، إمّا أن تحبّيني، أو تقولي أين رميتِ السّحر الذي سحرني إليكِ.

كانت عينُ هند قد دمعت بعد أنِ انفعل أخوها أحمد، وغفلَ عن التّماسك الذي كان يحب أن يتحلّى به أمامها كأخٍ أكبر لها، وفرَط أمامها، ببطء، وبالقليل من الخجل، حبَّات ضعفه، ثمّ وضعَ بصره على الأرض في نهايات بوحِه وطلبه للعون.

ثقيل على نفسي جدًّا أنْ أحكي لك هذا، فنقومُ من جلستنا تلك وقد كسبت كل شفقتك، وفي ذات الوقت سقطت من نظرك، أنا يا هند مريضٌ بها، وهي علاجي، وأحيانًا ما أظنّ أنّ أحدًا أحب أنْ يلعب بي أو يقتصّ فيَّ من أبي فسحر لي حتّى أعشقها فيصيب الفساد حياتي التي لا يحول بينها وبين أنْ تكون حياة راضية إلّا هذا العشق، العشق الذي جعل منها سحري ورقيتي.. ساعديني يا هند قبل أن أموت.

ظنّت أخته التي تحرّكت كلّ عواطفها عليه أنه يريد منها أن تصارحها، وهي مهمّة بدت لها بسيطة، ويمكن إنجازها بغير ترتيبٍ كبير، فهزّ رأسه ناهيًا، وهو يشارف على البكاء، وأصبح صوتُه يخرج بصعوبة، ويبلع ريقَه كثيرًا؛ لا يا هند، لقد قلّلت قدري فيها، ولن أتسامح في قدْرك، فهو الذي تبقّى لي ولك، فدعينا نحفظه.

فأعادتِ التّأكيد عليه بسهولة المهمّة، فحدَّق في وجه أخته، وسألها وهو يبتسمُ ابتسامة إعجاب كأنّها فلتت من محموم في هذيانه، هل حقًّا تستطيعينَ أن تكلّميها ببساطة، فهزّت رأسها باستهتار. كان مُعجبًا باستعدادِ أخته للتّعامل مع ثريا بكلّ هذا اليسر، كأنّها، تلك التي استولت على روحه، وارتجفت بها جوانحه؛ مثل أيّ إنسان له ظلالٌ على الأرض، بينما يهيّأ له أنه لو وقفَ أمامها لملأت الأفقَ أمامه، وأخذت بنصف أنْفاسه، وخشعت من حضورها عمامته المرسلة، ولم تستجبْ للهْو الرياح.

إنّك يا هند، لا تعرفين بعد كلّ ما قلته لك كيف أنّ حبّها ورطة، وأن ليس عندي قوة على تحمل أنْ ترفضني بهزّة رأس هي كلّ ما تردّ به بعد كلّ هذا الويل، وأنا أخمّن للأسف أن هذا سيكون ردّها. في حدود طاقتي، لا أبتغي الآن أكثر من سرِّها: هل هي تحبّ مصلح العرقوبي أم لا؟ لأنّ الحقد يا هند متعِبٌ ونفيس، ولا أريد أنْ أنفقه هباءً على رجل لا يستحقّه، فإنْ كانت تحبه، حقدت عليه بعناية وصبر، وإلى الأبد.

عبّرت أخته عن الصّعوبة الشّديدة في سؤال آنسة إنْ كانت تحبّ شابًّا بعينه، ويزداد الحرج بسبب أنّه متزوّج، فطلب منها أنْ تستدرج رفيقتها الخفيفة غروب العميمية وتهاديها هدية، وتسألها إن كانت صاحبتها لا تزال تحبّ "مصلح" أم أنّ هذا لعب طفليْن بريئين لم يعد من الجائز التحدّث بشأنه؟ فلو كانت خالية القلب والقصّة قصّة طفلين وانتهت؛ بقِي عندي أمل.

هند: ولو كانت تحبّه؟

أحمد: بقِي عندي أمل أيضًا.

فنظرتْ له بإشفاق وتعجّب، ثمّ رمت نظرها بعيدًا عنه، تحاشيًا لما لا ذنب لها فيه، وهو الشّعور الذي خيّم بأنّه تقبَّح أمامها في ظلال الحبّ المريض.

عندما التقطتْ غروب رسالةَ عارف من عند شجرة التّين الشّوكي ووضعتها في جيبها، كانت ناسية تمامًا أنّها لا تجيد القراءة، شعرت أنّها بالطّبع ستفهم ما يريد قوله، متغلّبة بالحبّ على غطْرسة الهجاء. أمّا هو فقد كان متأكّدا من أنّها لا تجيد القراءة بالعربية، ومع ذلك أرسل لها تلك الرّسالة بالإنجليزية، ولن يستطيع أحدٌ من الحيّ أن يفكّ طلاسمها إن وقعت بيده، وهو يعرف أنّ مَن تحبّ حقًّا يكفيها ورقة، وهي تتكفّل بالفهم، فالشّوق خير مَن يقرأ الخطابات العاطفية. كانت اللّغة الأجنبية بالنسبة إليه هي المنطقة المنزوية التي سيأخذها فيها وهو آمن تمامًا من أن يضبطهما أحد فتحدث

كارثة، ومن حُسن حظه أنّها قوية الخيال بشكل مخيف، وكذلك قويّة الذاكرة، بالإضافة إلى أنّ حياتها فارغة ورطْبة، مثل مخزن مهجور، لذا وضعت شرطة واحدة على الخطاب، أيّ علامة على أنّه الأوّل، وتخيّلت ما كتب فيه، وحفظت هذا الذي تظنّ أنّه كتبه عن ظهر قلب، كلمة كلمة؛ وعلى الخطابات التّالية ستضع شرطات أخرى وتتخيّل ما كتب وتحفظه، بحيث أنّها ستتمنّى لو أتاح لها الزّمن فرصة نادرة أن تقابله للرد على استفساره في الخطاب الأوّل عن حقيقة مشاعرها، وأن تقول له إنّ فقده لأصبعه لا يفرق معها كما سألها في الخطاب الثّاني، وأن تعبر عن استيائها بدلال من تهوّره في التعبير عن العاطفة في الخطاب الثالث.

لم تكن غروب وحدها قويّة الخيال في الحي، ولا وحدها يمزّقها العجز عن العبور، فعندما كانت تمرّ بعينيها على أسطر الرّسالة الأولى المكتوبة بحبر التّوت للمرة العاشرة، وذلك في الليلة التّالية لليلة ختام الحفل الذي يتقدّمه عملاق أسود يحمل السّلاسل، كان الشيخ غائب يحلم وهو يقظٌ بأنّه يفتح سجن الأمير، فيخرج إليه المسكين وقد أوشك أن يفقد رشده من الفرحة، ويرتمي في حضنه باكيًا، وكان مصلح ينظر من الكوّة الصغيرة إلى أضواء الخنافس، ويتخيل زوجته وهي تبحث عنه في غرفته المظلمة وقد غلبها الشوق والأرق، وذلك الكسل الذي يسيطر على امرأة بشَّرتها غريزتها بأنّها على وشك أن ترتوي من الغرام، وكانت سلطانة على بُعد أمتار قليلة منه في غرفتها، تكنس الأرض وهي تصدر الأنفاس العجيبة مثل أنفاس الفرس عندما تعدو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خمسُ عشرة أوقيّة من الذهب

في الواحة، ورغم أنّ عملية التّحرير لم تكلّل بالنجاح، إلّا أنّ الشّيخة شمسة وأقاربها الثلاثة رضوا بما حدث واستبشروا به، فرغم أنّ التّدريب كان مثمرًا وينبئ بأنّ احتمال النجاح كبير، إلّا أنّ الشّيخة كانت في وقت التنفيذ تفرُك يديها من الذعر في البستان الذي انتظروا فيه الغجريّ مرّة ثانية، خائفة من أنْ يأتيها خبرُ مقتل الأمير أثناء عملية التحرير، ولأنّها خافت من مقتلِه حتّى سيطر عليها هذا الخوف دونَ المحيطين بها، عبّرت عن ندمها على أنّها وافقت على الخطّة، من أجل هذا رضيت بأنْ عاد الرّجل من غيره طالما أنه بقي هناك سليمًا وعلى سجنه قفل مغلق، ولا يشكّ الناس هناك فيما حدث، ولن يعاقبوه على موت الحارسين، واعتبرت أنّ هذا جيد جدًّا.

لقد شفي غليلها خبرُ قتل حارسيْن من ثلاثة، مقابل خسارة قردٍ واحد، وكانت تسمعه من الغجريّ وتطلب أن يعيده على مهل، وهي تهزّ رأسها وتعضّ على شفتها كأيّ رجل متعصب يسمع عنْ مجزرة في بيت أعدائه، وإنْ كان يحزّ في نفسها أنّ زوجها عجز عن أن يكون في مستوى الفرصة الرائعة.

لقد كسرت النّتيجة هيبةَ الحي في نفوس هؤلاء الذين يعرفون ما حدث جيدًا: الأميرة والأقارب الثّلاثة، تلك الهيبة التي وصلت في الأيّام الأولى من الهزيمة لدرجة مرعبة. لقد شعروا أن التّحرير ليس مستحيلًا، وأنّ أعداءهم قد انحطّت عقولهم تحت تأثير أوهام التفوق والعصبية، وتحتَ تأثير الإيمان بالشّيخ جهير كرجل ملهَم. وقد نثرت الشيخة على الفسيفساء في البستان وتحت قدمي الغجري، وعلى مهل؛ خمسَ عشرة أوقيّة من الذهب، قالت له إنّها تعطيه خمسة أوقيات من أجل الهجوم الباسل، وعشْرَ أوقيات من أجل أنّه لم ينس في ذلك الوقت العصيب أن يقفل القفل مرّة أخرى على الأمير قبل أن يفرّ من الحي، ممّا جعل الأمير في منأى عن أيّ تهمة هناك، وانخفض الغجريّ وأخذ يجمعها وهو يستمع إليها، وأقسم مجددًا وهو منكفئ في جمْعها أمامهم بأنّ الأمير قد أغمي عليه بعد أنْ فتح له القفل؛ وهو ما كانت الشيخة لا تحبّ أن تسمعه مرّة أخرى.

وبعد أنْ مضى الغجريُّ من البستان حاملًا الذهب، أعربتِ الشّيخة وأقاربها الثلاثة للجرو عن رضاهم عمّا بذله من جهد، وجدّدوا ثقتهم فيه، وكان الجرْو يعلن من ناحيته لهم عن عدم رضاه عن النّتيجة، ويرى أنّه يجب عليه أنْ يتعلم منها شيئًا؛ لأنّ عليه أن يحرّر الأمير من غير أن يتركَ شيئًا على عاتقه.

وبعد نهاية أفراح الحيّ بمقتل العفريت، كان الجرْو ماثلًا أمام الشّيخة شمسة ساعة عصر، عند شرفة القصر الشّرقية الواسعة المفتوحة على الزّراعات، وتزقزق فوقها عصافيرها الملونة مطلقة السّراح، تلفّ وتدور تحت تعريشة العنب دونَ أن تفرّ في الخلاء، وعلى مقربة من الشّيخة المترفة يقف طاووس أبيض على عمود صغير من المرمر، وأخذ الجرو يتجوّل بنظره بين الطيور قبل أن تنهي هي كلامها إلى إحدى الخادمات الحبشيات، ويستمع إلى أصوات العنادل القادمة من عمق البساتين الخصبة.

لمّا مضت الخادمة ونظرت إليه الشيخة تستقبله بهذه النّظرة المليئة بالإكبار، تكلم كعادته بغير مقدّمات وبغير لجلجة، وأكّد عليها مرّة أخرى أن لا ترسل مَن يعرض عليهم فدية؛ لأنّ الأبعد جهير قد يتمنَّع عن قبول أيّ فدية، راغبًا في إطلاق سراحه على المدّة التي سمَّاها، وبغير فدية، فيكون اسمه قد علا على اسم الأمير، وفرض على النّاس في السارحة هذا اللقب لنفسه؛ ثمّ يصالحنا بكلّ وسيلة، ليترك في نفوسنا ذكرى هذا الذّل للأبد؛ لعلّ هذا ما يدور في رأس جهير يا شيخة، فدعيني وإياه والأيام.

هزّت رأسها مقتنعة، وأعربتْ له عن إحساسها وهي تنظر في وجهه بأنّه قد تجهَّز لهم بخطة جديدة فتّاكة، فذكَّرها بأن ما اجتمع لهم عن أحوال الأمير من الرجال الثقات هو أن من ينزله منزله هناك هو شابّ من العراقيب يدْعَى مصلح، وهو فارس طيّب شهم، يزوره كثيرًا، ويبدو عليه أنّه يكره حبس الأمير، وأنّه وحده فيهم الذي أبدى شيئًا واضحًا من التعاطف، بينما كثير من الموقرين العقلاء لم يفعلوا أيّ شيء؛ والشّيخ مدين يا أميرة في أسفاره، والشيخ غائب بن سلاف لا يزال ينتظر أباه.

فاقترحت الشّيخة على الجرْو أن يبعث إلى هذا الشّاب الشهم، ويشكر له صنيعه، ويكلمه حتى يحرّر الأمير ويترك أهله ويدخل في الشّهوب، وقالت بلهجةِ مَن يعرض عرضًا خرافيًّا إنّها على استعداد أن تمنحه شرف الزّواج من بنتها، بنت الأمير همام، ويكون له قصر مثل قصرهم، فماذا بعدَ هذا من شأن؟! لكنّ الجرْو الذي استعظم المكافأةَ رأى أنّ مثل هذا الرجل لا يبيع أهله وإنْ أحزنوه.

وقعدَ الجرو على الأرض وأكملَ كلامه، وعيناه مليئتان بالحنكة في ضوء النهار: كلّ قبيلة بها شابّ كريم وفارس مثله، لا بدّ أن يكون له فيها كارهٌ واحد على الأقلّ، يتمنّى أن يأتي اليوم الذي ينحطّ فيه اسمه، كلّ ابن آدم نظيف الثّوب له مَن يتمنّى له أن يتلطَّخ، كلّ بريء طاهر من النّاس في ظهره مَن ينتظر له تهمة لا يبرَّأ منها. الحقدُ يا شيخة، الحقد، هو ما يجب أن نستعين به على هذا الأمر.

فيما كان الجرْو يتكلّم عن الحقد ويفكّر في البحث عنه ليستعين به، كان أحمد بن جهير منفردًا بأخته في ساعة العصر تلك، وقد تأكَّد ممّن يستحقّ حقده المتعب والنفيس؛ فعندما احتست غروب القهوةَ عند هند بنت جهير ظهرًا، وهي تشعرُ بالارتباك من اهتمام هند بها وبشاشتها في وجهها، فهمت أنّه قد أحيط بها، وأنّها لا بدّ أن تقابل هذه المجاملة بنوع من التعاون، وهي تعرف الذي تريده هند منها. وبعدما تحرّكت هند باتّجاه صندوق لها وأخرجت منه قطعتي قماش فاخرتين ووضعتهما في حجْر غروب وسألتها، فتحت غروب صندوق أسرار ثريا أيضًا، وكانت وهي تفتحه تكبتُ ضميرها بحجّة مقنعة وهي أنّ عددًا من فتيات العشيرة يعرفن بطريقةٍ ما أن ثريا تحبّ مصلح من طفولتها، وثريا لا تبذل على العموم قصارى جهدها لإخفاء هذا، وأقنعت نفسها وهي في هذه الورطة مع بنت كبير الحيّ بأنّ الحكي بطريقة متعقلة وناضجة كتلك التي تحكي بها الآن، لا يقلّ أبدًا روعةً وأمانة عن الكتمان، فحكت كلّ ما تعرف بطريقة لطيفة تستدرّ بها شفقة هند على ثريا، كأنّها تستعطفها كي لا تستخدم ما تسمع الآن بطريقة مضرّة، وأكّدت لهند أنّها وإلى هذه السّاعة من النهار تحبّه حبًّا لا مثيل له، ولا يزال عندها رجاء فيه ما انقطع، ولو كانت تعلم الشّعْرَ ما قالت الشعر إلّا فيه.

ولم تكنِ الهدية الغالية هي التي دفعتْ غروب لأنْ تقول كلّ ما عندها، ولا حتّى كون الغريب الذي أحبّته هو رهينة هذه العائلة، ومِن أجل عينيه تكرَمُ ألفُ عين، بل إنّ عدم قدرتها على الصّمود

والتهرّب تعود للأثر الطبيعي للتفاهة التي تتوغّل في روح إنسان رغمًا عنه، وشيئًا فشيئًا، حتى تستولي عليه، عندما يغفل عن عمره وجيله، ويندمج في هفوات واندفاعات جيل آخر يقلّ عنه بعشر سنين وأكثر.

كان أحمد ينظرُ إلى الأرض بوجه شاحبٍ ذاهل كأنّه في حضرة الموت: إذن تحبه؟

فهزّت أخته رأسها تؤكّد ذلك، ولم تكن تفكّر في تلك اللحظات في قدر الألم الذي تسببه له، بقدْر ما فكّرت كأنثى في أنّها تنزع من ثريا الحقّ في أن تنال كلّ هذا الحب الذي لا تستحقه.

- وهي تظنّ أنّها لن تنساه؟

تنهّدت هند، وقالت: بعيد هذا النّسيان، فابعد طيفها عنك.

- ومنذ أن شبّ عوده وطلع شعْرُ وجهه ما كلَّمها مرّة، ولا ألقى عليه تحيّة في المساء، ورغم هذا تحبّه بجنون؟!

- نعم.

أحمد: والفارس المحبوب يدري بذلك جيدًا، ورغم هذا تركها وتزوّج من أرملة أخيه؟!

هند: أرأيت؟!

أحمد: على قدْر كرهي له الآن الذي لو كان مرضًا أصابه لأدخله القبر، أقول لنفسي ليته يحيا قليلًا، لينتقم لي منها، ويسقيها من الكأس التي سقتني مرارتها.

وندمتْ هند على أنّها جلبت له هذا الخبرَ الذي أشعل أحقاده، وجعله يجزع كلّ هذا الجزع، فقد كانت ترجو أن تنفردَ به فيستخفّا بها قليلًا معًا، ويسْخَرا من انتظارها العبثي الطويل لمصلح الذي تركها لأخرى، لكنّها أدركت وهي تنظر لملامح وجهه الآخذة في التّغير على نحو جنوني مرعِب؛ حجمَ الألم الذي يجتاح روحه، كان يستوعب كلّ قليل بشكل أسوأ الخبر الذي نقلته إليه أخته، فيتدهور أكثر، وأصابها الرّعب عندما فشلت في جعله يتوقّف عن الضرب على فخذيه كأنّه يندب: آه.. آه.. يا ليته يمرّ كلّ يوم من قدَّامها وعينها تشتاقُ إلى نظرة واحدة، تبل بها ريقَها، فيتركها عطشى ولا يلتفتُ إليها. يا ليتها في ساعةٍ من ساعات الشّوق، كتلك الساعات التي تطوِّح بي خلفها في أنحاء الحي، تمرّ من عند بيته حتى تؤنس نفسها بصوته السخيف ينبعث من الدّاخل، فيلطمها ضحكه مع زوجته وهما متصافيان. وهكذا ظلّ ينعي حظه، فاقدًا الشّعور بانفطار أخته في البكاء، وهو ساقط في غياهب حزنه.

ويخفض الجرْو صوته وهو يكلّم الشيخة وقد أعطته كلّ انتباهها، إذًا نحن نريد هذا الذي امتلأ صدرُه بالحقد على مصلح كي نسعفَه، وهذه مهمّة اخترت لها رجلًا يدْعى (جعيد)، وهو رجل شائب وسيمٌ وحلوُ اللّسان، ما جلس في مجلس إلّا والتفتت إليه الأبصار، ومالت إليه القلوب، ولم يره أحدٌ إلّا أحبّه، كأنّه يسحر قلوب الناس بسحر الجلب، تأمرين فيعطونه من عكّات السّمن حمل خمس نياق، فهؤلاء الرّعاع كانوا يشترون منّا السمن، والآن لا بيع بيننا ولا شراء، ينزل منازلهم بالسمن على أنّه تاجر،

تاجر نزيه وموسر يريد أن يبيع بسرعة ويفرغ ممّا معه لأنّ عنده منافع أخرى في بلاد بعيدة، فيبيع بسعرٍ رخيص، ويقبل أيضًا البيع بالأجل، ويكلّم التّجار في أرباح تجارات لا يعرفونها.

فردّت عليه شمسة وهي غير مستريحة: وهل نصبر حتّى ينجده جعيد بعد شهر أم شهرين يا الجرْو، وقد تعب هناك كثيرًا، وصارت هيئته تعيسةً مثل هيئة المجاذيب؟

أكمل كلامه كأنّه لا يسمعها، وهو يتخيّل ما يقول: هذا الرّجل اللبق الذي عنده نوادر البوادي والحضر وسائر الأمم، والذي سيطمع فيه التّجار، ويحبّه مَن اتّسعت أوقات فراغهم، وكثير ما هم، سينزل عندهم على أنّه ينتظر خادمه يأتي إليه، سيختلط ويسمع، ويسأل ويحاور، ويعرف لنا خلال أيام قليلة، فقط أيام قليلة، من أشدّ الناس حقدًا هناك على مصلح؟

شمسة: ثم؟

الجرو: ثمّ أقوم أنا بواجبي، فما إن أعرف مَن هو الذي يكرهه كراهية عمياء، سأتمكن من تحرير الأمير بغير فدية، وبغير دم، وسيشكرني من فتح لي باب سجنه، وفوق هذا أكون أشعلت نار فتنة بينهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخطفة والشهاب

بعدَ انتهاء أيّام الاحتفال الثلاثة، ودونَ أسباب واضحة له، وجدَ عارف نفسه مدفوعًا بقوة لجعل أهل هذا الحي يفقدون صلتهم بالواقع، فبدأ يقول لهم إنّ مجيئه هنا كان على قدر، وإنْ بدا له في البدء مثل كارثة، والرّسالة التي صار مسئولًا عن إيصالها لهم هو أنّ حيّهم جزء من عالم واسع لهم فيه أعداء وحلفاء، وإنّ أشياء كثيرة غامضة تحدث سيتمّ فهمها على نحو صحيح خلال حياة الأجيال القادمة، وإنّ كلّ ما حولهم رموز، فالسُّجن رمز، والجبلُ القاتم الذي يشبه عندهم مقدّمة سفينة هو رمز، وسطحه الذي يشبه غابة محترقة هو رمز، وارتفاع السّد رمز، وسلالم السّد رمز، والأشياء الجليلة التي تقبع تحت أرض السّد، دفينة الحناء، هي رمز، وظهور الشّيخ سلاف في جيله آية، وظهور الشّيخ جهير آية، ونجاة الفرسان من الفخاخ السبعة في الواحة آية، وحبسُ الأمير آية، وسقوطُ منجم الملح آية، ومقتل العفريت آية، وثمة آيات عظيمة يُخفيها الغيبُ قادمة لا محالة؛ لم تكنْ هذه الأحاديث جاهزةً فيه تنتظر الوقت للخروج، بل ظلّ ينتجها هكذا تباعًا، وبانسياب، ببراءة دودة تنتج الحرير.

وقد عبّر الناس خلفَه إلى عالم الرّموز الفيّاض، وضاعوا في نواحيه السّحرية المتمدّدة مع خطواتهم، وهو قد وجدَ في نفسه خصوبةً عنيفة لم يكن يعرفها للاستمرار في توليد مثل هذه الأفكار والرؤى، بغير توقّف، وبغير أن يفهم كيف يتمّ هذا في أعماقه، وكيف تتسق الأجزاء وتتكامل، وأخذ الذين يسمعونه ويتأثّرون به يراجعون الحياة كلّها ليروها من جديد، وأخذوا حتّى يراجعون وجوه كلّ الناس الذين زاروا الحي فجأة واختفوا فجأة، محمّلين الظهور والغياب مؤامرات وعلامات ونذر وتنبيهات؛ أمّا الشّيخ جهير الذي وصله هذا الحديث متقطّعًا من أفواه النّاس وآخذًا في النمو، فلم يجد بأسًا فيما يقال، وظلّ يتمتّع به ويستفيد منه، واختار أن يترك فتاه على سجيّته، وأن لا يرفض هذا الكلام أمام الناس أو يجيزه، وسمح لعبده المؤقت بوقت فراغ كامل استغلّه في ذلك الحديث العجيب إلى الناس، ذلك الحديث الذي استهواه وأفرغ فيه طاقته؛ وظلّ عارف لا يعرف ما الذي يدفعه لكلّ هذا التّبشير بالأرض التي أضاعت منه شيئًا عزيزًا من عمره، وأضاعت أصبعه، خاصّة وقد بدأ الخيطُ الذي يفصله عن أضاليله التي يبثّها إليهم يتآكل، وصار مفتونًا بما يقول، وصار وجهُه يتغيّر من الاحمرار وهو يؤكد ما يقول، وأوشك أنْ يكون مثل هؤلاء الذين كانوا يبْكون وهم يؤلّفون القصص عن الأسباب القاهرة التي دفعتِ الشّيخ جهير لاختطاف أمير الشّهوب. لقد حدث هذا التّغير الغريب في الوقت الذي اقتربت مدّة رقّه على النهاية، في الوقت الذي من المفترض فيه أن ينسى كثيرًا، ويغسل روحه ممّا علق بها، ويتأهّب بكلّ الحبّ للحرية في مجتمع عقلاني، كأنّه صار خائفًا من العقل والحرية.

وسرعان ما ظهرتْ أخبار جديدة: فالشّيخ مدين العجمي العرقوبي الذي كان يعود من الأسفار إلى هذا العالم الضّيق بروح غير منغمسة، مترفّعًا عن حلم الشياخة، للدرجة التي جعلته لا يهتم بأنْ ينسب لنفسه فكرة السّد، يبدو أنّه قد حدث له ما يحدث لكثير من النّاس في المشيب عندما يرتدون للعالم الذي خرجوا منه، بحنين فيّاض إلى المحلية، وتكبر فيهم الأشياء التي كانوا لا يعبئون بها في شبابهم، ويصارعون عليها بشهيّة ذئب، لقد بعث أحد رجاله يعلن أنه وصل إلى حلوان، وسيعود بعد قرابة الشّهر بعد أن يفرغ من بعض أمور التجارة ومن زيارة لجماعة يمتّون لهم بصِلةٍ قبليّة، وتطوّعت أمّه التي ترغب في شياخته بإبلاغ الناس بأنه عائد قريبًا، بابتسامة تبدو كرسالة إحمائيّة إلى الأحباب

والموالين، ووعدت بعض البيوت المتواضعة الحال بجوالين من الحبوب من الشيخ مدين عند عودته. كان من الواضح أنّه أرسل لها رسالة شفاهية خاصّة وصريحة هي التي دفعتها لكلّ هذا الحماس، فهما، وبسبب فارق السن الذي لا يزيد عن أربع عشرة سنة، يبدوان كأخ وأخته الكبيرة.

لم يشعرِ الشّيخ جهير بالكثير من القلق من استعدادِ مدين لاستخدام المعونات كوسيلة لجمع العامّة إليه، فهذه عنده طريقة رخْوة رقيقة، وقليلة الجدوى، يميل لها الرجال السلسون النّاعمون مثل مدين، ولن ينضبط معها المحتاجون، الذين يبقى لديهم في النهاية ميل للخوض في المحسنين، كنوعٍ من الرّد على الصّفعة المهذبة للإحسان، وهي أمور لا يعاني منها القوي البخيل الذي يبجل الناس فيه يأسهم من يده.

وممّا جعل سلطانة تشعر بالسّرور والتفاؤل، هو أنّ أخاها أرسل رسالة شفاهية لمصلح، يبدو منها أنّه قرّر الاعتماد عليه ليكون ذراعه اليمنى في صراعه على الشّياخة، وبعد السلام، يقول إنّه صاحب فكرة السّد، وأنّه يحبّ أن يعتمد عليه في بعث الاطمئنان في نفوس الناس بخصوص حجم المخزون من المياه الذي لدى العشيرة، لذا هو يعطيه هذه البكرة التي بها حبل بأحدِ طرفيه قطعة فلّين كبيرة، وسيتمّ تدلية هذا الطرف حتّى يصل إلى سطح الماء في السد، أمّا الطرف الآخر الذي ينتهي ببكرةٍ من النحاس، فسيكون قد تدلّى بنفس القدر الذي تدلى به الطّرف النّازل للماء، ولكن من الخارج، ليعرف الناس إلى أيّ ارتفاع يصل الماء.

وقد شعر مصلح بالسّرور من ثقةِ مدين به، وبالحزن أيضًا لأنّ زوجته حضّته على الإسراع بتنفيذ أمْر أخيها رغمَ ما فيه من روح التّحدي لجهير، بينما كانت تخشى عليه من أن يتّهم إذا ما ظلّ في زياراته لسجن الأمير؛ إنّها إذن تشعر أنّ أخاها فحلٌ كبير ناضج، له أن يتحدّى ويفرض نفسَه، ويحمي أتباعه، بينما تشعر أنّ زوجها هذا، رغم أنّه فارسُ العشيرة الأول كما نصّبوه منذ يوم الضّباب؛ هوَ شابّ صغير يمكن أن يضيع بين الأقدام في صراع العمالقة؛ وشعر- أيضًا- بشيء من الغيرة من نظرتِها التّقديسية لأخيها، فقد تعصّبت بشدّة لحقّه في أن يفرض نفسه سيدًا، ولم تشعرْ بأيّ ذرّة من خوف على هذا الأخ، كأنّه في نظرها أكثر إقناعًا للناس.

وعندما كان مصلح في غرفته يفكّر وهو ينظر للبكرة التي وضعها أمامه في كيفية البدء والانطلاق، وما يمكن قولُه للنّاس، حتّى يكون جديرًا بالثقة، وكان قد بدأ يغلب عليه الضيق بهذا الشّيء الذي رماه الشّيخ مدين في وجهه، ولم ينتظر حتّى يعود ويفعلها بنفسه، عندما كان مصلح يقلّب الأمور، دخلت أمّ مدين ووراءها بنتها سلطانة، ودفعته العجوز للخروج الآن، وأخذت تضربه على ظهْره مشجّعة، حتّى بعد عدّة أمتار من خروجه من البيت بدون أيّ إعداد.

وقد فكّر مصلح في أنْ يرمي البكرة ويترك هذا الحيّ للأبد، ويترك تلك العائلة المتعبة التي لم تعْطه شيئًا، ويترك تلك العجوز التي لا تستخدمُ معه إلّا أسلوب التّوريط اللّعين، فقد كان يؤمن بأنّ اقتحام الواحة لأسر الأمير كان أهْون من هذا الذي يقدم عليه، إنّه يقلق من صراعات الدّاخل، ويشعر تجاهها بالتّشتت والغباء والحزن، ولا يجد في نفسه معها ذات القوة الفدائية التي يدخل بها المعارك مع الآخرين، حينما يصير الآخرون في ذهنه كتلة شريرة متجبرة. ولاحظ النّاس البكرة الغريبة التي

يحملها، وشعروا أنّها رمزٌ يثير النفور والقلق، وكلما سأله أحدُهم عنها وهو يشيرُ إليها مستريبًا قال له قليلًا وتعرف، حتّى ذهبوا خلفه وهو في طريقه إلى السد.

مشى الناس وراءه وهم يحسّون أنّ مشيته خطرة، وأنّ هناك أمرًا ما فارقًا سوف يقع، خاصة وقد تشبَّعت نفوسُهم بحكايات عارف عن المؤامرات والدّسائس والمفاجآت القدرية المدهشة وتقلّبات النفوس العجيبة.

وقد تجمَّد المتجمّعون أسفل السّد وهو يصعد، واضطربت حناجرهم وهم يرونه يتحرّك بكلّ عزم من اليمين إلى اليسار، ومن اليسار إلى اليمين مع قلبات السلَّم، وعندما وصل إلى منتصف قامة السّد، بدؤوا يصرخون فيه بكلّ ما فيهم من خوف وغضب، لكي لا يصعد أكثر ويقول ما عنده. وأحبّ أن يستمرّ في صعوده ويتصرّف كرجل عنيد لا يأبه بالنداء، ولكن صراخهم زادَ وهم ينظرون إليه كما لو كان سيفعل شيئًا تنهدّ له الأرض، فتوقف، وهدَّأهم بإشارات يده، وعلَّق البكرةَ على رأس عامود من أعمدة حاجز السلَّم، وقد بلغ ثلثي ارتفاع السّد: هذا حتّى تعرفوا ارتفاع الماء في السّد، فنهاية هذا الحبل من الخارج ستكون علامة على ارتفاع الماء داخله، وأنا مع كلّ بدر أرتقي وأنظر، وأنزل الحبل من الداخل حتّى يلامس صفحة الماء فينزل مثله من الخارج، وهذا من أجلنا جميعًا.

- مَن كلَّفك أنت؟!

- كلّفت نفسي.

واغتاظ بعضُ الرجال جدًّا حتّى أنّهم فكّروا في الصّعود إليه من أجل إجباره على النزول ببَكَرته وحبله، بينما كان عارف بينهم يقول وهو يهزّ رأسه متأسَّفا: تمامًا كالذي في الكتاب!

وقد منع بعض أحباب مصلح وأقاربه مَن همّوا بالصعود إليه، وذكّروهم بأنّه الفتى الحبيب، الذي أسر الأميرَ بنفسه، بينما كان هو يهدّد مَن يصعد إليه بأنّه سيلقيه من أعلى، إذ صار الأمر بالنّسبة له مسألة كرامة شخصية.

ووصل معه المتعاطفون إلى أنْ يترك البَكَرة كما هي معلّقة، ويترك الأمر لكبار العشيرة يبتُّون فيه وحدهم، ويعود لبيته ويدخله ولا يتكلّم في هذا الأمر، فنزل وهو يشعر بغمّ وغضب، وخوف لم يشعرْ به من قبل في حياته. نزل وهو يشعرُ أنّه يكره كلّ الكبار؛ فالشيخ مدين الذي كان يستصغرُ كلّ ما يحكي فيه النّاس هنا، ويشعر بأنّهم غائبون في الصحراء، قد حلا له فجأة أنْ يكون شيخًا، وأراد أنْ يستخدمه كمكنسةٍ يكنس بها طريقه، حتّى لا يضيع عليه هذا الشهر هباء، مثلما استغلّه الشّيخ جهير من قبل وأسَرَ به الأمير. وذهب مصلح إلى البيت ليتلقى وعده من المرأة التي لا تقبل الفشل.

بعدَ قليل، كان الشّيخ جهير يتقدّم، بعد أنِ انفرد به عارف الذي فاضت عيناه بنور الهلاوس، وقال ما تمنّى أنْ يقال للناس ردًّا على حماقة مصلح على حدّ تعبيره، وكان الشّيخ يبتسم وهو يشعر أنّ فتاه الغارق في حديث النبوءات قد أصابته مسحةٌ من جنون جاذب، كأنه يتمتّع بالتلف الأبدي الذي يتركه في أسْراه. وقد غاب عارف في جماعةٍ من محبّي الشيخ جهير الذين اصْطفاهم من حفلة القرد، مضى بينهم من خلف الشّيخ بعد أن بيّنوا له أنّهم يفعلون أيّ شيء من أجله هنا نيابةً عنه، وليكنْ ما يكون. مضى الشّيخ جهير ناحية السد، وقد اختلطت في رأسه أفكار مِن عنده بتعابير أخرى متحذلقة

وغامضة كان عارف قد أكد على ضرورة الإفصاح عنها، وكان الشيخ يودّ أن يقول له إنّني لم أفهم كثيرًا ممّا تقول. وصعد الشيخ جهير على السلَّم بثقةٍ ورصانة، حتّى وقف بالقرب من البكرة التي تركها مصلح، ونادى في الناس الذين بدوا له صغارًا بطريقةٍ مُدهشة من هذا الارتفاع، كأنّما يمكن أن يطيروا بموجة من الهواء كما لو كانوا نملًا، وانتبه له حتّى الأمير همام، ورفع رأسه لأعلى، معتبرًا نفسه ممّن يناديهم الشيخ. وأخذ يصنع خطابًا واحدًا، من أجل وحدة الحي، كأرقى أهدافه عنده، ومن أجل رئاسته، كأقرب أهدافِه إليه، بما يطفو على سطح ذاكرته من وشْوشة الدّين والعلمانية؛ عن السّد العظيم الذي هو مَفْخرتهم العمرانية، الذي غيّر حياتهم ووفّر لهم الطمأنينة، ونفعهم في هذه الأيام التي تمرّ صعبة على كثيرٍ من البلدان، وعنْ هذا الحزام الأخضر الجميل من الأشجار والمزارع والحدائق الذي يحيط بهم الآنَ من أغلب النّواحي، والذي لم يره آباؤهم، الذين كانوا يعدّون أشجار الحي عدًّا، وما كان يمكن أن تحيط بهم هذه الخضرة إلّا من بعد أنْ قام السّد وأكرم النّاس بالماء، وكلّمهم عن قوّتهم التي تحمي هذا البنيان من أيّ أطماع في علم الغيب، إذ لن يكْفيهم أن يكونوا جيّدين كي يأمنوا من زحف الشّر نحوهم.

وهذا الخير الذي نزل طاهرًا من السّماء في السّد هو نعمة من الله قد يذهب بها الخوف والشكّ، وإنّ الماء الذي به يجبُ أن يعامل معاملة الغيب، للأبد، كما كنّا منذ أن بنيناه، والنظرة فيه الآن هي كخطفة الشّياطين لأخبار السّماء، لا يأتي من ورائها إلّا الشّهاب، ونحن لا نريد أن يتسبب واحدٌ منّا، مهْما كان حسن النّية، إنْ نظر في السدّ، في تدمير ما نحن فيه من نعمة، فنحن نعيش في عالم مليء بالأشرار، والقوى الخبيثة التي تعمل جاهدة على إيهام حتّى أكثر الناس احترازًا وطيبة، مثل مصلح، وسيعلمُ الجميع يومًا ما تلك الأخطارَ التي ودَّت لو قطعت مسيرتنا. وآخرًا أقول لكم: إنّ هذا الماء هبةٌ منه سبحانه، وأنا أمينُ الله عليكم، أمينه الذي لن يترك أحدًا يغرق السّفينة أبدًا.

صاح النّاس به وقد استبدّ بهم الحماس، والخوف من هذه المخاطر التي لا يدركونها، والرجال المندسّين، والأمم المتربّصة، والنبوءات النّائمة التي سيوقظها من نومها رجال أشرار أو مغفلون، وطلبوا منه أنْ يرمي إليهم البَكَرة وحبلها من أعلى، ليجعلوها تحت أرجلهم، ولما رماها جذبوا حبلها بغيظٍ كأنّما يستخرجون أمعاءَ رجل من أحشائه، وأشعلوا النّار في البكرة الخشبيّة الكبيرة وحبلها الملتوي، وأخذَ الحبل يطقطق في النّيران وهم في قمة الهوس والتعصّب، رافضين أن يكون مصيرهم قابلًا للقياس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رائحة التفاح

أرسل الشّيخ جهير ليلًا إلى مصلح كي يأتي إلى مجلسه، وعندما دخل الشاب العابس وهو يحرّض نفسه على الدّفاع عن كرامته إذا أسرف عليه الشّيخ المهيب، وجدَ رجلًا غريبًا مع الشّيخ وحدهما فازداد عبوسه.

على الفور أبدى الشّيخ امتعاضَه من فكرة الحبْل اللّعينة على حدّ قوله، وسأله عن الحكمة التي من الممكن أن يتوهّم وجودها في إرسال حبلٍ قبيح على واجهة السّد العظيم الذي تكفل في هذا الحيّ بالسقيا بكلّ كرم؛ فرمى مصلح بصرَه تجاه الضّيف معبِّرا عن تحرجه من الكلام في أمور العشيرة أمامَ هذا الغريب، لكنّ الشّيخ ضغط عليه وسأله بهدوء وقوّة لماذا لا يرد عليه.

فاغتاظَ مصلح من إصرار الشّيخ على الكلام أمام الرجل، وتخلّى عن حيائه، وتكلم برأيه كما هو دونما أيّ تلطيف: حتّى يقف الناس على الحقيقة كما هي، أمّا أن يبقوا وهم لا يعرفون ما يملكون من سبب العيش، فهذا ينحطّ بهم إلى دركِ البهائم التي يحمل مَن يربّيها همومَ معيشتها وحده.

فتضايق الشّيخ مِن رأي مصلح الذي جاءه مفاجئًا فظًّا، وأكله بعينيه، ولكنّه تماسك وقال: هل أنتَ متيقّظ أم بك شيء؟ هذا يجلب الخوفَ إلى قلوب الناس، فإذا خافوا انفلتوا وضاع الأمن.

وتدخّل الغريب بهدوء: دعْنا نشرح الأمرَ له يا شيخ: إذا لا قدر الله وضعت المقياس يا بن أخي، وأظهر أنّ في السّد ماءً قليلًا عمّا كانوا يأملون، تغيّرت طباع الناس، ومالوا لليأس والكسل والغمّ، وساءت الأمور بينهم، واهتمّ كلّ امرئ بأمره؛ وحتى إذا ما نزل السيل من بعد ذلك بمدّة بقيت طباعُهم معلولة، واعتادوا على القلق والتّشاؤم، وتطبَّعوا على الشك والارتياب والتّدقيق، وغلب عليهم الشّح، وفسدَ ظنّهم بالله.

ردّ مصلح ساخرًا: كلّ هذا إذا نزل المقياس وعرف الناس؟!

ردّ عليه جهير: إنّك جئت وفي نيّتك أن لا تفهم، وأنت لا تعرف مِن الحياة ما يجعلك تذهب إلى ما يذهب إليه مثلي، فخذْ شيئًا ممّا فكّرت فيه أنا كبيركم: لو لم ينزل السّيل موسمًا آخر، وقَلّ الماء في آبار الأعراب من حولنا، وخافوا على أنفسهم من الهلاك، ولم نكنْ اختطفنا الأمير من واحته، ذلك الاختطاف الذي جعل النّاس يحسبون لنا ألف حساب؛ لربّما دخلوا علينا من جميع الجهات، ونقّبوا في السّد وملئوا أوعيتهم، وتركوه مثل القربة المثقوبة يفرغ ما بقي فيه، أما وقد فعلنا بصاحبك الأمير ما فعلنا، فصاروا لا يحلمون بأنْ ينكفئوا ويشربوا من مسايل الماء على أرضنا.

مصلح: تقصد أنّني أسرتُ الأمير من أجل هذا، من أجل أن يخاف النّاس منّا، وصار ذنب الرّجل الوحيد الذي تعفّن عندنا أنّه الأفضل لأخذ العبرة؟!

- أنا لم أقلْ هذا لأحد من قبل ولا حتّى لولدي، ولن أقوله مرّة ثانية، وقد قلته تقديرًا لك.

- هذا كلام وددتُ لو أنني لم أسمعه منك يا عم.

- هذا ثمنٌ يؤذيك الآن بلا شك، ولكن إذا تردّى الناس إلى الوحشية بحثا عن المياه، وسقط منهم مَن سقط مِن العطش كما في أحلام الشّيخ غائب؛ ستراه ثمنًا معقولًا جدًّا.

الأمن قبل أيّ شيء يا مصلح، وإذا تدلّى حبلك وحبلُ صاحبك مدين، اضطرب الناس، وداس الصّغار على الكبار في النّهاية، وتفكّكنا، لكن الأمن الذي ننعم به الآن، هو الذي يجعل العامة يوقّرون شيوخهم المسئولين عنهم، ويقبلون منهم حتّى ولو على مضض، فيبقى جمعنا واحدًا، ويستقرّ أمرنا.

ذلك السّد الشّاهق يا مصلح، بناءٌ عظيم يجمعنا ويوحّدنا، ونأخذ منه بعشم شديد كلّ يوم بغير أن نسمعَ منه أبدًا تلك المصمصة المخيفة التي تدلّ على قلّة المياه، فنظلّ كما نحن نشعر بالأمن، ومثل هذا أنا أيضًا عندما أعد الأهل بالانتصار، وعندما أبْدو مستخفًّا بالشّهوب وغير الشهوب، يسمعون صوتي فياضًا، ليس فيه مصمصة، فيشعرون بالأمن، فغاية الناس أن يظفروا بما يلتصقون به جميعًا ويتّكلون عليه ويتجنّبون كثرة السّبل. وإنْ أنتم وضعتم القياس على السد، حتمًا تضعون لي قياسًا أنا أيضًا، فتحلّ عليكم الحيرة والكآبة.

فردّ عليه مصلح بهدوء: كلّ هذا يبدو جيدًا، ولكنْ هل يفيد بشيء مع السّيول التي انقطعت منذ ثلاث سنوات، وهل يفيدُ بشيء إذا نقصَ الماء الذي نهدره بحماقة حتّى يفرغ السّد تمامًا؟ ألا تخشى أنْ يقول الناس يومًا ما مَن ذا الذي تركنا للطيش ولم يأمرنا بالتدبير؟

جهير: عندما ينقطع السّيل ثلاث سنوات، فهذا يعني عندي أنّ مجيئه قد اقترب.

مصلح: هذا ما نرجوه جميعًا، ولكنْ إلى أن يأتي يمكن أن نعوِّد الناس على المعرفة، ولو جلبتْ عليهم شيئًا من القلق، وغيّرت بعضًا من طباعهم.

جهير: حبلُك الذي حرقناه، لوْ وضعت أنتَ ومدين مثلَه سيصير عند الجمهور مثل حبل الشنق الذي يضيق خناقُه كلّ شهرٍ قليلًا، هو لنْ يكون أكثرَ من علامة خوف، ولا يمكن أن يفهم النّاس أنّه علامة رجاء؛ والخوف يا مصلح يُخرج من النّاس أسوأ ما فيهم، يجعلهم وحوشًا.

مصلح: وماذا يضير الشّيوخ إذا عرف النّاس وحملوا همَّ المصير معهم، ماذا يضيرهم إلّا تساوي الرؤوس؟!

جهير: كذبتَ يا مصلح، ولم تعرفْ عن الناس الذين تشفق عليهم إلّا أقلّ القليل، إنّهم لا يفرقون عنِ الحيوانات في الحقيقة إلّا بحبّ التّجمل، وإظهار السّماحة والكرم، لكن داخل كلّ منهم من هو أقبح مِن ذلك، فإذا ما خافوا على أنفسهم ظهروا على السّجايا المزرية؛ ولا شيء يثير الخوفَ مثل نضوب الماء، طالما أنّ هناك ما يكفي، والأمور تبدو طيّبة، يمكن للإنسان أن يحرصَ على مَن يُشاركه الجدّ العاشر، لكن عندما يشكّ في وجود ما يسدّ الحاجة؛ لن يفكّر إلّا في بنيه.

هؤلاء الذين جئت تردّ عليَّ من أجلهم كلمةً بكلمة، مع حبْل مدين، الذي يزحف على الجدار إلى أسفل شيئًا فشيئًا؛ سيأخذون لهم ولأبنائهم من الماء فوقَ حاجتهم، ويصرفون منه أكثر ممّا يصْرفون من غير خوف، يتنافسون على شيء جعلته أنت بحبلك محسوبًا، على شيء تصر أنتَ على أنْ تقول لهم إنّه لو لم ينزل السّيل فهو إلى زوال؛ كلّ منهم سيخطف منه على قدر ما يستطيع، وهو لن يفكّر إلّا في أن يزيد حصّته؛ ووقتها، تنظر إليهم وتقلّب كفيك، بعد أن صاروا مجانين يتعجّلون فراغ السد.

وأشار الشيخ إلى السّقف، وقد تغيّرت ملامحه وصارت جادّة جدًّا: وعندما يصل ارتفاع الماء في السّد إلى مثل دار، كما تشير النحاسة التي على حبلك الملعون، يتقاتلون بالسيوف وليس بينهم أنساب.

أنا لم أسلّط الناس عليك، هُم غضبوا منك لأنّهم لا يريدون أن يعرفوا شيئًا، ويريدون الاحتفاظ بمشاعرَ طيّبة تجاه مَن يشاركونهم الجدّ العاشر، ويخافون من أن ينتهي زمن التجمّل. هُم يريدون أنْ يفتحوا الصّنبور عند السّد فينزل الماء، ولا يهمّهم ماذا يحدث خلف حائط السد، يفكّرون أنّ المعرفة شؤم، ويظنّون أنّهم لو ما عرفوا ما نفدت المياه، هكذا يفكّرون، أنا واثق ممّا أقول.

وبعدَ شيء من الصّمت، وكان مصلح يبدو يائسًا، وقد استوْلت عليه نزوة الكراهية تجاه الحي، يكمل جهير: ألم تتعرّف إلى الرّجل يا مصلح؟ وأكمل بلطفِ المنتصر إزاء المهزوم: أنصحك أنْ تسامرنا ليروق بالك، واسمع العجب منه؛ هذا جعيد، تاجر سمن، ونزل الحيّ هذا الصباح.

كان أحمد سعيدًا جدًّا بأنّه فوْر أن شرع في الحقد على مصلح، ذلك الحقد المتعب والنّفيس، بعد أنْ تأكّد من أنّ ثريا لم تزل تحبّه، قد بدأ الاضطراب فورًا يصيب أمره، ويستاء الناسُ منه، ممّا أضفى على مشاعر الحقد عنده هالةً من التّوفيق والقدسية، وكان سعيدًا جدًّا بأنّ والده قد اسْتدعى غريمه وجادله، فهو واثقٌ من قدرة أبيه الفذّة على إصابة الرجال باليأس.

لم يكتفِ أحمد بما وقع بين أبيه ومصلح من خلافٍ بسبب البكَرَة التي احترقت، بل سهر في تلك الليلة على تلّة مرتفعة قليلًا عند طرفٍ من أطراف الحي، يصاحبه أفقُه الضّيق، وأربعة من صعاليك العشيرة ممّن يسرّهم قربُهم من ابن الشيخ، وعبَّر لهم عن استيائه من مصلح المغرور على حدّ وصفه، الذي أراد أنْ يقيس الماء دونَ أن يستأذن أحدًا، كأنّ الحي قد خلا من الرّؤساء، وقد فهموا أنّ ما في قلبه من حقدٍ على مصلح يرجع لأمور السّيادة لا العاطفة. وأخذوا يجاملونَه ويضحكون مِن صعوده على السلَّم ثمّ نزوله خائبًا، وأخذوا أيضًا يطعنون فيه لأنّه لا ينقطع عن زيارة الأمير أبدًا، ويقولون إنّه لا ريب يبحث عن صفقة.

وبشَّرهم بأنّ أباه قد أجهزَ عليه في مجلسِه بخصوص الحبل، حسب ما قال له العمّ جعيد تاجر السّمن الذي نزل بالحي، فقال له أحدهم إنّ هذي ريحُه التي يجب أن يغتنمها، فمصلح الآن يتوقّع من الناس أيّ شيء بعد أنْ هاجموه عند السّد؛ لذا يمكن تدبيرُ أيّ حيلة أخرى لجعله يشعرُ بأنّه مذموم غيرُ مرغوب فيه، ولن يعرف مَن فعلها بعد أن كرهه الكثيرون، وبعدها ينزوي ويعرف قدرَه، ولا يبقى فيه أيّ رجاء للسيادة.

وبعد أنْ تشاوروا فيما يُمكن عمله، كتسميم كلبه، أو قطع ذيل حصانه، قال لهم أحدُهم إنّ لديه حمارًا مات الليلة، يمكن أن يقطعوا رأسه، ويلقوا به عند دار مصلح، فيعتريه الغمّ والشعور بالإهانة؛ وقد راقت الفكرةُ الصبيانية جدًّا لأحمد.

وقد كان مصلح ممدَّدا وحده في غرفته، وكفّاه تحت رأسه يتأمّل في السقف، وكان يسترجع كلّ أيّام انتصاره ونداء النّاس باسمه، ليحصّن نفسه من حالة اليأس التي دبّت فيه، حتى شرد في ذكرى انتصار قديم بهتتْ صورته في خياله بفعل الزّمن: غابة من أرجل الإبل الضامرة وهي تجري متزاحمةً بأقصى سرعة، حاملةً أطفال الحيّ المشاركين في السباق، والنداءات الحماسيّة، والغناء

الرّائع للمنشد، وصدى الصّوت المرسل في الآفاق، وصيحات الناس وهم يشجّعون أطفالهم في السباق الخطر.

وبعدَ قليل ها هو ذا عبيد يحتضنُ أخاه الطّفل المتقطع الأنْفاس المبتلّ الثّياب الذي فاز في سباق الهجن؛ ثمّ تركه وتفرّغ لتلقي التّهاني من الأقارب، فابتعد الطّفل عنه قليلًا، ليتلقى تهنئة بريئة ولا غنًى عنها من ثريا التي كانت في قمّة شعورها بالفخر والسعادة. وفي غمرة السرور، يلتفت فجأة، ليرى الطّفل أحمد بن جهير، الذي يقف بالقرب منهما، متلبِّسا في نظرة حقد واضحة وهو يجزّ أسنانه. وقد تحوّلت هذه الكراهية الواضحة مع السنين إلى شيء من التّجاهل، يبدو معه أحمد كأنّه لا يراه أبدًا ولا يسمعه.

أرخى مصلح سمعَه لوقع قدمي شخص تتحرّكان ببطء بالقرب من جدار بيته، شعر بأنّ هناك مَن أسند رأسه على الجدار، ليعرف إنْ كان أهلُها نائمين أم لا، قام بسرعة وخفّة، ومشى على أطرافِ أصابعه، وخرج ليرى خادمًا من خدّام أحمد وهو يضع رأسَ حمار عند عتبة باب البيت. فقال له مصلح بهدوء: خذْ رأسَ أخيك وامشِ.

صعقَ الخادم ثمّ أطلق ساقيْه للريح، لكن مصلح لحقَ به بسرعة، وأعاده معه وهو يمسكه من ثوبِه، والخادم عيناه تلعبان من الرّعب: خذْ رأسَ أخيك، وعدْ بها لمَن أرسلك، وقلْ له تحشَّم.

واجتمع مصلح بزوجته وحكى لها ما حدث وهو في بالغ الضّيق من تلك الجرأة والسفاهة، فأعرَبَت له عن تعجّبها من باله الطويل، فلو كانت محلّه لجعلت هذا الزعنون خادم أحمد يقرُّ بأنّ سيده هو الذي أرسله، وفضحتْ أحمد بن جهير بين الناس.

وأخذت تؤكّد له وهي ساخطة أنّه أحمد الذي فعل هذا، فقال له إنّه يعرف هذا جيدًا، ولكنّه أحبّ أنْ يستر على كرهه له، لعلّه يخجل من نفسه. وكان مصلح ينظر لها حائرًا وهو لا يزال يشعر بكراهية كلّ الكبار، ولا يعرف إنْ كانت حماستها لفضح أحمد تعود لغيرتها عليه وهو زوجها، أم أنّها تريد أنْ تستغلّ الحدث الشّائن لخدمة أخيها الطامح للشياخة؟

وقد استفزّها شروده الذي لا تعرف سببَه: ما كلّ هذا الرّفق الذي مع مَن لا يستحقون؟! كان يجب أن تجعلَه يعترف، ثمّ تأخذه من يده للشّيخ جهير حتّى يحاسب ولده الغبي، حتى يتعهَّد بأن لا يفعل مثل ذلك مرّة أخرى، لأنّ مثلنا لا يعيشون على الضّيم، ولا يحلمون على أذى الجار، أنا أخت مدين يا مصلح.

: كنتُ أعلم أنّه يكرهني، ويكتم هذا في قلبه، وكنتُ أعذره عند نفسي؛ فهذا شعورٌ لا حيلة له فيه. وكنت أتمنّى أن يظلّ هذا الشّعور مستورًا أمام الناس، لكنه لم يقبل هذا لنفسه!

سكتتْ فترة، ثمّ نظرت في عينيه مباشرة، وتكلّمت بلهجة بها عتابٌ أنثوي: نعم، يكرهك لأجل..... ثريا.

فبلع ريقَه وتهرّب بعينيه، ثمّ نظر إليها فوجدها لا تزال تنظرُ إليه في غيظ رصين، وشديد الأناقة، ثمّ شعرت أنّ هناك مَن يدنو من الجدار، فأشارت إليه ليسكت، فوضعت أذنها، ووضع أذنه، على بُعدِ متر منها، وقد كان التّرقب المشترك، وهما ينظران إلى بعضهما البعض، مستندين كما يفعل

الهائمين، حتّى اطمأنّا إلى أنّه لا يوجد أحد يدنو من البيت، كان شبيهًا بأغنية رقيقة انْسابت على اثنين فجأة، إنّه الآن، يشتاق إلى أنْ يضع كفّيه الصّلبتين على هذين الكتفين النّاحلتين، ويميل، ويشمّ رائحتها الطبيعية التي تشبه رائحة التفاح. راح في هذه الخيالات النزقة وقتًا شيِّقا حتّى كاد يغيِّبها في حضنه بغير مقدّمات، إلّا أنّه آثر أن يحدث هذا في وقتٍ ما على شكل فلتة طاغية تجتاحهما فلا يهربان منها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نشيجُ الجوارح

اتّخذ جعيد لنفسه محلًّا من عريشة من العرائش الموجودة في بداية الحي من ناحية الجبل والسّد، في المكان المخصّص لأيّ أسواق تقام، أو لاستقبال القوافل القادمة، أو لإلقاء الشعر. وتعامل النّاس من النّهار الثاني بترحابٍ واضح مع هذا التّاجر المتأنّق الذي يرتدي ثيابًا نظيفة، ويصف بضاعته جيدًا، ولا يغلبه أحدٌ في المجاملات والكلام الطّيب، ولا يرد أحدًا من زبائنه أبدًا حتّى الذي جاء إليه وهو لا يحمل معه أيّ نقود. لم يتوجّس منه أحد ولم يتوجّس هو من أحد، غير ما حدثَ بينه وبين عارف في أوّل لقاء، فكلّ منهما ارتبك من وجود الآخر الغريب عن الحيّ أمامه، وتبادلا ما يمكن أن يشعر به نشّالان عرفا بعضهما بعضًا من التصرفات والتّلفتات في زحام المدينة، فتكلّما بالعيون: لا تتشغل بي. وكان عارف يخرج في بعض الأحيان بمشقّة من تلك الحالة التي أدخل نفسَه فيها، ويتعامل مع نفسه على أنّه يفسد عقول كلّ مَن هُم حوله، ويلعب بهم، وينتقم من هذه الشّابة التي بكت عليه عندما كان يجلس على الحجر، ثمّ يعود ويغيب في دخان أساطيره وتوهّماته، وتتخدر أحاسيسه، وينطق بالعجَب، ويشعر بالحبّ الشّديد تجاه هذه الشّابة التي بكت عليه عندما كان يجلس على الحجر.

كان الرُّجل محظوظًا لأنّه حطّ في الحي في اليوم الذي غضب الناس فيه على مصلح واحترق حبلُه، لذا كان من السّهل أن يجمع من شظايا الثّرثرة منذ أوّل يوم صورة عمّن هم أشدّ الناس حقدًا على مصلح، وكان أحمد واحدًا منهم، وإنْ كان بينهم بمثابة الكنز، فهو ابن جهير، ابن السّيد الذي حبس الأمير، ويسهل من خلال نفوذه اختراق الحي، ومن خلال حجمه يمكن إشعال فتنة عظيمة.

أمّا أحمد، وبعد أنْ عاد إليه خادمُه حاملًا رأس الحمار، وحكى له ما حدث، مكث في غرفته مُغتاظًا متوتِّرا، يلوم نفسَه على أنّه مسك حية من ذيلها فنهشته، بدلًا من أن يسحقَ رأسها ويتخلّص منها، فمصلح الآن قد مسكَ عليه ذلّة، وترفّع عن أن يحكي لأبيه، لذا لم يبق إلّا أن يفكّر في ضربة سديدة، ولا يهمّ إن كانت وقحة، حتّى لو ما فاز بثريا، حتّى لو ظفر بها آخر، حتّى لو ظفر بها الموت.

وفي نهار اليوم الثّالث من نزول جعيد، مال أحمد بشدّة إلى الرّجل الغريب الذي يبدو له ذكيًّا خبيرًا واسعَ المدارك، وأخذ يمرّ عليه رائحًا غاديًا وهو يرسلُ له رسائل استغاثة ساذجة بين كلامِه البسيط، راجيًا أنْ يقوم الرّجل الذي يبدو له عميقًا وشهمًا باختصار الطريق، وقد تركه جعيد يأكل نفسَه قليلًا، ثمّ فاجأه خلالَ جلسة بينهما في مساء اليوم: كأنّي أعرف من غريمك يا أحمد.

ومثَّل أحمد الضّيق، وقال بكلّ كبرياء إنّ مَن يضعه في رأسه يصير مِن مقامه، لذا هو لا يمكن أنْ يضع برأسه أحدًا هنا، وترك الرّجل فجأة وهو يشعر باللّذة من الطريقة التي عبّر بها، والرّجل العميق والشّهم قد بهت من هذا الرّد الذي يوحي بعمق الشّاب وصلابته على غير ما يبْدو عليه، ولم يكنْ يعرف أنّها عبارة عن نصيحةٍ من أبيه جهير علقت بذهنه وتركت فيه هذا الأثرَ السّطحي الذي لن يدوم.

عادَ بعد قليل، بعد أن تذكّر أنّه في حاجةٍ إلى رجل محنّك مثل جعيد يقتسم معه همّه، رجل يمتلك ميزة رائعة وهو أنّه غريب سيذهب وينسى، ولن يضرّه أن يكشف ضعفه أمامه، والأفضل أن يغتنمه قبل أنْ يرحل، عادَ ولكنّ الرجل لم يفتح معه الموضوع مرّة ثانية، كأنه لم يقلْ شيئًا، وأخذ أحمد يحوم،

والرّجل كأنّه لا يفهم حَوَمَانه، حتّى قال له أحمد الذي تعب من تجاهل الرّجل وتحفظه، قاصدًا أن يثير شفقته: اعتبرني ولدَك أو أخاك الصغير.

فقال له جعيد إنّ له هذه المنزلة بالفعل. ومدح نفسَه بأنّ عمره لم يمرّ هدرًا كما تمر أعمار الكثيرين، بل هو فوقَ علمه بالأعمال والتّجارات ومجالس الصلح، والحكمة والنوادر، طبيب للقلوب، وهو يعي جيدًا أنّ أحمد الذي يجلس معه الآن مصابٌ من مصابي الحبّ، وقع للأسف بين حبيبة وغريم، فانفرجتْ أسارير أحمد مثل كلّ العاشقين عندما يستهلّ أحد كلامًا عن المحبّة، ومسك يدَ الرّجل وهو يرجوه أن يذكر اسمَ مَن يحبّها، ويذكر اسم غريمه، كأن الاستماع لاسم مَن يثير حقده يثير عنده متعةً كذكر اسم المحبوب، فنطق الرّجل الغريب باسم ثريا، ثمّ قال إنّ الظّالم الذي يشاغلها هو مصلح.

وأحمد الذي كان مشغولًا بالبحث عن معونة، لم يبد أيّ انزعاج من أن يكون أمره مكشوفًا لرجل لم يمرّ عليه في الحيّ إلّا القليل جدًّا، بل على العكس من ذلك شعر بأنّ ربط ثريا به على لسان الرجل الغريب يعبّر عن استحقاق ما، أو عنْ إحراز. وقال: أنا أبحث عن طريقة تجعلها تنْساه بأيّ ثمن، فأنا عجزت في البحث عمّن يدبِّر معي.

وضعَ جعيد ساقًا على ساق، وأشاح بيدِه مستخفًّا: هذا أمرٌ أنا كفيل به، سأجعلها تنساه.

- كيف؟!

- أقابلك بليلِ الغد ومعي حلّ عقدتك.

- بل الآن.

- بل ليل الغد.

كانت سلطانة حتّى وهي تؤدّي مهامّ أمومتها، تفكّر في كيفية فتح طريق العاطفة بينها وبين زوْجها، وبدون اعتماد على الصّدفة، حتّى وهي في أعباء أمومتها وهي تضع قطرات من الزّيت في عين ولدٍ من أولادها، ويبكي من سخونة القطرات، ويضع رأسَه قليلًا على حجرها ثمّ ينطلق مع أخيه وأخته ليلعبوا جميعًا أمامَ البيت، تفكّر في هذه الحالة المسدودة بينهما، فأخوها مدين قادمٌ قريبًا، وهي تشعرُ بالحياء منه بسبب زواجها من مصلح؛ لكنّ هذا ما فعلته أمّي، وهي التي تعرف كيف تنهي أيّ شيء تريدُه، وأخي يستجيب لها في أيّ شيء مهما كان، أمّا مصلح فيجب أنْ يغيِّر ما بيننا، بل وقبل مجيء مدين، وإنْ بقي على خجله، سآخذ كمّي وأتغطّى به في بيت أهلي.

في المساء، كانت سلطانة تمشطُ شعرها النّاعم الطويل، وتفكّر مرّة ثانية، بعزيمة أنثوية أشد، ومشاعر أعلى صوتًا، ومرّت أمّها عليها، فحكتْ لأمّها بخجل شديد أنّهما يعيشان مثل أخ وأخته؛ منذُ متى؟ منذ أوّل يوم؛ فأخذت المرأة تفتّش عن شيء بجانبها تقذف به وجه بنتها، ولما لم تجدِ اكْتفت مؤقتًا بأن تشتمّها وتشتمّ زوجها الخائب الذي أهدرَ شبابها، وضيَّع بكرة الشيخ مدين.

عندما عاد مصلح لبيته ليلًا، وكانت زوجته ترتدي ثوبًا عنّابيًّا جعلها مثل زهرة من زهور الرّبيع وهي تجلس أمامه وقد غمرها ضوءُ القمر من النّافذة، عادت الأمّ لزيارة خاطفة، فوقفت اللّقمة في

بلعومه، لكن الأمّ لم تعاتبه على التَفريط في البكرة، بل جلست ورفعت ذقنها لأعلى، وقالت بغير أيّ مقدّمات: متى يا مصلح؟

- متى ماذا؟

فقامت المرأة وقرصتْ بنتها من خدّها الجميل، وقالت أيّ خوخ هذا! ومضت ومعها الأطفال الثّلاثة.

بعد قليل، كان مصلح وسلطانة يتنصّتان على جدار البيت، وهما واقفان هذه المرّة، لعلّ أحدًا ما يحاول أن يضع شيئًا، وكان هذا على سبيل (الاستهبال) منهما، فقد شعرا بسعادة سريّة من المرّة السابقة أحبّا أن يجرّباها مرّة أخرى، تلك السعادة التي يكون مصدرها أغنية عاطفية مفاجئة، وكانت المسافة مترًا واحدًا، وكان يغيبان في ادعاء التّركيز ثمّ يعاودان النظر إلى بعضهما بعضًا، نظرات ينسكب منها هيامُهما، واختصر مصلح نصفَ المسافة بخطوة واحدة حذرة، وسعد لأنّها لم تتراجع، وهيّئ له أنّ خفقان قلبها ارتفع لدرجة أنّه لا يستطيع أن يسمع شيئًا آخر، وأفاقَ من آخر أوهام الشقيقة الكبيرة، وكانت النظرات الأخيرة صريحة ومتعطشة، فمدّ يده ووضعها على خدّها كما فعلت أمّها، وكان سعيدًا جدًّا وهو يراها عاجزة عن الرد، ومستثارًا تمامًا وهو ينتبه معها لنشيج جوارحِها اللّا مسموع، وهي في سبيلها لانهيارها العاطفي الذي يشبه الإغماء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سرّ الزيارة

في تلك اللّيلة الجميلة التي حطّمت فيها البداهةُ ذلك الحاجزَ بين مصلح وزوجته، لم يتمكن أحمد من مقابلة جعيد حسبَ الاتّفاق، فأبوه قد منعه من الخروج وأمَرَه أن ينتظره لأنه سيبوح له اللّيلة بالمهمّة التي يريده فيها. وفي تلك الليلة كانت هناك جلسةٌ قد دعا إليها الشيخ حشاد عند مجلس الشّيخ غائب الذي صار غير مهتمّ بوضعه في الحي، وصار الالتفاف حوله ممّا يقتضيه الذّوق لا أكثر حتّى يحسم الموت الأمر، وكان الرُّجل يبدو كما لو كان مُندهشًا من اجتماع كلّ هؤلاء الرّجال الجادّين عنده، وهو يستوعب بصعوبة أنّه كان يجتمع بهم من قبل، لكن لا يعرف بشكلٍ جليّ الدّاعي الذي يدعو لذلك، كان وعيُه قد تدَهْور، لكن ليس للدّرجة التي يمكن أنْ يقال عنه معها إنّ الخرف قد ابتلعه، وصار يشعر أنّ الموت يقترب منه شيئًا فشيئًا، وها هو ذا أرسل علامةً على مجيئه، وهي أرنبٌ أسود ظهر في الأيام الأخيرة يلازم باب بيته، ويطيل النّظر إليه، ولا ينصرف إلّا إنْ وجد جمعًا من النّاس عنده، فإن تركوه عاد يرنو إليه مرّة أخرى، بنظرات جادّة محيّرة.

هذه الجلسةُ لم يدع لها الشّيخ حشاد مصلح، وتجاهلها جهير، الذي كان لديه ما هو أهمّ من ذلك. وجلس الشّيخ حشّاد العميمي يذكرهم بأنّ الجرْو قد تأخّر، ويذكّرهم بسمعته الرهيبة، ونظر ناحية الشّيخ غائب ليرى ردَّ فعْله على كلامه المُثير للقلق، كأنّه يحاول أن ينتشله ممّا يبدو أنه ينسحبُ إليه من ضياع الذّهن، وقال لهم إنّه لم يعدْ لديه شكّ في أنّ الجرو يطبخ لهم طبخة دسمة، على نار هادئة، وسيقدّمها لهم ويأكلونها جميعًا، وكان يبتسم وهو يقول ذلك، كأنّه يتكلم عن تفاصيل مباراة يشاهدها ويتمتّع بها، وقد هزّ الشّيخ غائب رأسه موافقًا، وإن كان الحضور لا يعرفون هل هو يذكرُ الجرْو الدّاهية أم يسايرهم لا أكثر بعد أن بدأ يعاني مِن تفسّخ في الذّاكرة، وقد سألهم في وسط الكلام بإعياءِ طفل، عن الرّجل الذي لن ينساه: لماذا لم يأت الشيخ جهير؟

فعرَّفهم الشّيخ حشاد أنّ جهير قد قال له منذ أوّل المساء إنّه سيذهب الليلة ليتفقد بنفسه الحراسة التي حول سجن الأمير همام، وكذلك فإنّه سيتفقّد وحده أحوال الأمير ويتحدّث معه، ورفض أن يرافقه أحد، ولم يبُح له بما ينوي الحديثَ فيه مع الأمير. وقد أثار الخبر دهشة الموجودين جميعًا، إذ إنّ هذه أوّل مرّة يذهب فيها جهير ليرى أسيرَه، وأخذوا يتساءلون فيما بينهم عن سر هذه الزّيارة التي لا يمكن أن تكون مجرّد زيارة خطرتْ على باله، فوافقهم حشاد الرأي وقال إنّه يرجو أن ينجح في التّفاوض مع أسيره لإنهاء هذا الأمر، دونَ أن ننتظر الجرو هذا.

كان الأمير همَّام في محبسه ينظر نظرةَ تعجّب للشّيخ جهير الذي يقف ويستند على الأسياخ في زيارته المفاجئة له، وينظر لأسيره بلطفٍ واقتدار، وكان يبدو على الأمير أنّه سمع من الشيخ حديثًا عجيبًا. وبعد فترةٍ من الصّمت قال: غريب أمرُك يا شيخ جهير!

جهير: ما ظننت أبدًا أنّ حديثي لن يروقَ لك، فلقد ظننت أنّ هذا العاقل الذي يقف أمامي يرغب في أنْ يطوي صفحة هذه الخصومة للأبد، لكن يبدو أنّ الأمير يشعر أننا أقلّ من هذا المقام.

همَّام: وهل أبقيت لي يا رجلُ مقامًا عندما ألقيتَ بي هنا ولم يكنْ بيني وبينك أيّ شيء يدفعك إلى هذا؟!

- يبقى الأمير أميرًا.

- وهل يرضى ولدُك أن يكون ذلك الأسير في قفص في الخلاء، ويمرّ عليه علية الناس والسّفلة- هو والد زوجته، ألنْ يخشى أن يعايروه بذلك؟

جهير: أنا أعرف أنّك رجل عاقل يا أمير الشّهوب، وهذا أمر سيّئ الحقيقة، ولكن تمحوه الأيام، وأنا أسرع من الأيّام في محوه. وهذا النّسب الذي أعرضه عليك أسرع ما يزيل هذا كله. ولو كان هذا المقام السيئ جالبًا للعار، ما رضيت لابْني وهو أغلى النّاس عندي أن يتزوّج بنتك، لكن ما وقعت فيه من الأسْر قد وقع فيه في التواريخ أبطال وملوك.

همَّام: إنك تجمِّل واقعًا شديد السوء.

جهير: أيّ رجل يمكن أن يغلَب على أمره ويؤخَذ أسيرًا، وقد وقع في الأسر والمنافي رجال أعظم منّي ومنك. وأنا أستطيع أن أجعلك تخرج من هذا الأمر مرفوعَ الرّأس أمام السارحة كلّها. أستطيع أنْ أدعو أكابر السّارحة إلى الحي، وأدخل القفص لأخرجك منه، بعد أن أبقى فيه معك وقت خطبة، أخطب في النّاس منه، واطلب الصّفح منك، وآخذ بيدك ونخرج إلى وليمة عظيمة. وثق بأنّ الجرْو لن يعطيك مثلَ هذا، وثقْ بأنّك بالحرب الطويلة لن تنال هذا مني ولو راح فيها نصف القريَتين؛ فخذْ ما أعطيتك وهو لك؛ أمّا مهر ابنتك فهو الذي يليق بمثلها، وتحدّده أنت بعد أن تخرج معزَّزا مكرمًا.

همَّام: أظنّ أنك تطلب لك الإمارة، ولابنك مِن بعدك، هذا كلّ ما تريد ولا شيء غيره، وهذا ما يجبُ أن يطلق عليك من وقت الوليمة، فأنت رجلٌ أسَرَ أميرًا ثمّ أطلقه، وزوّج ابنه من بنته.

جهير: أحسنتَ يا أمير، هو ذلك، بالفعل أنا أرى أنّ عقد صلحٍ مكتوبٍ فيه أنه بين الأميرين همام وجهير، ويشهد عليه رؤساء من كلّ بلدات السارحة؛ هو أفضل ما يكون لإعلاني أميرًا؛ ويكتمل قبول الأمر بين الجميع بأنْ تقبل تزويج ابنتك من ابني في نفس الجلسة، ولن يضرّك أو ينتقص منك أنْ يكون في النّاحية أمير آخر بينك وبينه نسب. وإنّي لا أطلب إلّا أن تتقوى بنا ونتقوّى بك، وتكون بنتك شيخة تزوّجت ممّن سيكون أميرًا بعد أبيه، ومن يومها لا يمكن أن بين البلدين إلّا السلام، وللأبد.

عندما فهمت أنّني أطلب الإمارة، أكّدت لي أنّك حقًّا واحدٌ من عداد الرجال الأذكياء في هذه النّاحية.

انتفخ الأمير قليلًا نفخة مَن يريد أن يعاتب، وقال: تقول عنّي: واحد من عداد الرجال الأذكياء في السّارحة؛ وفيهم الرعاع، ومجهولو النّسب، وفيهم الأشرار، وأنا أخاف أن تأخذ كلّ ما تريد ولا تحفظ لي مقامي، فمن تقف أمامه الآن هو أميرٌ قبل أيّ شيء؛ وهذا هو ما يفرقني في الحقيقة عن غيري.

ابتسمَ الشّيخ جهير: مقامُك محفوظ، وأنا أتعهّد بحفظه إلى الأبد بعد أن يتمّ المراد؛ وما يضمن لك هذا هو أنّي أحبّ لابني أن يكون حموه أميرًا مكرَّما. وأنت تقصد أنك أمير بالفعل، وبالوراثة، ولستَ ساعيًا مثلي للإمارة، هذا لا جدالَ فيه ولا عتب، وها أنذا أقولها: نعم، من يقف أمامي الآن هو أميرٌ قبل أيّ شيء، وهذا ما يفرقه عنّي؛ ولكن مَن تقف أمامه، لم يصدِّق ولو للحظةٍ واحدة أكذوبة العفاريت القرود التي مِن المؤكّد أنّ الجرْو قد لفّقها من أجل أن ينقذك.. وهذا هو ما يفرقني عنك.

ارتبك الأمير قليلًا، ثمّ تماسك وتظاهر بأنّه لم يفهم شيئًا، ورحمَه الشيخ جهير وهو يبتسم ولم يرغبْ في أن يضغط عليه.

وقال الأمير همام: أنتَ سحقتني تمامًا بأنّك لم تزرني أبدًا، وبأنك لم تتعطّف عليَّ بأي شيء طيلةَ هذه المدّة، حتّى تعرض ما تعرض فلا تجد إلّا هذه الدّهشة والفرحة، ويعز عليَّ أن أقول بسبب ما أنا فيه إنّني فرحت فعلًا، وأحبّ أن يتمّ هذا كما شئت.. غير أنّه لم يبق لي إلّا استفسار شديد الأهمية: هل سألت ولدك؟

جهير: ماذا؟!

همَّام: لعلّه لا يقبل، أو لعلّه يرغب في بنتٍ من بنات العمومة.

جهير: لو كان ابنَ رجل لا وزن له لتركتُه للحبّ، أمّا السّادة، فأمرُ الزّواج عندهم لا يتركونه للهوى، وأنا اخترتُ لابني اختيارًا لا مثيل له، وما أخذ رجل في النّاحية ابنه إلى شرف مثل الذي أخذت ابني إليه.

ابتسمَ الأمير همام فرحًا بهذا التّقدير الصّريح الذي يأتي من الرجل الذي أذله بغير داع: عني أنا فأقول لك إنّ بنتي ستوافق لو عرفت ما قدّمته لي، وولدك ما شاء الله لا عيبَ فيه، وسندبر معًا أمرَ وصول العرض إليها، ولكنْ حتّى لا تكسرني وأنا كسيرٌ كما ترى، تكلمْ مع ابنك وأهل بيتك قبل هذا، ومعك أربعة أيّام تبدأ من شمس الغد، تأتيان معًا في أيّ يوم من الأيام الأربعة، وإذا لم تأتيا في صبح الخامس سأنسى هذا الأمر كأنك لم تقله.

جهير: أربعة أيام؟! يا لصبْرِك يا أمير.. إنّني رجل إذا صعدت برأسي فكرة كانت مثل الحمى حتّى أفعلها.

همَّام: اسمعْ منّي أرجوك، أنا لنْ أفرط في كرامة بنتي، فيكفيني ما أنا فيه. بعد أربعة، لو لم تأتِني سأعلم أنّ ولدك رفض، فنسكت أنا وأنت كأنّنا لم نتهامس في هذا الشأن.. وتبحث لي عن مخرجٍ كريم ممّا أنا فيه؛ فقد تعبت.

جهير: أعاهدك. فقط انْتظرني ولا تنتظر الجرْو؛ فإنّ ما عندي خير لك ممّا سيأتي به الجرو.

همَّام: هذا صحيح فعلًا، ولكنْ كلّ الأمر من الآن عند ولدك. ولا تُكرهه؛ فأنا أقبل أن أموت هنا على أنْ يتزوّج بنتي رجلٌ يبغضها، وهي والله لا تستحقّ ذلك.

كان أحمد في البيت غاضبًا من أبيه الذي أحبط لقاءه بجعيد، وليس لديه أيّ فضول لمعرفة ما سيتكلّم عنه أبوه، ولمّا عاد الأب أخذه معه على الفور إلى حوش الإبل، وفيما كانا يتابعان عمليّة وسم بعض الإبل التي يقوم بها راعٍ، ولم يكنْ قد قال شيئًا، وضع يده على كتف ولده واستدار به ليمشيا، وقد بدا على أحمد القلق ممّا يبدو على أبيه من أنّه سيتكلّم في حديث شديد الأهمية، وقال الأب: ألم أقلْ لك يومًا ما إنّي بحاجة إليك بجانبي، في أمر لا يصلح له إلّا أنت، وإنّي أرجو ألّا تخذلني؟

- نعم، مازلت أذكر هذا.

- ألم تلحّ عليَّ يومها لتعرف الأمرَ فقلت لك إنّ السّادة لا يقولون شيئًا قبل أوان التّكلم عنه، حتّى مع أبنائهم؟

- هذا حدث.

- بيني وبين الإمارة أنت، وبينك وبين الإمارة أنت. الشّيخ غائب بن سلاف قد التوى عرقوبه، وقد نسمع خبرَه في أيّ وقت، ومدين العجمي سيعود قريبًا، وأمّه الشّمطاء تعد بالحبوب هدية للبيوت الفقيرة، وأوْلى الناس بالشّياخة في هذا الحي هم أبناء طوق، وأنا شيخ الحي مهما توهّموا، ولكنّي نظرت في أمر نفسي، فوجدت أني أستحقّ أن أكون أميرًا لا شيخًا. وأنا أسرت أميرًا، فإنْ حرّرته بغير فدية، وصالحته، وزوّجت ابني من بنته، أكون أميرًا مثله، وخاصةً إذا ما شهد على كتاب الصّلح رؤساء الأحياء كلّهم الذين سأدعوهم، وتكون شهادتهم على الصلح التي تلزمني أنا والأمير همام بما فيها، هي أيضًا شهادة لي بالإمارة تلزمهم جميعًا. وقد عرضتُ الأمر على الأمير همَّام، ففرح ووافق، وأعطاني وإيّاك مهلة أربعة أيام، لأنه يريد منْك أن ترحّب بتلك الزّيجة. فانظر في الأمر جيدًا لن تجدني إلّا رفعتك؛ وقد قيل عن هذه الشّابة إنّها لا مثيل لها في الجَمال في السّارحة كلها، تتزوّجها، نصير أبطال السلام كما كنا أبطال الحرب، ونحكم في التجارة مع الشهوب.. خيرات ربّك يا أحمد، سمن، وعسل، وتين، وزبيب.. وغيرها وغيرها.

بلع أحمد ريقه، مشفقًا على نفسه من مسئولية يريد أن يتهرّب منها، وقال: كيف ستعلو على الشّيخ غائب وهو حيّ يرزق؟

- أنا لا أحمل همّه ولا همّ مدين، ولا بأس في أن أكون أميرًا وهو شيخ متهالك كما هو، وهو يعرف جيدًا أنّني في الحقيقة أكبر رجل في الحي.

- ولكنّها في العراقيب.

- وستنتقل إلينا... والشيخ غائب آخر شيوخهم.

- ومدين الذي سيعود قريبًا رجل محبوب.

- النّاس أشدّ حبًّا لي، فأنا عندهم رجلٌ اصطنعه الله لأمر... هذا المحبوب الذي تتحدّث عنه قد أرسل البكَرَة البلهاء إلى مصلح فجعل الناس يبغضونه، أمّا أنا فجعلته يأسر الأمير فسموه فارسَ الفرسان، فانظر ماذا فعل بمصلح وماذا فعلت أنا حتّى تعلم أيّنا أحقّ بالرئاسة.

يزفر أحمد ولا يردّ، فيقول له أبوه: ما لي أراك رخوًا هكذا لا عزم لك؟! ماذا قلت؟

سكت أحمد قليلًا وهو خائف من أن يعلنَ رفضه: أجل، هو أعطاك مهلةً فلا نتعجل.

فقال جهير بتهديد: أحمد.

أحمد: إن شاء الله خيرًا.. لا تحمل همًّا.

جهير: ولا بدّ يا أحمد أن تفهم أنّني شجّعت مصلح على أن يأسر الرجل لأجل هذا اليوم؛ حتى يقبل الأمير بك عريسًا لبنته، ولوْلا الأسر ما قبل بهذا أبدًا.

أحمد: لم يخطرْ ببالي أبدًا ما فكرت فيه، ولا ظننت أبدًا أنّ ذلك الراجل الذي أودعته في القفص هو رجل تجهّزه لكي يقبل بزواجي من بنته.

جهير: لعلّه يحزّ في نفسك أنّ حماك أسير؟

أعجب أحمد بهذه الفكرة التي لم تخطرْ له على بال: هذا صعبٌ يا أبي، أخاف أن يعايرني النّاس ويعايروا أولادي من بعد ذلك بجدهم.

جهير: أنا سأرفع عنه ذلَّ هذا الأسر، هذه عندي، وأنا أعلم كيف أفعلُ هذا. أما أهلنا الذين فرحوا عندما أسرناه، سيفرحون عندما نجلبُ السّلام بهذه الطريقة الحكيمة التي لا خشية معها من الأيام. وإن كان هناك بعضُ المخرّفين الذين يظنون أنّني غامرت بأهلي وبلدي، وينتظرون ما يشفي غليلهم، فسيخسئون للأبد عندما يروْننا وقد صالحنا الرجل وظفرنا بهذه الزّيجة.

الشّيخ غائب الذي يفتش عن جدواه، والذي شعر بشيء من الغيرة عندما سمع بأن الشيخ جهير قد زار الأميرَ اللّيلة، وقد توقّع أنّه سيفرج عنه بنفسه، رغبتْ نفسه في أن يكون له دور، ولو أنْ يسبق غريمه إلى قرار الإفراج عن الرّجل ولو بساعة، وأخذ يتخيّل بسعادة غامرة أنه أمر الحرّاس بكسر قفلِ الأمير همام، بصوتٍ شديد، فهرعوا إلى القفل يكسرونه دونَ أن يسألوه عن رأي جهير، واحتضن الأمير الذي خرجَ متهلّلًا واعتذرَ له عن تأخّره في المجيء إليه بسبب توعّكه.

وقد استبدّ به الهيام الذي أجّجته تلك التّخيلات، فقام بعد قليلٍ في صحوة ليلية جميلة، في نفس اللّيلة التي زار فيها الشّيخ جهير محبسَ الأمير، وجعل خادمه يقصّ أظافره، وارتدى ثوبًا قطنيًّا ناعمًا يضيف إلى هيئته الطّاهرة المزيدَ من الطّهر، وأرسل طرف عمامته من ناحية اليمين مما منحه لمسةَ أناقة لفتوّة طيب معجب بنفسه، وتعطّر بأحسن عطره، ومضى على قدميه ومعه خادمه الأبكم الأصمّ، بعد أن توقّف عن السّير على قدميه لأيّ جهة منذ سنتين، ومضى منتعشًا وهو يشير لخادمه أنّه يمكن اختصار الطريق للسّجن عن طريق المرور في العاقولة، فقد أراد أنْ يصل إلى هناك دونَ أن يمرّ على أيّ ناحية يسهر فيها الناس، وكان حديثه إلى الخادم عن الوصول للسّجن واتّقاء طرق الناس خاليًا من استخدام الإشارة، وشبيهًا بحديث الإنسان إلى نفسِه لا أكثر. حسنًا، هيّا إذن نمضي قُدُمًا باتّجاه الشّجرة المقطوعة التي كان يقال عنها في الصّبا إنّها تكلم الناس، ها هي، كنت أخاف منها في صباي، ومن ملك الجنّ الذي كان يربط في جذعها دابّته، دعْنا ننحرف يسارًا، هذا يجعلنا قُبالة السجن، تمامًا قبالة السجن.

مضى الشّيخ كما قال، والخادم الذي معه لا يزال يجهلُ وجهتهما، ونظر الشّيخ أمامه ولم يجد السّجن كما توقّع، فارتاب وأحبّ أن يتدارك الأمر، وأعاد تكوين الحي ونواحيه في ذهنه بسرعة، في ضباب الشّيخوخة المستفزّ، معتمدًا على نفسه، رافضًا بكلّ كرامة أن يطلب من الخادم بالإشارة بشكلٍ صريح أن يدلّه على السّبيل إلى السجن، ولم يكن قادرًا على الاعتماد على بصَره الذي ضعف عن تمْييز الأشياء البعيدة بما فيها الجبل نفسه، إنه يشقّ طريقه بالبصر ليلًا في العشرة أمتار التي أمامه لا أكثر. ورأى أنّه ربّما يجب أن يرجع قليلًا ثمّ ينحرفُ لليمين، فرجع وخادمه بجانبه لا يقترح أيّ شيء، لأنّه لا يعرف ما يريد الشيخ، وانحرفا لليمين، ونظر أمامه ولم يجدْ شيئًا، وصدمته العتمة وبرودة الخلاء، وانحرف للجهة المقابلة ولم يجدْ شيئًا أيضًا، وانْهارت معنويّاته وصدم في نفسه، وأيقن أنّه عاجز

تمامًا عن تحديد الاتجاهات، وغلبه الشعور بالعجز، وازداد جزعه، وازدادت خصومته لنفسه. وأخذ من باب التّدمير الذاتي، يتخيّل أنّه بمفرده في هذه الضّلالة، وأنّ الخجل قد غلبه وامتنع عن المناداة لطلب المساعدة، حتّى نام ضائعًا بين الديار في ستر الليل، ثمّ جاء الصبح وفضحه وحمل الشّبان شيخهم التّائه إلى فراشه مهزومًا. وبعد أن تأذّى كثيرًا من هذا التهكم المتهور الذي لا تتحمّله نفسه الرّقيقة الموجوعة، خضع واستعان بالخادم، وأشار إليه بكلّ غمّ بأن يقوده إلى البيت، قال كلمة (قدْني) بلهجة يذلّ بها نفسه ويوبّخها، فهزّ الخادم رأسه ومضى به بغير أيّ حيرة، بينما كان هو يمشي بجانبه مُسرفًا في اللّوم على نفسه، كارهًا ثوبه، كارهًا شذاه.

وبعد أنْ دخل بيته، كان هدوءُ الليل يحمل صوته، تمامًا مثل تلك الليلة التي أرعب فيها الغجريّ المتسلل. وقد تغيّرت نبرتُه وعلاها صفاءٌ مباغت لروح تخاف من الهزيمة، وأخذ يقول بصوتٍ عال: إنّ هذا الرجل ليس مكتوب له على ما يبدو أنْ ينجيه الله على يدي.

وضرب كفًّا بكفّ، وأخذ يعبّر عن استغرابه الشديد من أنه ضلّ في الطريق ولم يهتد إلى السّجن، كأنّه مصروف عن أنْ يجده: والله، كما أقول لك، شمالًا ويمينًا وهنا وهناك، ولا فائدة، كأنّه لم يكن هناك سجن.

فانبعث ذلك الصّوت المشابه، وبذات النّبرة الباردة المتندرة، بكلمة واحدة فقط: ربما.

فردّ الشيخ: أتقول: ربّما؟! وهل تظنّ أيّها الغبي أنّني أضلّ الطريق في حيّ أنا شيخه؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الناقتان المُضيئتان بالليل

صحوةُ الشّيخ غائب التي تزيّن فيها، وتعطَّر لفكّ الأسير، ثمّ رجع وقد خاب أملُه في نفسه، تلك القفزة العاطفيّة، قد حطَّمت عظامه، لقد جعلته يواجه- رغمًا عنه- ضعف مقوماته، وتراثية وجوده. لم يعدْ عنده طاقةٌ للهروب من تلك الكآبة التي تطارده منذ أن خرج للنّور، بعد كلّ هذه السّنوات من الأمل المجهد، الآن، استسلم للإيمان بأنّ والده سلاف لن يعود أبدًا. لما نطقها لنفسه صريحة شعرَ بوجيبٍ داخلي، كصوت حجر ألقي في بئر لا قرار لها.

لقد أفاق أخيرًا، وفي سوْرة غضبه، من الخيالات التي كانت تطوفُ به بغير موعد. لقد حدث هذا الجلاء الكئيب، في نفس اللّيلة التي عاد فيها من متاهته وهو يبحث عن سجن الأمير، عندما أرجعَ فشله في الوصول إلى السّجن إلى أنّ القدر لم يكتب للأمير الحرية على يديه، ثمّ ارْتعش من الغضب على ابنه الشّاب الذي قال متهكّما: (ربّما)؛ لقد ظلّ يدافع بشراسة المنهكين عن وجهة نظره، لوقتٍ طويل، وبعد فترةٍ من الصّمت وهو ينتظر أن يرحمه ابنه بردٍّ طيب، فوجئ به يعيد نفسَ الكلمة: (ربّما)، عندها استبدّ به الغضب المهلك، وانتقم من ابنه بأنْ قال له أقسى ما يمكن أنْ يُقال: (أنتَ لا وجود لك)؛ فماع طيفُ ابنه وارتعش من القول الثقيل، وسرعان ما غاب صوتُه للأبد، مثلما تغيّبت في الماضي زوجتُه عن زياراتها العصبية له في الأحلام بعدما أخبرها أنّه يفكّر في الزواج.

ابنُه الصّغير من زوجته التي توفّيت في الولادة، الذي كان يسمّيه: خِلْفة العجوز، كان متعلقًا بخاله، وهو يشبه هذا الخال في كلّ شيء، كأنّه ولده، وهذا الخال الذي تعلّق به الطفل منذ سنواتِه الأولى، كان شابًّا قد خرج عن طوع أهله وتزوّج من شابّة من واحة الشهوب أحبها، ولم يفلحْ أيّ تهديد ولا رجاء معه ليثْنيه عن الزّواج من خارج العشيرة، وهي زيجات قليلة، وممّا زاد انفصاله عن جماعته وجعله شخصًا لا وزنَ له هو أنّه احترف صباغة الأنسجة، وفتح لنفسه مصبغةً في الواحة مخالفًا أعرافَ أهله الذين يأنفون من الحرف والصنعات. وكان الصّبي- الشّديد التعلق بخاله- يذهب كثيرًا لزيارة خاله، والعيش معه عدّة أيام في الواحة، مُعربًا عنْ إعجابه به، وبعمله، وبتفاصيل حياته البسيطة، ومعبِّرا في ذات الوقت عن لا مبالاة بشجرةِ العائلة والأمجاد العريقة، ممّا جعل الشيخ غائب يشعر أنّ ابنه قليل النخوة مثل خاله، بل وشعرَ أنّ ابنه يبتغي أن يتحرّر منه تمامًا، فهو يعتبره عقبةً في سبيل العيش للأبد في كنف هذا الخال. وفي كلّ مرّة يرسل الشيخ غائب خادمًا ليأتي به، يتوسّل الطفل للخادم أن يتركه مع خاله أيًّاما أخرى، ويبكي بكاءً شديدًا، فلا يملك الخال أمام هذا الحبّ إلّا أن يقول إنه سيعود به بنفسِه بعد أيام، وكان الشيخ يعامل الخالَ معاملة طيبة، معبِّرا عن فرحته بحب هذا الرجل العاقر لابنه، وإنْ كان يشعر بالغيظ والتحفّظ لكون ابنه يفضّل عليه خاله تفضيلًا جليًّا محرجًا.

وقد ماتَ هذا الخال فجأة، بغيْر أوجاع؛ وقد كان لهذا الموت وقع الصّاعقة على الطفل، حتى الشّيخ صدم أن يكون هذا الطّفل الذي يشعر أنّه فقير النفس، يملك كل هذه القدرة على الشعور بالحزن. ومكث الطّفل هناك يبْكيه بكاءً حارًّا، ويحتضن ملابسه، ويقف على قبره يناجيه، وينتظره عند عتبة دكانه، لعلّه يغافل الموت ويأتي. وفي اليوم الخامس من بعد موته، جلس وقتَ الظّهيرة تحت شجرة نبق كان يجلس تحتَها مع خاله، ثمّ خلع ثوبه وألقى بنفسه في النهر وهو لا يعرف العوم، تاركًا أباه لهذا الزّلزال العنيف.

مراعاةَ لمشاعر الشيخ، كان يُقال في الواحة وفي الحي إنّه ربّما حاول تعلم العوم وغرق، ولم يكنْ أحدٌ يصدّق- ولا الشّيخ نفسه- أنّ الطّفل أحبّ أن يروِّح عن نفسه في فترة الحزن تلك بتعلم العوم، ولكنّه تقبّل منهم هذا التّفسير بروح جريحة ممتنّة، فقد كان من الصّعب أن يقال صراحة إنّه انتحر بسبب حبّه للخال، وكراهيته لحياة ليس فيها.

وما حدث بعد سنواتٍ قليلة من هذه الحادثة المؤلمة، هو أنّ الشّيخ كانت تأتيه حالات متقطعة يتخيّل فيها وجودَ هذا الابن، ويتكلّم بلسانه، وبطريقة تناسب سنواتِ العمر التي له لو كان بقي على وجْه الحياة؛ كان هذا الوهْم لا يخلو من ضبط عجيبٍ للعمر، لقد نما الولد في أوهامه عبر أيّام كأيام الأحياء، ولا أحدَ يعرف السبب الذي جعله يتخيّله مستفزًّا له هكذا في شبابه؟ هل رغبته في حفظ نفسه من تأنيب الضّمير جعلت ابنَه ينمو في عقله الباطن على هذا النحو من العقوق والفشل في الانسجام مع الأب مثلما كان حالُهما معًا من النّفور المتبادل؟ هل يريد أن يحتجّ على انْتحاره ويوبّخه عليه بهذه الطّريقة؟ هل صار يحبّه ويأنس به وهو بهذه الطبيعة المخالفة؟ الشيخ لا يدري.

كانت هذه اللّيلة الطّويلة شديدةَ السّوء على الشيخ غائب، وعلى أحمد بن جهير أيضًا، الذي لم ينمْ تقريبًا، إلّا قطعًا من النّوم فيها رهبة وسوداويّة وضياع، وقد أحبط أبوه محاولتيْن للخروج ليلًا بعد عوْدتهما، تحسُّبا من أنْ يرمي الخبرَ الثقيل لأحد، وأكّد عليه أبوه أنّ هذا الأمر شديد الحساسية، ولو أفشاه فسيعاقبُه بالزّواج من أشدّ بنات الحي بشاعة. ادّعى في المحاولة الأولى حاجتَه للتمشّي وشمّ الهواء الطلق، وفي الثّانية ادّعى أنّ حمار النوم هو الذي حمله إلى خارج الدّار، لا هذه ولا تلك دخلتْ على الأب، فأعاده إلى فراشه بلهجته الحازمة.

وعندما جاءه فرج الصّبح لم يغسل وجهه، وانطلق على رجليه والرّياح تضرب ثوبه ليستنجد بجعيد، فابتسمَ له جعيد وهو يسأله مازحًا؛ جئتني من غير أنْ تغسل وجهك؟ فرد عليه أحمد: غسلتُ وجهي بها لمّا اسْتيقظت، فقد شعرت أنّي أراها. وجلس هو وجعيد تحت العريشة يسمَعان صفيرَ الرّياح، وقد لثما وجهيْهما، وقد سأله جعيد عما منعه عن القدوم إليه ليلًا كما اتّفقا، فحكى له أنّ أباه قد تكلّم معه في أمرٍ مذهل لم يكن يتوقّعه أبدًا، وقد قلق أبوه من أن يبوح بالسّر لأحد؛ لذا منعه من الخروج ليلًا، ولم ينلْ حريّته في الصّبح إلّا بعد أن حلف لأبيه بالله ثلاثًا أنّه لن يحكي لأحد من أهل الحي عن الحديث الخطير الذي دار بينهما، وهو سيحكي له الآن فهو ليس من أهل الحي، وألقى بالخبر الغريب على مسمع جعيد، ونجح الرجل في إخفاء بعض شعوره بالصّدمة والتوتر، لكنّه تقاسم مع أحمد شعورًا واضحًا بالهمّ، وقال لأحمد بلهجة مستنكرة أنّ أباه قد قلب الدّنيا هكذا بهذه المفاجأة التي لا تردُ ببال أحد، ولمّا سأله أحمد عن حلّ سريع، حلّ أسرع من هذا الأب، لأنّه مازال متمسِّكا تمامًا بثريا، ولا يريد بنت الأمير مهما كانت رائعة الحسن، شردَ جعيد قليلًا ثمّ عبّر عن استحسانه لما قاله أحمد لأبيه ومن طلبه لمهْلَة، وقال إنّ الأفضل أن يؤخّر ردّه على الشيخ جهير إلى آخر يوم، لعلّ جديدًا يجد في الأمر ولو من ناحيةِ الوالد نفسه، وأوصاه بأنْ يقنع أباه بأنْ ردّ الموافقة يجب أن يعطى للأمير في صبح اليوم الخامس من باب الثّقل والرصانة، ورأى أن الشيخ سيعجبه ذلك.

وقد كان أحمد المتيّم بثريا، والحاقد على مصلح، يرغب في أن يجدَ حلًّا لجعل ثريا تكره "مصلح" أكثر ممّا يرغب في إيجاد حلّ للتهرّب من الزيجة التي يعرضها أبوه، ذلك لأنّ الأمر لو تأزّم يستطيع

أن يحرن ويعاندَ مثل بهيمة، ويتحمّل الدّفع والسّب والتنكيل والإهانة، لكنه لا يستطيع أن يضع خطة ذكية وشريرة.

أحمد: هل وجدتَ لي حيلة؟

جعيد: الحيلة التي عندي هي السّلاح الذي له حدّان، تفسد هذه الزيجة، وتجعل "مصلح" شابًّا بغيضًا، لكنْ أتمنّى لو تعفيني، فإنّ ما عندي يحلّ لك هذه العقدة تمامًا، غير أنه مشين، وأخاف أنْ أسقط من نظرك إذا قدتك إليه.

أحمد: لن تسقط يا رجل مِن نظري أبدًا، فأنا كغارقٍ إلى الصدر في بحر من الرّمال، أخرجني بأيّ معرّة.

- هل تعي ما تقول؟

- نعم.

جعيد: إذًا، فلتعلم أنّ الأمر يحتاج إلى سحْر تفريق وبُغض، يجعلها تكرهه ولا تطيق سماع اسمِه، ويكون عندها أقذرَ من خنزير، وفي نفس الوقت سحر صرف، يجعل الأمير يصرف قلبَه عن هذه الزّيجة ويتوجّه أمله في الحرية إلى سبيل آخر.

- أمعقولٌ أن يفعل السّحر كلّ هذا بسرعة؟

- نعمْ يفعل، ولكنْ أظنّ أنّ الحماسة دفعتك لأنْ تقول إنّك تقبل بأيّ حبل يرمَى إليك، كي تخرج من بحر الرمال، ولكنْ ربّما عندما تعود إلى فراشك وتنفرد بنفسك يأبى ضميرك أن يستجيب لك، ويقول لك إلّا السّحر الأسود.. كما أنّني في الحقيقة أتورّع عن ذلك. (وبنبرة أسف أكمل كلامَه) وهذه محبّتك جرّتني للكلام فيما لا أحبّ الكلام فيه. قمْ رضي الله عنك وانْسَ ما قلته لك.

أحمد: لا بأس بالسّحر الأسود.. دلّني على الساحر الذي تثق به.

جعيد: إنّي أعرف الذي يجعلها لا تطيق وجهه، ويجعل أباها يزهدُ فيك ويرضى لنفسه حلًّا آخرَ للخلاص، ولكن مازلت أرغبُ في أن نبحث عن حلّ آخر، حلّ آخر أقلّ إجرامًا، حلّ لا يجعلك تتغير عليَّ.

أحمد: أرجوك يا عمّ جعيد.. أرجوك.

وضع جعيد وجهَه الملثّم في كفّيه طويلًا، ثمّ رفعه وقال بنبرةِ رجلٍ مغلوب على أمره: إذن تقابله اليومَ قبل المغرب عند هدْم الفراعين، الذي بعد ممرّ الخريت، تجده جالسًا عند التابوت الذي من حجر السمَّاق، لكن لا تحكِ لأحد، مهما كان، ولا يرافقك إليه أحد، فهو يقابل من يحتاجون إليه بمفردهم، ولو ذهبتَ حتّى أنا نفسي معك سيتركُنا. واتركني الآن وعشْ بعيدًا عنّي على السجية، وأنا سأذهب إليه.. وعندما تعود من لقائه، عدْ هادئًا حتى يطمئن إليك أبوك.

وطار جعيد لملاقاة الجرْو، وهو ملثّم الوجه، مضى حتّى تخطّى الواحة، ثمّ مرّ مِن طُرق خافية، حتّى لا يكتشف أيّ أحدٍ ولو بالصّدفة من أهل الحي أو مِن زوّاره دخوله الواحة، ووصلَ إلى الجرْو عند

مقبرة الشهوب حيث كان ينتظره، وأبلغه أنّ أحمد سيذهب اليوم عند هدْم الفراعين، قبل المغرب، ويجب أنْ ينتظره قبل المغرب عند التّابوت الذي من الحجر السّماقي الملقي أمام الهدم؛ وأخبره كذلك قبل كلّ هذا بالخبر الصاعقة.

الجرو: أحسنت.. وما تأخَّرت يا جعيد!

جعيد: لو أمْهلتني أيامًا أخرى كنت تزوّجت منهم.

الجرْو: هذا الخبرُ الذي قلته لي ما كان لنا أنْ نعرفه لوْلا أرسلناك. أنت قدّمت أكثر ممّا نريد. عدْ سريعًا واجمعْ ما تبقّى من السمن، وأنا سأرسل لك مَن يدّعي أنّه خادمك، وأنك يجب أن تمضي لأمر يخصّ تجارتك، واتْركهم بغير وداع؛ فما عاد الوقتُ ملكنا، وها هو ذا جهير قد طلبَ من الأمير همام فديةً فوقَ كلّ فدية! وأنا الآن في سباقٍ مع ذلك الرجل، وواحدٌ منّا سيخطف الأمير قبل الآخر.

وقبل المغرب، كان أحمد يتقدّم بحصانه، بثوبٍ أسود، وسروال أسود، حتّى لا يحرج السّاحر بالملابس البيضاء، حتى وصل إلى المنطقة الواسعة التي تتناثر فيها أحجار من حطام معبد فرعوني، وأعمدة مهشّمة ملقاةً على الرّمال، وقد كان هناك بالفعل رجلٌ يجلس على حافة التّابوت المفتوح، وظهرُه إليه. أخذ أحمد يقتربُ ببطء وهو يشعرُ بالقلق من الانفراد برجل من كبار السّحرة. وألقى السّلام بكلّ أدب، فالتفت إليه الجرْو بكلّ ثقة وبرود.

ففوجئ أحمد وامتلأ وجهُه بالشّعور بالغضب والكبرياء: هو أنت؟! أرجعُ إليك الآن يا جعيد الكلب.

الجرْو: ارجعْ إليه لن تجدَه، ولا تبحث عنّي من بعدها فهي الفرصة التي لن تتكرّر، والسحر الذي عندي لا يوجد عند ساحرٍ على وجه الأرض. وإنْ أنت مشيت فعشْ بالحسرة على مَن تحبّها إلى الموت.

قال أحمد بعصبيّة ليقاوم الإغراء: أنتَ لا أمان لك.

الجرْو: أنت لن تتعرّض للخديعة، وكلّ ما قاله لك جعيد عندما طلب منك أنْ لا تتغيّر معه بعد ما تعرفه هو صادق فيه، وستعرفه منّي. أنا جئتُ لأعرض عليك خدعة تفيدك وتفيدنا، ولا يعرفُها الأمير همام. إنّك علمت من والدك أنّ الأمير ليس عنده مشكلة في قبولك زوجًا لبنته، وأبوك متحمّس لذلك كثيرًا، بل وفعل كلّ هذا من أجلِ هذه الزّيجة، وعمّا قريب سيخرجه من السّجن بطريقة كريمة، ويستضيفه خيرَ استضافة، وتتزوّج بنت الأمير.

الحقيقة هي أنّك أنت مَن سأخدمه، أكثر من الأمير نفسه، فالأمير قد رضي بهذه الفدية الغريبة، ورضي بأن يتمّ الأمر على النّحو الذي يريده أبوك. وأنا جئت لأنجدك مِن تدبير أبيك وأعْفيك مِن هذه الزّيجة، وفي ذات الوقت أجعل ثريا تكرَه غريمك، جئت بالصّرف والتفريق، فإنْ لم تكنْ شاريًا تركتك.

كان قد بانَ على وجه أحمد أنّه غير قادر على المقاومة، وأنّ به فضولًا شديدًا لكي يعرف الطّريقة التي جاء بها داهية الصّحراء الجرو.

فقال الجرْو بتمنّع وثبات: إنْ كان رأي أبيك فيه ما يغريك فلا بأس، وأحبّ أن أبشرك بأن بنت الأمير أجمل وأرقّ شابّة في الواحة، ولو كنت في محلّك بصراحة لاخترت ابنة الأمير، فاترك ثريا لمصلح، وأنت الرّابح.

أحمد: بل الربح ثريا.

الجرْو: أبوك لم يجد عندك عزمًا، وأنا مثله لم أجد عندك عزمًا؛ لذا فيليق بك أن تتحسر بمفردك.. أتركك الآن.

أحمد: لا تتركني أرجوك؛ فثريا أو الموت.... ماذا عندك؟

الجرْو: في آخرِ ليلة من ليالي المُهْلة تكون قد جعلتَ أباك يطمئنّ تمامًا إلى أنك تتعجل الصبح لتذهب معه للأمير وتَعْطياه الموافقة، وفي ذات الليلة الأخيرة يدخل الحيّ رجل على صورة صانع أقفال ومفاتيح معه عدّته، يسأل الحرّاس وغيرهم عن بيت مصلح العرقوبي، وفيها تلك اللّيلة، ومن بعد قدوم صانع الأقفال وخروجه بساعتين، سآتيك ومعي رجلٌ مهبول لا يعرف أينَ وضعه الله، يرتدي عباءة، ومن تحتِ العباءة ثوبًا يطابق ثوبَ الأمير الأحمر بما فيه من اتّساخ وتمزيق، وتصرف عنّا الحراس، ونذهب ناحية القفص بينما يكون اللثام على وجهي حتّى لا يعرفني أحد، وأسعل حتّى يظنّوا أنّني مصاب بالبرد، ونطلب من الأمير أن يقف ملتصقًا من الدّاخل بناحية انفراج الباب، ونوقف المهبول أمامه عند انفراج الباب من الخارج، وبخفّة وسرعة أُسقِط العباءة عن المَهبول وأنا خلفه وأضمّها في يدي، ونفتح القفل بالمفتاح الذي سيكون معي، وفي لحظات ندخل المهبول بالثّوب الذي يطابق ثوب الأمير ونخرج الأمير ونرمي عليه العباءة، دخول هذا وخروجُ ذاك في زمن عطسةٍ قويّة، يبدو المشهد من بعدها لمَن يقف حتّى على بعد عشرة أمتار كأنّ شيئًا لم يتغير.

في الصّباح، تقول لوالدك هيّا نعطي الأمير الموافقة، تجدان المهبول محلّه، تدقّ على الأسياخ بقبضتك من الصّدمة، وبعدها بيومين تصلكم قصيدةُ شاعر الواحة يقول فيها إنّنا قد فدينا الأمير بالذّهب الرّنان دفعناه لمصلح العرقوبي ففتح قفل السّجن، ووضع ذلك المهبول محلّ الأمير، هذا وقبل أن تصلكم القصيدة سيقول الحرسُ إنّه لم يحدث أيّ شيء مريب غير قدوم صانع مفاتيح وأقفال ليسأل عن بيتِ مصلح، وسيردد نفس الكلام رجالٌ آخرون قابلهم صانع الأقفال. هكذا أكون قد صرفتُ الأمير عنك، عندما يجد الحرية على يديك وبغير زواج، وهكذا تكره ثريا وتكرهون جميعًا ذلك الشّاب الذي باع أهله مقابل الذهب.. وبعدها لا أظنّ أنّها ترفض شابًّا مثلك.

انكبّ أحمد عليه يقبّل رأسه وخدّيْه: جعلك الله في الجنّة يا شيخ!

واستمرّ أحمد وقتًا يمدح في الجرْو، ويدعو له ولأهله، والجرو مبتسم، وتراجع بظهره كنوع من الأدب أثناء الانصراف، فضحك الجرو.

وبفضول وإعجاب قال أحمد قبل أنْ ينصرف: هل تأذن لي أنْ أعرف كيف جعلت الكلب الهيِّن يتحوّل إلى كلب عنيف عقور حتّى قتله صاحبه؟

: لا بأس، طالما أنّنا شريكان في مؤامرة جليلة كهذه، وطالما أنّك لن تقدر على أن تقول إنك جالستَ الجرْو يومًا ما: أنا يا صاحبي أغيَّر الناس لا الحيوانات، لقد حذّرت الرّجل من أنّ كلبه سيتوحَّش، وأنا

غير مسئول عن أيّ ضرر يتسبّب فيه إن مزّق أحدًا ما بأسنانه، فخرج الرجل وتحدّث إلى أصحابه عن كلبه الذي صار مصيبة في غرفة من غرف البيت المظلمة، ولما عاد إلى بيته لم يستطع النّوم طوال الليل، وكان يسمع في نباحه نذرًا لم يسمعها من قبل، فتسلل إليه وقتلَه، وتولّى النّاس بخيالهم الكلام عن الأخْطار التي بدتْ عليه، وعن النّاس الذين هاجمهم.

دخلَ الجرْو والمعتوه الحيَّ من خلف أحمد الذي يقود حصانه، على ناقتين شديدتي البياض، ناقة المعتوه تتبع ناقة الجرْو، فهُرِع إليهم أحدُ الحرس فعرف أحمد حتّى من قبل أن يصل إليه، فتوقّف وتنحّى عن الطريق وانحنى قَليلًا، فقال له أحمد إنّهما ضيفان معي، وسيخرجان بعد قليل، والنّاقتان كما ترى بلونٍ أبرص، كأنهما يضيئان بالليل، فلا تزعجوا الشيخين أبدًا. وسأله عن الأخبار والزّوار، فقال إنّه لم يخرج أحد، ولم يأتِ أحد، غير صانع أقفال قد جاء وسأل عن مصلح، ومشى منذ وقتٍ قليل، فهزّ أحمد رأسه معبِّرا عن ارتيابه بطريقة مبالغ فيها، وأشار للحارس كي يعود إلى مكانه.

وواكبَ الجرو أحمد حتّى يبدو دخولهم طبيعيًّا، وقال له لا تخفْ؛ فإنّ العبيد يزنون الكلام قبل أنْ ينطقوا به، إنِ ارتابوا فيك وفي ضيفيْك غدًا عندما ينتشر خبرُ تحرير الأمير، واختاروا السّكوت، قطع والدك لكلّ واحد منهم أذنه ووضعها في كفّه، جزاءً على غفلتهم؛ وإن ارتابوا فيك غدًا واتّهموك، وضع أبوك لكلّ واحد منهم في كفّيه رأسه، جزاءً على اتّهامهم لابن سيدهم بالخيانة.

كان الأمير جالسًا في تلك الليلة، وهي آخرُ ليلة من ليالي المُهلة على الأرض في سجنه، حزينًا لأنّ الشّيخ لم يزره ويبشّره بالموافقة، وقد تعلّق بهذا الحلّ جدًّا، ذلك الحلّ الذي يوفر له خروجًا لائقًا ومأمونًا لا مغامرة فيه، ولم يعدْ يرجو مجيء الجرْو بالمرّة. وكان يحاول أن يطمئن نفسه بأنّ رجلًا مثل جهير لن يأتي إلّا في صبح اليوم الخامس كي يعزّز نفسه وابنه، لذا فالمأمول أن يأتي بالغد. وأثناء هذه الأفكار الجارية التي لا يتوقّف عن التفكير فيها، نظر أمامه تجاه من كانوا يقتربون من القفص حتّى وصلوا إليه، وأخذ يحدق في الوجوه وهو يقوم ببطء، فهذا أحمد، وهذا رجلٌ أبله صامت، ومستسلم، يكاد ينام وهو واقف، وهذا يبدو كما لو أنّني أعرفه ويعرفني، هذا الذي على رأسه عمامة لثّم بطرفها فمه، كأنّه جعيد! رأسه الكبير، والنمش الذي على نصف وجهه، والنظرات بها شرر الحنكة والدهاء. عاجله الجرْو: نعم أنا الجرْو يا أمير همام، وليس لدينا وقت حتّى لتعبّر عن اندهاشك، فقط كنْ سلسًا لا أكثر.

أشارَ الأمير بيده إلى أحمد وهو لا يزال في ذهوله: كيف أهربُ الآن وأبوه قد قال إنّه سيتزوج من بنتي؟! أليس هذا أفضل من المجازفة؟

فردّ عليه الجرو وهو يستحلفه أنْ لا يفكّر ولا يتردّد: لا توجد مجازفة، فهؤلاء الحرس لن يقتربوا منّا، فنحن ضيفان سيّدان دخلا الحي مع ابن سيّد الحي، وسيخرجان كما دخلا بعد قليل، من غير أن يقترب منهما أحد.

وفي ثوان قليلة كان الأمير عند انفراجة الباب كما قيل له، وأمامه المعتوه، واندهش بعد لحظة عندما شدَّ الجرو عباءة المعتوه الثّمينة فظهر بثوب يشبه تمامًا ثوبَه الذي تعفَّن عليه. وبسرعة، فتح الجرْو القفل، وفتح الباب قليلًا، وابتسم وأفسحَ للأمير، وأشار له بيده، وأدخل المعتوه وأغلق الباب عليه، ثمّ وضع العباءة على الأمير.

وقد كانت أجمل الخطوات التي خطاها الأمير هذه الخطوات الأولى خارج السجن، وأجمل النّسيم هو الذي شمّه وهو يرى السّجن من خارجه، واحتضن الجرو، ثمّ احتضن أحمد، وهو يقول له لم أكنْ شقيًّا يا بني بفكرة أبيك، كنت راضيًا بك، فردَّ عليه أحمد بمجاملة كان قد أعدها لهذه اللحظة التي كان فيها في قمّة سعادته وهو يتخيّل سمعة مصلح وقد تحطّمت تمامًا، وقال إنّه فعل ذلك من أجل بنت الأمير؛ حتّى لا تتزوّج بهذه الطريقة التي لن ترضيها في الأغلب، ثمّ أتبع ذلك بأنْ قال إنّه يتعاطف معه منذ البداية وها هو ذا نفعه، وليست العبرة في أن يزوره كلّ يوم بغير طائل مثلما يفعل مصلح. وبينما الأمير يتمتّع بتلك السعادة الغامرة التي جاءت من الحرية المفاجئة التي تشبه حلمًا ناعمًا، ويعاني في ذات الوقت من الآثار اللعينة للتدجين والحبس في مكان ضيّق فيشعر كأنّ شيئًا يجذب جسمه وحده للعودة إلى القفص، قطع الجرو هذا الهراء الذي يسترسل فيه أحمد ونبّهه بأنّ الرجل المهبول قد دخل القفص وتمدّد على الأرض سعيدًا ببيته الجديد، فهيّا نترك المكان جميعًا.

لقد كان أحمد خفيفَ الرّوح مشرقًا كطفل في صباح العيد وهو يسير مع أبيه باتجاه القفص في صباح اليوم التالي، وكان يؤهب نفسَه للفكاهة الرائعة عندما يتعرّض أبوه لتلك الصدمة الرهيبة التي تنتظره.

أحمد: لقد انشرحَ قلبي لهذه الزّيجة كلّ الانشراح يا أبي؛ وإني أتعجَّب الآن لكوني لم أعطك الموافقةَ منذ أن صارحتني بالأمر، ولكن على كلّ حال، لا بأس في أن يكون ردّنا في اليوم الأخير، حتى لا نبدو متلهّفين.

فربّت أبوه على كتفه فخورًا به، وقال: أقول لك صراحة: ما كنت واثقًا فيك في اليوم الأول، ولكنّك تغيّرت من بعد ذلك، بطريقة ارْتبت منها بعضَ الشيء، لكن يبدو أنّ ارتيابي منك لم يكنْ في محلّه، ويبدو أنّك ستكون رجلًا جديرًا بالإمارة من بعدي، وهذا هو أحمد الذي كنت أتمنّاه.

فردّ أحمد وهو يبتسم، ويكتم تندّره: كيف لا تجدني بجانبك في هذه الزّيجة يا أبا أحمد، وفيها إمارة، وسمن وتين وزَبيب؟!

ضحك أبوه ضحكةً خفيفة، وأكمل أحمد: إنّ عقلك يزن قبيلة يا أبي. وأنا اخترت طوعًا أن أكون رهنَ يمينك من الآن.

جهير: إنّ سماعي لهذا منك فرح وحده يا أحمد!

وظهر على وجْه أحمد أنّ هناك شيئًا يحزّ في نفسه يريد أن يبوح به لوالده، ثمّ قال: وأرجو يا أبي أنْ تشفقَ على والد عروستي وتتعجّل دعوة الرّؤساء لتخرجه ممّا هو فيه، فلم يعد من المناسب صراحةً أنْ يبقى الرّجل في هذا الهوان وهو والد عروستي.

فهزّ الأب رأسه متفهِّما، ومقدِّرا غيرة ابنه على حميه. اقتربا من السّجن، تراجع أحمد عن أبيه قليلًا، كتعبير جسديّ تلقائي عن التنصّل من أيّ تهمة سيفجرها الأب بعد قليل؛ حاول أن يبدو طبيعيًّا ومتبجِّحا كما أوصاه الجرْو، وأنْ يكون بجانبه كتفًا بكتف حتّى الوصول إلى الأسياخ، وأنْ يشاركه صدمته، ولكنّه لم يستطع، تأخّر عن أبيه بضع خطوات، وظنّها الأب حركة طبيعيّة من شابّ استحيا من حميّه القابعِ في السجن بكلّ هوان.

كان مَن في القفص نائمًا، وقد أسند ظهرَه للأسياخ، وألقى رأسَه أمامه، وناداه الشيخ من بعيد قليلًا بصوتٍ قويّ وبشوش، حتّى يعتدل الأمير من نومه ويتوقّف عن شخيره: يا صهرنا.

فأفاق النائم، والتفت ببطء، إنّه الأمير همّام يردّ على الشيخ جهير: مرحبًا.

انتفضَ أحمد كما لو كانت حيّة قد نهشته، وشعر بدوار شديد، ونظر حوله في العالم الذي يتأرجح به مثل هوْدج على ظهر جَمل ضائع مذعور، ووقع أرضًا مغشيًّا عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المطرقة

أصيب الشّيخ جهير بالذّهول عندما سقط ابنُه أرضًا، وارْتعب الأمير من النّظرة التي وجهها إليه الشّيخ، والتي لم يكنْ يقصد بها شيئًا غير أنْ يشاركه أحدٌ ذهوله؛ وقد كان الأمير الذي أرعبتْه النّظرة يعرف جيدًا هوْل الصّدمة التي شعر بها الشّاب عندما وجده في القفص بعد أن احتالَ منذ قليل لإخراجه منه.

عندما سقط أحمد على الأرض كانت الشّيخة شمسة التي ارتدتْ أساورها الذهبية، وأعدت لزوْجها المسبح تطفو على مائه الزّهور، تحطّم أكوابًا واحدًا تلو الآخر تحت قدمي الجرو وهي تسأله لماذا لم يعدْ به؟ لماذا؟ وهو يغلق عينيه كلّما قذفت بكوب. وفور أن توقّفت عن التحطيم قال لها بنبرةٍ آسفة إنّ زوجها، وللمرّة الثّانية يفسد عمله، وهو لم يكنْ يستطيع أن يجبره على أنْ يأتي معه.

وحكى لها ما حدث بالتّفصيل، فبعد أنِ ابتعد الأميرُ والجرْو أمتارًا قليلة، وابتلع الظلام أحمد بعيدًا عنهما، وتحفّهما سكينة الأجواء النّاعسة، دبّ القلق الشّديد في قلب الأمير، وشعر أن كلّ ما حدثَ يجب أن يفهمه، والآن، وسأل الجرْوِ عن السّبب الذي جعل ابن جهير يجترئ على أن يخونَ والده، وكيف فضَّل أن يفتح السّجن له خلسةً على أن يتزوّج من ابنته؟ فحاول الجرو أن يقنعه بأنّه سيعرف كلّ شيء هناك وهو في مقعده من قصره، فوقتها ستصغر في مسمعيه كلّ الأسماء، لكنّ الأمير زجره وألحّ عليه كي يتكلّم، وقال إنّه الآن يشعر أنّ قدميه ثقيلتان، ويدبّ فيه خوفٌ أن يكون ما حدث هو بداية خطيئة عظيمة. فقال له الجرْو يكفيك الآن من الغصّة يا أمير أنْ تعرف أنّ ذلك الشّاب الذي ساعدنا قد أطلق سبيلك حتّى يعتق نفسه من هذه الزيجة التي رغبت فيها، وستعرف كلّ شيء عندما أصلُ بك إلى الشّيخة كما وعدتها. فغضب الأمير عليه، وتوقّف عن الحركة وقال لنْ أبرح هذه البقعة حتّى أعرف كلّ شيء، فقط أريد أن أعرف، فما أقدَمَ عليه هذا الشّاب أمرٌ عجيب، وأنا أخاف أن تحدُثَ من بعد هذا الأمر حادثة لا علاجَ لها.

فقال له الجرْو باختصار بصوتٍ بارد وهو يبدّل نظره بين الحرَّاس قلقًا من أن يقترب منهم أحد: ما تبقّى هو بعضُ الحيلة التي قد تزعجك، لكنْ لا بأس، فخذْ كلّ هذه الأخبار على عجالة: عرفت أنت إذًا أنّ أحمد لا يريد الزّواج من بنتك زينة، وعرفت أنّ "جهير" ما أسَرَك إلّا من أجل هذا النّسب، وهو سيبقى يلحّ على ابنه طالما أنّك في القفص، لذا لم يعدْ أمام أحمد فكاك من هذا الإلحاح إلّا بأنْ لا تكون أسيرَ أبيه. وأحمد هذا الذي رأيت، يحبّ شابة هنا حبًّا لا مثيل له، وهي في الحقيقة لا تطيق رؤيته، وتحبّ مصلح العرقوبي حبيبك الذي يزورك، وأحمد ليس لديه أمل في أنْ ترضى به تلك الشّابة إلّا إنْ كرهت مصلح، هذا حال العشق والكراهية في هذا البلد، ولم يبق إلّا حيلة الجرو.

- ماذا دبّرت؟

- هيّا نمضي يا أمير وأحكي لك بعيدًا.

- بل هنا.

- خيرًا، قايضت أحمد بأنْ يعطيك الحرية، مقابل أن أجعل مصلح شابًّا مكروهًا هنا فتنساه الشّابة التي تحبّه، وهذا أمر تافه في حقيقته لكنّه كفيل بأن يمنحنا أحمد حرّيتك؛ اتفقت معه على أنْ نبدلك بهذا

المهبول الذي رأيت، وهذا، هذا كل شيء.

قال الأمير وهو يثبت عينيه في الجرْو: أكمل ما لا تريد قوله: كيف تجعل مصلح مكروهًا؟

- بعد أن تصل إلى قصرك نملأ الدّنيا ضجيجًا بأنّ مصلح قد باع لنا أسيرنا وخان أهله، والشّاعر موجود، والشّهود في حيّهم أكثر من ستة رجال رأوا صانع أقفال يسأل عن بيت مصلح الليلة.

خبط الأمير كفًّا بكفّ، وقال محتجًّا: بل تجعله قتيلًا بالظّلم، سيقتلونه لا أشكّ في ذلك، سيسلط عليه جهير الغوغاء ويتخلص منه.

واستدارَ الأمير، والجرْو يحاول أن يمسك به، وهو يقول له: مهلًا، يمكن لنا أنْ لا نفي لأحمد بما علينا، ولا نقول شيئًا، ولا نضرّ أيًّا من الشابين.

غيرَ أنّ الأمير كان متأكّدا من أن مصلح سيكون قتيلًا لأنّ صانع الأقفال قد جاء، وأحمد وأبوه سيلقيان التّهمة عليه حتّى لو لم يقل أهل الواحة أيّ شيء.

وتردّد الجرو قليلًا قبل أن يقف في طريق الأمير، ثمّ وقف أمامه وقال له بلهجة لا تخلو من الحنق رغم الاحترام: إنّك تقدم على شيء خارقٍ لا يفعله أحد، إنّك تخلّصت من الآلام والإهانة فكيف تعود بنفسك؟! لقد أرسلت لك الغجريّ بقروده كي ينقذك، وقتلت قروده اثنين، وفتح عليك الباب، وعاد من دونك، فلماذا تجعلني أفشل مرّتين؟!

فقال له الأمير وهو يكادُ يبكي من الشّعور بالحيرة والتعب: أنت لا تفهمني، تكاد الروح تخرج منّي وأنا عائد بنفسي للقفص، ولكنّي أشعر بأنّ الخطر أشدّ في طريقي من هنا للواحة بعد أن عرفت ما عرفت، فأخاف أنْ يبغضني الله بفساد قلبي عندما أرضى بأنْ يكون الشّاب البارّ بي ضحيّة تحريري فينبّه الله هؤلاء الناس إلى المكيدة ويجعلهم يمسكون بي قبل أن أصل، وحتى لو وصلت، أخاف أن يخرّ السّقف عليَّ في قصري، فهل لديك حيلة مع الله تنفعني بها؟!

ولم يشعرِ الأمير والجرْو بزمن الإعادة، فقد تمّ هذا كأنّه حلم يسير، كما أن الحراس لم يقتربوا من الشّيخين صاحبي النّاقتين اللّذين تركهما أحمد منذ قليل، وليس بمستغرَب أن يقع منهما شيء أثناء وقوفهما عند قفصِ الأمير وقد عادا كي يلتقطاه. ومن شدّة سهولة ما حدث، ولأنه حدثَ في ساعة مبكّرة، والخمول يلفّ النّاس والفضاء، أوشك الجرْو فوْر أن مضى أن يشك في الأمر كلّه، ولم يكن يؤكّد له ما حدث منذ قليل إلّا وجود المهبول بجانبه، وكذلك أوشك الأميرُ أن يشكّ في الأمر كلّه، لولا صدى الكلمات الأخيرة التي قالها الجرو بعد أن قفل عليه القفل، وأخذ الفراغ يردّدها حوله ويهزأ منه بها: ولكنّ الشّاب البارّ بك هو الذي أسَرَك.

فوْر أن سقط أحمد أرضًا ركضَ النّاس إليه وحملوه إلى البيت، وأبوه بينهم، وهناك كان الشيخ وامرأته وابنتُه هند في غاية القلق على حياة الشّاب الغائب عن الوعي، ولم يكن الشيخ قلقًا على أمر الزّواج على الإطلاق، وليس في خاطره إلّا أنّ هذا الإغماء وقع هناك على سبيل الصدفة، وكان ينتظر ابنه كي يفيق ويطمئنّ عليه لا أكثر، وهو يظنّ أنّ ذلك الأمر سيتمّ كما أراد، لكن الأهمّ أن يشفى ابنه ممّا أصابه. وحدها هند فقط التي كانت تشعرُ بأنّ في الأمر شيئًا ما، فقد أسرَّ لها أخوها في

اليومين الماضيين وهو يبتسم بأنّ هذه الزّيجة لن تتمّ، وأنّه باقٍ على حبّ ثريا، وأنّها ستعرف كل شيء بالتفصيل بعد أن ينتهي الأمر.

بدأ أحمد يفيق، وهو مستوعبٌ لكوْن الأمير قد تراجع وعاد بنفسه إلى السّجن، وهو مستوعب أيضًا لحجم الورْطة التي هو فيها، واكتفى بأنْ حدَّق في السقف، وامتنع عن الكلام، رغم أنه صارَ يدرك كلّ شيء حوله، ولكنّه اختار أن يظهر كإنسان في حالة غير طبيعية، مؤجلًا وقت الصّدام بينه وبين والده، متمتِّعا بحنانه وحنان أمّه، إلى أن يأتي وقت الانقلاب.

إلى ذلك الوقت الذي بدأ أحمد يفيق فيه، لم يشعر الأمير إلّا بالقليل من الندم، مختلطًا بنقمة على الجرْو الذي نال منه عندما وضعَه أمام الحقيقة التي يتَهرَّب منها، وهي أنّ حبيبه الوحيد هنا هو في الحقيقة الذي جاء به إلى السّجن، ولم يكن هذا شيئًا تافهًا في صحيفة مأساته على أية حال. وكان الأمير- أيضًا- يشعر بالإرهاق من شدّة الاختبار الأخلاقي الذي تعرَّض له، والذي كان يمكنُ أن يفشل فيه لو لمْ يتماسك، فقد عاد بنفسه إلى حيث ذاقَ الهوان والخوف والإغاظة ومرارة الوحدة؛ وقد كان لديه- أيضًا- بعض الشّعور بالقلق من أن يسأله الناس عن الزيارة الغريبة التي قام بها الشّيخ وابنه للقفص، والتي سقط فيها أحمد مغشيًّا عليه فور وصوله، لكنّ أحدًا لم يجرؤ على ذلك. وجلس يخفّف عن نفسه بالأمل، بالأمل في أن يعفو عنه الشيخ خلال فترةٍ وجيزة عندما يفشل في إقناع ابنه، فقد وافقه على ما يريد وجاءَ الرّفض من ابنه، ومن اللّائق أن يستحي ويحرّره.

وسرْعان ما امتلأ الحيّ بخبر سقوط أحمد مغشيًّا عليه عند القفص ومعه أبوه، وظلّ هذا الخبر الغريب حديثَ كلّ الناس وحده إلى وقت الظهيرة، بين مَن رأوا أن وقوعه هناك محض صدفة، وبين مَن ظنّوا أنّ هناك أشياء مخفيّة، لكن لا أحد تمكّن من تخمين تلك الأشياء، أما بعد الظّهيرة، فنافس هذا الخبر خبرٌ آخر مثير أيضًا للفضول: لقد طلَّق مصلح زوجتَه مرغمًا وهو يبكي.

كان مصلح قد تعلَّق بزوجته جدًّا خلال الأيام القليلة الماضية بعد أن نهل من نهر حبّها، بعنفوان شابّ محروم، وسرعان ما تقْهقرت ثريا في خياله حتّى كأنّه لا يذكر ملامح وجهها، ولم يبقَ في وجدانه تجاهها إلّا أسف تذروه رياحُ العشق التي هبَّت. وفي هذه الأيام القليلة اختلطَ شعور سلطانة بالفخْر والسّعادة بعاطفة مصلح العنيفة تجاهها، بشيء من التعجب والاحتجاج لم تفصحْ عنهما، فهذا الجموح العاطفي المُفرط سرعان ما أنْهك جسدها، وأنهك نفسَها، وكان يمرّ في عروقها مع الطّرب بهذه النّشوة المغرقة شعور بالابتذال وقلة القيمة، وكانت صورتُه أمامها التي توهَّجت بنار الفحولة الباطشة تحترق أطرافها بالإحساس بأنه أقلّ رصانةً ممّا كان قبل أن ينفجر العشق بينهما. كانت سعيدةً في جُملة الأمر، ومندهشة، ومأخوذة مثل صبية، لكن ما إنْ تنفرد بنفسها حتّى تشعر بأنّ هذا الولع فوق حاجتها للاحتواء، وترجو أنْ يخبو قليلًا ما فيه من غلمة الرّجال، حتّى يكون ما بينهما وتيرة هادئة هانئة ليس أكثر، لأنها كانت تريد أن تبقى معه إلى الأبد، على أنْ لا تشيخ قبله وتهزمها السّنون، غير أنّه في الصبح الذي سقط أحمد مغشيًّا عليه فيه، وصل خطابٌ لأمّها من مدين، يبلغها أنّه عرف بأمر هذه الزّيجة الغريبة على حدّ قوله، ويلومها عليها كثيرًا، ويقول إنّه ما استطاع في البدء أن يصدق أنّ أمّه حسمت أمرًا مثل هذا دونَ أن تنتظر عودته، ويقول إنّه ما كان ليرضى لأخته أبدًا أن تتزوّج من شقيق الرّاحل الذي يصغرها بتسْع سنوات، وهو لا يحبّ أن يعود ويطيل العتاب بهذا الشّأن، إنْ عاد ووجد الأمّ قد أنهت هذا الأمر كما بدأته.

ما إنْ قرأ الرّجل على المرأة الرّسالة حتّى استدعت بنتها بعيالها الثلاثة، واتفقتا على الطلاق، وبسرعة، حتّى يعود الرجل ومعه خبرُ الطّلاق، وما كانت المرأة تحمل همّ إبلاغ مصلح ذلك الخبر الثّقيل، وقالت لبنتها: أنا بدأت وأنا أنهي.

وقد كان موقفًا عصيبًا على مصلح الذي تزوّج بدافع الحرج أن يجدَ العجوز تقول له فور أن قعدَ أمامها بعد أنْ بعثت إليه كيْ يجيء على وجه السّرعة، ودون مقدّمات: طلِّق بنتي فإن أخاها لم يرضَ بهذه الزّيجة التي تمّت في غيابه؛ سكت قليلًا كأنّه لا يصدّق ما يسمع، وتحرّكت حنجرته، ثمّ قال لها بصوتٍ محشرج إنّه يودّ سماع ذلك من زوجته، وما إن قال ذلك حتّى خرجت عليه زوجته، وقالت له بشيء من الحرج: إنّه مدين، وأنا لا أعصيه؛ طلقني يا مصلح.

ومِن دون أن يلحظ أنّه يبكي بكى مصلح، بكى شاعرًا بشيء مثل الخطيئة، ومثل الهوان، ومثل العري، بكى متذكّرا كيف أنّ كلّ ما حدث، الذي انتهى ببكائه في هذا الصباح؛ كان من تدبير هذه المرأة العجوز، التي جعلتْه يذوق حبًّا لم يفكّر فيه أبدًا، وها هي ذي الآن لا تفكّر بأمره، ولا يشغلها حنينُه، ولا رائحة زوجته التي تشبه رائحة التّفاح التي علقت بوجدانه، بل وهي تعرفُ جيدًا أنّه لم يقرب بنتها إلّا حديثًا وبتشجيع منها، وهي تعرف أنّه لا يبكي إلّا بسبب الأيّام الأخيرة فقط، ولوْلا هذه الأيام الأخيرة لكان أقوى منهما.

هُرِع مصلح إلى بيته، ونظرَ إلى نفسه في المرآة وقرَّب وجهه منها بعينيه الحمراوين من البُكاء، وشَعر- ولأوّل مرّة- أنّ وجهه مهين وتافه، وجه رجل يمكن للناس أن يلعبوا به، وبعواطفه، وأخذ يوبِّخ نفسه وهو يقول أنتَ تافه، أنت بليد، حتّى بصق على وجهه في المرآة من شدّة الانفعال.

ثمّ سرعان ما هربَ من أمام المرآة، وجرى وخلع ثوبَه، وارتدى ثوبًا بني اللون لأخيه المتوفّى، راغبًا في أن يختبئ فيه، وفي نضجه، وقد صارَ له هذا الأخ صاحب قامة فجأة، فهو على الأقلّ رجل لم تطلبْ منه سلطانة الطّلاق قط، ولم يخلُ ارتداؤه لثوب أخيه الذي لا يزال يحملُ رائحته أيضًا من شعورٍ بالرّغبة في الاعتذار لهذا الأخ عما حدث.

هذا لم يكنْ كلّ الحنظل الذي ذاقه مصلح في هذا الصّباح، فما إن طلَّق زوجته، وقبّل أبناءها قُبلات الوداع، وقال للمرأتين إنّ هذه آخر مرّة يدخل فيها هذه الدار، ثمّ مضى، حتى حملت العجوز خبرَ الطّلاق للناس بالطّريقة التي لا تتضرّر منها بنتها، فقالت إننا أكرهناه على الطّلاق لأنّ أخاها لم يقبل، وقالت بكلّ اعتزاز إنّه بكى بالدّموع قبل أن يرمي اليمين، وقالت إن له الحقّ؛ فمثلها يُبكَى عليه؛ وفي وقتٍ قليل كان الكلّ يتكلّم عن بكاء مصلح على زوجته التي طلّقها رغمًا عنه، وعن حبّه الشّديد لها، ووصل الخبر إلى ثريا وهي جالسة بين مجموعة من البنات، ولم تستطع أن ترفع وجهها عن الأرض وهي تسمع، عجزت عن أن تبدو كمَن يسمع خبرًا لا يخصّها، كانت تذوب مثل الشّمعة وهي تنظر إلى الأرض وتسمع عن بكاء حبيبها على المرأة التي طلّقها، وقد كانت تظنّ أنّه شابّ قاده الحياء إلى هذه الزيجة ولم يتحرك قلبه لغيرها هي، وقد مادتْ بها الأرض وهي قاعدة، ولو كانت واقفة لسقطت أرضًا، وظلت مكانها حتّى بعد أن مضت البنات؛ لم تقم إلّا بعد أنْ ظنّت أنّها لن تقع، ومضت وهي تتمتم بملامح منكسرة: خيَّبك الله يا مصلح.

وبدأ أحمد- وهو لا يزال راقدًا في سريره- يتصنّع الفزعَ لو ناداه أحدٌ أو مسَّه أحد، محاولًا الظهور بمظهر مَن ربّما يكون قد مسَّه أذًى من الجن، حتّى لا يتكلّم أبوه معه في أيّ أمر إلى أنْ يطمئن على سلامة نفسه، وقد غالب شعورَه بالسّرور عندما سمع بقصة بكاء مصلح على زوجته، التي سمعها وهو ينظر إلى السّقف، حتّى لا يطفح الابتهاج على وجهه من أثر الشّماتة، الشماتة في الإنسانة التي يحبّها، عندما تصلها هذه الأخبار من فم كلّ أنثى، وظنّ أن هذه الصّفعة ستهوِّن عليه الطريق إليها.

ذاقتْ ثريا طعمَ ليلة سوداء، وقد قاسمتها صاحبتُها غروب سواد الليلة، ودموع الليلة، وكانت غروب تبدو كأنّها تبكي لبكاء صاحبتها، ولكنّها في الحقيقة استغلت هذه الفرصة، وانخرطت في البكاء لأنّ محبوبها الغريب عارف الذي لم تتكلّم عنه مع أحد قط، ولا مع ثريا نفسها، اختفى من الحيّ فجأة، دونَ أن يودّع أحدًا، منذ خمسة أيام، وهي مؤمنة بأنّ الشّاب الذي جلس على الحجر منذ أربع سنوات وهو لا يصدِّق ما يسمع؛ قد اختار ما كان يجب عليه اختياره، أن يهرب، وهي لا تصدّق تلك النّهاية المثيرة التي اختلقها محبّوه ومريدوه، الذين لم يستوعبوا أن صاحبَ النبوءاتِ العظيمة يمكن أن يترك الحيّ الذي دخله على موعدٍ وآمن به، فقالوا إنه دخل منجم الملح، ومضى وحدَه في ممرّاته المتقاطعة التي لها عدد الشّرايين، فضاع في هذا العالم اللّانهائي الذي ليس فيه إلّا طرقات من الملح، وأعمدة من الملح، وتشابهت عليه الجهات، وتشابه عليه الليلُ والنهار، وانخدع في صدى صوتِه عدّة مرّات عندما كان يظنّه صوت رجال يبحثون عنه، وأخذ يروح ويجيء وهو يصرخ، حتّى ترنح من العطش والتعب، وسقط ميتًا في المتاهة. ولم يكن الضّياع الذي كتبوه عليه مصيرًا، وعذاب العطش حتى الموت، لم يكن عندهم بمثابة لعنةٍ نزلت به، بل هو غاية الاصطفاء، وحكمة تعجز عنها حواسّ الناس وأذهانهم، مثل ضياع سلاف، ومثل عذابه قبل أن يموت وحده، لذا كانت هذه القصّة البشعة التي تبادلوها بينهم عن موته تعبّر عن رغبة في التكريم، وعن بالغ المحبة والرضا.

وذاقَ مصلح أيضًا طعمَ ليلة سوداء بعد أغلق على نفسه بيته، رافضًا أن يفتح الباب لأصحاب الفضول وأصحاب النوايا الحسنة على حدّ سواء. وفي الليلة التالية، وقد ضاق بالاكتئاب، وبما فيه من ضعف، فكّر في أنّه في حاجة إلى مَن يستطيع أن يجعله يتجاوز هذه اللّطمة الشنيعة في أسرع وقت، قبل أن تنطبع على ذاته، ولا يبقى له من السّمعة غير أنه الشاب الذي طلَّق زوجته وهو يبكي، فذهب يتوارى في تلك اللّيلة بجرحه في بيت الشيخ غائب.

كانت حالة الشّيخ غائب النفسية قد تدهورت من بعد محاولته الفاشلة لتحرير الأسير، ومن بعد أنِ اعترف لنفسه بأنّ أباه لن يعود أبدًا، وبعد أنْ طرد ابنه المناكف للأبد، وشعر بشيء كالعراء. وتوقّف من وقتها عن أكْل أيّ شيء سوى البصارة، وهي طعامٌ لا يحبّه، مرّت عليه تلك الأيام الأخيرة وهو لا يقبل أيّ طعام إلّا البصارة، وهو لا يعرف كيف ابتكر لنفسه هذه الوسيلة من التّنغيص والمضايقة، ولا يعرف كيف واظبَ عليها بهذا الإحساس الجبري. ومرت عليه تلك الأيام وقد صار وجهُه وجهَ رجل على حافّة الخرف، وإن لم يقع به، مرّت ولا أحد من النّاس يهزّه، ويصرّ على سؤاله، ومرّت وهو يبدو للعابرين الذين لا يزالون غارقين في حديث الرّموز والملاحم في غنًى عن ذلك، وكأنه يتأهّب للوداع بطريقة يعرب فيها عن تأسفه على الحياة لا تأسفه على الموت.

تغيّرت منذ تلك الليلة عاداته، فبدأ يكثرُ من الوقوف أمام البيت، ومن النظر من نوافذه، كلّ إطلالة تمتدّ إلى دقيقة لا أكثر، يفعل هذا عشرات المرّات كلّ يوم، لا ينتظر أحدًا، ولا يقف عنده أحد، كان

الناس يمرّون تباعًا، يلقون السّلام ويتركونه، وهو يردّ عليهم سلامهم بطريقة تعبّر عن اغتناءٍ وهمي، بينما كان بحاجةٍ ماسّة إلى الاهتمام الشديد، إلى أن يهزه أحد ما، ينتشله، يسأله ما بك؟ وعندما يتكتّم يصرُّ على سؤاله ويهزّه مرّة أخرى حتى يبكي ويعترف بالضّياع والهزيمة، لكنّ هذا الرجل الذي يبحث عنه لم يظهر، فظلّ يشعر بالكآبة تنهش روحه الواهنة.

في ذلك الوقت الذي كان مصلح يطرق بابَ بيت الشيخ غائب المفتوح كي يسمح له الشيخ بالدّخول، كان هناك رجلان غريبان يدْخلان على أحمد الذي لا يزال مصرًّا على مظهر الذّهول، رجلٌ أبيض ناحل الوجه لم يره أحمد من قبل، ومعه المهبول الذي كان سيحلّ محلّ الأمير، ففهم أحمد أنّ هذا الرجل يحمل رسالة من الجرْو، فابتسم في وجهه وطلب ممّن حوله أنْ يفسحوا له، واقترب الرّجل منه بهدوء وهو يحاول أن يبدو في هيئة شيخ روحاني مهيب الحضور، واصطنع أنه يقرأ عليه كي يشفى بعد أنْ وضع على جبهته كفّه النحيلة، وكان يهمس إليه بكلام بدا على أحمد أنّه في شديد الانتباه إليه، ثمّ وضع في كفّ أحمد قارورة زجاجية في حجم عقلتين، أخفاها أحمد في ثيابه وهزّ رأسه، ثمّ استأذن للانصراف وعينا الشيخ جهير تتبعه بارتياب.

كان الشّيخ غائب صامتًا بعينيه الرّماديتين، أمّا مصلح فلا يزال يراقب الأرنب الأسود مريب الخلقة الذي يقف عندَ الباب، والذي لم يفزع منه على جبلَّة الأرانب، والذي يبدو كأن روحًا جليلة قد دخلت فيه وأرسلته، والأرنب يتبادل النّظرات العميقة مع الشيخ، كأنهما يعرفان بعضهما البعض جيدًا، ومصلح كان فيه شيء من الحذر من هذا المخلوق، من شدة الثقة والثّبات البادييْن عليه. أخذ مصلح الذي يرتدي ثوبَ أخيه يحكي كلّ ما حدث بالتفصيل، منذ أن أحرجتْه العجوزُ وزوَّجته من بنتها، وهو يلوم نفسَه قبل أيّ أحد آخر، وينقم على المرأة التي ملأتِ الحيّ ببكائه؛ وكان يلحظ شرودَ الشّيخ وجمود ملامحه المتغضّنة، وتلك النظرات التي لا يزال يسرقها أثناءَ الحديث إلى الأرنب الأسود؛ وكان الشّيخ مقلًّا في التعليق على ما يسمع، ويدقّق النّظر في مصلح، ويحيط به بعينيه، إذ كان يخشى من أنْ تكون الأوهام قد لعبت به، وأنّ كلّ ما يسمعه هو محضُ خيال، من شابّ لم يأت كي يزوره.

بعد أنْ مضى الرجل والمهبول بقليل، وقد دبّ شيء من القلق في صدر الشيخ جهير، وظنّ أن ابنه يدبّر شيئًا ما، دخل على ابنه ومعه زوجته وبنته هند، وابتعد الحاضرون قليلًا في الغرفة الواسعة، لكي يسمحوا بحديثٍ بين أفراد العائلة، ومال الشّيخ على ابنه، وطلب من زوجته وابنته أن تميلا عليه معه، فمالتا، فذكّره بكلّ لطف بما اتفقا عليه من أمر الزواج، فبلع أحمد ريقَه ونظر للسقف، ومثّل أنّه مشتّت ولا يستطيع أن يجمع أفكاره، فقط يطلب من أبيه أن يصبرَ عليه يومًا أو يومين، فنظر إليه بغضبٍ وهدوء، وقال له بصوت خفيض إنّه لا يصدقه، لا يصدّقه أبدًا.

فدبّ الذّعر في قلب أحمد من هدوء أبيه الذي أفزعه، وبانَ عليه أنّه على وشك الصراخ، وحاولت المرأةُ أن تدافع عن ابنها، قائلة إنّ هذا الشّأن هين، وصحّة ابنها أهمّ من الدنيا كلها، وكان الشيخ يجادلها بأنّ هذا الشأن ليس بهين أبدًا، فهذه زيجة عظيمة من ابنة أمير، وستقي تلك الزّيجة الحيّ من أيّ حرب مع الشهوب، وهو يجحظ بعينيه لها وهو يكلمها كي تفهم حجم الأمر، لكنّ الأمّ كانت تقول له إنّ عليه أن يخرج ابنَه الضعيف من خططه، وأن لا يرقّع بابنه شيئًا يريد ترقيعه، طالما أنّه غير راغب. وفضّ الشّاب هذا الجدل عنده بصرخة واحدة، حقيقية غير مصطنعة، من قعر ضعفه، فهُرِع إليه الجالسون، وبكتْ أمّه، وشعر أبوه بالاضطراب وهُم يتخبّطون فيه مقتربين من أحمد كي يقرءوا

عليه ويربّتوا عليه، وكان الشيخ جهير وحده يدرك أنّ هذه صرخة تحدٍّ وعصيان، وليس صرخة من أعراض مرض النفس. وفي وسط همهمةِ الناس كان يقول في ضميره موجِّها كلامه لابنه: يا ليتك وهمًا مثل ابن الشيخ غائب، لكنّك حقيقة مؤسفة.

جمع الشّيخ غائب عزمه، وقال لمصلح بصوتٍ يوحي بأنّه سيتكلم في أمر خطير، إنه يشمّ من هذا الأرنب الأسود الذي بدأ يلازمه، الذي يبدو وضيعًا ومخيفًا في آن واحد، يشم رائحة حنّاء، جليّة، وصريحة، ومعتَّقة، وهو لا يدري إنْ كانت هذه إشارة إلى أنّه قد حان موعد لقائه بأبيه سلاف في عالم الموتى، ذلك الأب صاحب شجرة الحنّاء الأولى التي زرعها للأم عند باب البيت، وهو يرحّب بالموت على أية حال، أمْ أنّ الأرنب جاء يبشّره بأنّ الزمن سيدور دورته، وتعود السّيادة هنا للأشياء التي راحت، وأنّ الباطل زاهق لا محالة؟

لم يردّ عليه مصلح، من غرابة ما يسمع، فاستأذن منه الشّيخ كي يحضر له حفنة من مسحوق الحنّاء من غرفته، من تلك الشّجرة التي زرعها الأب، ويشمّها، ثمّ يميل على هذا الأرنب بهدوء ويشمّه، كي يتأكّد أنّه ليس واهمًا، فقط عليه أن لا يجعله يجفل حتى يعود.

مصلح كان يشعر بضجرٍ شديد، ضجر لا يسمح له بأن يكون واسع الصدر، ولم يكن لديه رغبة في سماع أيّ حديث عن النّبوءات والإشارات والنذر، لذا نظر للرجل شزرًا وهو يمضي إلى غرفته مستندًا على خادمه الأبكم الأصم، وقد بدا له محْض رجل يقبل عليه الخرف، لا يمكنُ لأحد أن يعينه، ولا يمكن له أن يعين أحدًا.

فكَّر قليلًا، ورأى أنّه لن يصبر على الشّيخ الحزين إن جاء بأيّ شيء غير حقيقي، فهو فيه ما يكفيه من قلّة الحيلة والاضطراب، وقد يتفوَّه من ضيقه بكلمةٍ يجرحه بها، لذا قام من جلسته على الفور قبل أن يعود الشيخ.

عاد الشّيخ غائب مهمومًا من غرفته، وفي كفّه التي يمدّها أمامه حفنة من الحناء الموروثة من شجرة أبيه، ولكنّه لم يجد مصلح عنده، ولا الأرنب، فارتاب مرّة أخرى في نفسه، وظن أنّ "مصلح" ربّما لم يأت، واستند على خادمه وقعد، وهدَّه الحزن وأوشك أن يبكي.

الشّيخ جهير الذي خرج من بيته حانقًا على ابنه ولا يعرف أين يذهب بحمولته من الغضب، وجدَ في طريقه مصلح هائمًا بأحزانه في ظلام الحي، فضحك الاثنان في نفس الوقت كأنهما سعدا جدًّا بصدفة اللّقاء في هذا الوقت الذي يشعر كلّ منهما فيه باضطراب الأفكار، ثمّ قال له الشّيخ وهو لا يزال مبتسمًا إنّنا ننجح معًا؛ ثمّ قرصه بحنان أبويّ في ذراعه موبِّخا إيّاه على أنه بكى من أجل زوجة، ووعدَه بأنّه سيعينه على تجاوز ما حدث وبسرعة، فقط يجرّبه مرّة أخرى، ويكون له كما كان يومَ الضباب، وقال له إيّاك أن يقودك قلبك فتنتظر الشّيخ مدين، كي يعودَ ويراك منكسرًا وحزينًا، فيشفقُ عليك، ويربّت عليك معتذرًا عمّا فعل بك، فتبتسم في وجهه، وفي عينيك الدّموع، فوقتها سيهون شأنك عنده، أمّا إنْ شئت أن تكون كبيرًا عند الناس يا مصلح، وأنت تستحقّ هذا، فاجعل مَن أساؤوا إليك يروْن في وجهك ما يجعلهم يفكرون كثيرًا قبل أن يقتربوا منك ويعتذروا إليك. وتحرّك الشيخ، وتحرّك الشاب بجواره، وقال له الشّيخ إنّه سيشتري ودَّه وإخلاصه بثمنٍ عظيم: أنت تشعر بالذّنب يا

مصلح، لأنك أسرت الأمير، وأنا أريد أن أضعَ عنك هذا الشعور بالذنب، وأن تصفو لي؛ سأحرّر الأمير من أجلك. واندهشَ مصلح من هذه المكرمة المفاجئة، ولم يجد ما يقوله.

بعدَ قليل فوجئ الأمير الذي يقف متمسكًا بسيخيْن من أسياخ القفص، برؤية الشيخ جهير يتقدم إليه، وبجواره مصلح، مصلحِ الذي استطاع الشّيخ جهير بسهولة شديدة أن يمنحه قدرًا من القوّة والعزاء هو بحاجة إليهما؛ وأخذَ الثّلاثة؛ الشيخ، والأمير، ومصلح، يضحكون عند السجن بحديثٍ ودّي متفائل، وقد اتّفقوا على أنّه لا أحد فيهم كان يتخيل اجتماعهم هذا أبدًا، وقال الشيخ للأمير في ختام اللقاء إنّه لا يريد أن يخرجه من هنا إلّا بإعداد، وفي محفل يمسح كلّ الأسى عن نفسه؛ وهو يعدّ له على وجه السّرعة بيتًا خلف بيته يليق باستضافته، وربما بعد الغد يكون فيه معزَّزا مكرمًا، قال هذه الكلمات الأخيرة وهو يضع يدَه على كتف مصلح، وعلى وجهه ابتسامةٌ واسعة، ويكبح ما في قلبه من حزنٍ على أنّ الأمور لم تسرْ على كلّ ما تمنى، وكان يشعر بذلّ المرونة، المرونة التي تعامل بها مع رفض ابنه، والتي قادته إلى اختيار مصلح بدلًا منه؛ وشعر الأمير بسعادةٍ غامرة، لأنّ الحريّة قد اقتربت جدًّا، ولأنّه أيضًا فهم من زيارة الشّيخ له مع مصلح ما لم يفهمه مصلح، وهو أنّ الشّيخ ربما يختار هذا الشّاب زوجًا لبنته، بدلًا من ابنه، وهو يستثقلُ في الحقيقة ظلّ أحمد، ويحبّ مصلح حبًّا به شائبة، ويظنّ أنّ ابنته الرقيقة تحتاج إلى شابّ كريم مثله.

ذهب مصلح للمبيت في مزرعة الشّيخ جهير، لأنّ الشّيخ أمره بأن يكون بعيدًا اليوم عن ثرثرة النّاس، حتّى يروا في الغد له وجهًا جديدًا، وقال له إنّه سيمرّ عليه عصر الغد في جماعة من رجاله، وسيخرجه من تلك الهزيمة التي نزلت به، ويجعله وجه خير على أهله. وحاول مصلح مرّة واحدة أن يعرف ما يخفيه الشيخ، لكن الشيخ قال إنه سيعرف غدًا.

في صباح الغد تناقلت البيوت خبرًا سيئًا، لم يسمع به مصلح في المزرعة، لقد ذهبت أمّ ثريا لتوقظ بنتها التي تأخّرت في النّوم، ووجدتها في غيبوبة لا تقوم منها، تحرّك فيها يمينًا ويسارًا فلا تقوم، إنّها تتنفس، ولكنها لا تشعر بأي شيء.

وذهبت النساء لزيارتها ومحاولة إفاقتها عن طريق كلّ الوصفات التي يعرفونها، بغير أيّ فائدة، وكانت غروب منخرطةً في بكاء شديد وهي تضع رأسَ صاحبتها الجميلة في حضنها، وهي تحلف بأغلظ الأيمان لأمّ ثريا بأنّها ستفيق ممّا هي فيه، حتمًا ستفيق. وما إن جاءت الظّهيرة، حتّى تسرَّبت بين الناس أخبار مجهولة عن هذه الغيبوبة الغريبة، أخذوا يرددونها بينهم، فهي ستودي بحياتها خلال ثلاثة أيام أو أربعة، إن لم تحصل على العلاج العجيب، وهو عبارة عن قطراتٍ قليلة توضع في الأنف، وتلك القطرات عند طبيب الأمير وحده. وأخذوا يتأسّفون فيما بينهم لأنّ الخصومة تجعل من الصّعب جدًّا الحصول عليها، إلّا بحيلة، أو بشفاعة، أو بأنْ يجبر الشيخ جهير طبيب الواحة على توفير هذه القطرات وإلّا نكّل بالأمير. وقد ذهب بعضُ النّاس للأمير وسألوه عن قدرة طبيبِه المسنّ على علاج مثل هذه الغيبوبة التي نزلت بالشّابة، فتوقّع في نفسه أنّها خدعة جديدة من الجرْو، وقال لهم إنّ طبيبه المسن داهية، ولا يستبعد أن يكون لديه علاج لتلك الغيبوبة التي نزلت بالفتاة. وأخذ الأمير يتابع هذا الأمر بقلقٍ شديد، فقد كان خائفًا من أيّ خطة جديدة، خائفًا من أيّ غضب، خائفًا من أيّ عنف، خائفًا من أيّ مكر، ويريد أن يمشي مِن هنا بألطف وسيلة ممكنة، وكان زواج بنته من مصلح يبدو له في محبسه وسيلة لطيفة.

وقت العصر، كان الشيخ جهير وبجواره مصلح، قادميْن من ناحية المزرعة، وفي يد مصلح مطرقة كبيرة، وخلفهما جماعة كبيرة من رجال الشيخ، ينادون بالناس، حتى اجتمع إليهم عدد كبير من أهل الحي، وساروا معهم، وكان الشيخ قد حكى له كلّ شيء في كلمات قليلة، وثاقبة، أثناءَ مشيهما في الطريق؛ يجب أن تتزوّج ممّن لا تقلّ شرفًا عن سلطانة، بل وتتزوج بكرًا، وأنا اخترت لك اختيارًا يغيظ مَن يكرهك، بنت الأمير همام، الجميلة، وبهذه الزيجة نحرّره، فتكون قد أخرجته من القفص مثلما أدخلته به، وفي نفس الوقت تكون قد تخلّصت من مذلة الكلمات التي تطوف بها أمّ مدين، بل وعرَّفت مقامك لمَن أهانوك. هذه الزيجة لن تحرر بها الأميرَ فقط، بل تعيد الفرحة إلى زوجته، وزوجتك الجميلة، وفوق هذا تكون نفعت أهلك وجنّبتهم التربّص بينهم وبين الشهوب. وقد وافق مصلح بوجه ممتلئ بالإقبال والفهم، بل وبدا عليه الشّعور بأنّه محظوظ جدًّا. وهذه السّرعة في الموافقة أسعدت الشيخ جهير، ونكأت جرحه الذي تسبب فيه ابنه.

وها هما يتوقّفان عند سلم السّد، وعيون الناس عليهم، يترقبون ما سيحدث، وصعد مصلح على درجات السلم ببطء شديد، وكان قويًّا في نظراته وفي مشيته، مثل نمر غاضب، ولم يكن أبدًا ذلك الشّاب المهزوم الذي كانوا يتكلّمون عنه، والذي ظنّوا أنه سيتسول العطف في المجالس؛ وصعد الشّيخ جهير خلفه، بخطواتٍ مطمئنة، والناس يتابعونهم درجة بدرجة، ويتوقّعون شيئًا عظيمًا، حتّى اقتربا من العتبة التي في أعلى السلم بعد وقت طويل، تلك العتبة التي يقف عليها مَن أراد أن ينظر إلى جوف السدّ، ونظر الشيخ ناحية العتبة التي يفصلها عنهما درجات قليلة، ثمّ نظر إلى النّاس من تحته، وإلى وجوه النّساء في الأسطح والنوافذ، وقال لهم بصوته العريض إنّه صاعد، وإنّه حاشاه لنْ يخطف الخطفة التي تكلم عنها من قبل، لن ينظرَ في جوف السّد؛ بل سيضع الآن عمامته على عيني مصلح عند هذه الدرجات الأخيرة، ليحطمها دون أن ينظرَ هو أيضًا إلى جوف السد.

وكان منظرًا مهيبًا والشّيخ قد ربط عمامته على عيني مصلح بالقرب من النهاية، وأخذ يدفعه من ظهره بحرصٍ إلى أعلى، ومصلح يستند على الحاجز بيد، وبالأخرى يحمل المطرقة، وعينا الشيخ تجاه النّاس تمامًا وهو صاعد خلفه. وأخذ مصلح يحطّم العتبة بضربات عنيفة، كأنّه ينزل بها على كلّ مَن ضايقوه منذ أن خرج للحياة، ثمّ أخذ يحطّم الدرجات السبع العالية من درجات السلم بنفس العنف والغيظ، واحدة وراء الأخرى، وقد ثار الغبار على الحاضرين وعلى الأمير في سجنه، ومن داخل السّحابة جاء صوت الشيخ كنداء روح أنَّ أمْر النظر في السّد قد انتهى إلى الأبد.

حلّ الشّيخ العمامة عن عيني مصلح، الذي نظر إلى الهوّة التي أمامه بعد أن حطم الدرجات العالية، وشعر أنّه شفي من كلّ أوجاعه، وهو يسمعُ مع الشيخ صيحات الجماهير، الجماهير السّعيدة باجتماع الزّعيم الملهم والفارس القوي.

وحدث ما يتمنّاه الجميع منذ أشهر، حدث أثناء هذا المشهد الفريد والشيخ والفارس في الأعالي، لقد هطلت الأمطارُ فجأة، وكانت شديدة جدًّا، وغسلت وجوه الناس الغارقين في السعادة، وغسلت وجه السّد، وشاهد الجميع بشائرَ المياه وهي تنزل من الجبل إلى داخل السد، وامتلأ الحيّ بالصيحات والزغاريد، وكلّ أصوات الجنون النابعة من أنفس تخاف من الغيب، وكل لوعات القلوب التي تبحثُ عن ولي، عن حارس؛ وقد أوشك الناسُ في تلك اللحظات الكاملة أن يصابوا بالجنون في اعتقادهم في

الشيخ، وأن يصابوا بالعمى في احتقارهم للمعرفة. حتى الأمير نفسه، الذي كان ينظر من سجنه، دخل في فتنة تلك اللحظات العجيبة، وكان يروح ويجيء في قفصه كأن حجم القفص لا يستوعب اندهاشه.

أمّ مدين العجوز، وبنتها، كانتا ملتصقتين في النّافذة تبكيان، من شدة الفرح بنزول الأمطار بعد فترةِ الانقطاع الطويلة، وتبكيان من شدّة الغيرة على مديَن الذي لن يكون له أيّ مكان هنا، ومن شدّة الغيرة من جهير الذي بايعتْه السّحب، ومن شدّة الحزن على فتاهما الذي حطّم الدرجات بنفسه.

وأمّ أحمد وبنتها هند، كانتا في النّافذة تبكيان- أيضًا- من شدّة الفرح بنزول الأمطار، ومن شدة الغيرة من مصلح، وكانت المرأةُ تقول لبنتها إنّ أباها ما كان له أن يجعل مصلح في هذا الموقف، فابنُه أحمد كان أولى بأنْ يحمل المطرقة ويقف معه في الأعالي تحت المطر.

أمّا أمّ ثريا، فلم تضعْ رأس بنتها بعيدًا عن حجرها، ولم تفتح نافذتها لترى المطر، وظلت في بكائها، وغاظها أنّ الدنيا لم تختزْ وقتًا تبتسم فيها لأهلها إلّا هذا الوقت الذي تخشى فيه على حياة بنتها الغائبة عن الوعي، وها هو ذا المطر قد شغل النّاس جميعًا عن مصيبتها، وظلت غروب وحدَها بجوارها وقد تمزّق قلبُها من البكاء على صديقتها الجميلة.

لم يكنِ الشّيخ يرغب في النّزول، ولا مصلح، كانت تلك اللحظات بالعمر كلّه. والمطر لا يزال يضربهما ويهزّهما، ويضرب وجه السّد، والبرق بضيائه الذي يسحر القلوب يلتقط لهما صورًا بديعة متتالية ستمكثُ في ذاكرة الجيل، وفي الخلف منهما في تلك الصور البديعة ذلك اللون الأبيض للماء المندفع من الجبل؛ والنّاس يستمعون مع هذه الصور إلى احتفال الحياة، احتفالها الضّاحك العنيف، في صوت الرعد الذي يهزّ السماء، وفي صوت الشلال الذي يترك في النفس شعورًا بالرّضا والسلام.

تلك كانت هي اللّحظات الكاملة، التي آمن الشّيخ جهير فيها أنّه ليس من بعدها شيء، أيّ شيء، كان فيها الشّيخ غائب وحده عند النّافذة المنخفضة، التي وضع رأسه عليها، وترك وجهه المتغضّن يغتسل بالمطر، بعد أن ركض خادمُه الأبكم الأصم ليحتفل في الخارج بالهطول وتركه وحده، حتّى الأرنب الأسود قد تركه هو أيضًا.

وفي أنفاق الشّيخوخة، التي قعد في عتمتها مستسلمًا لا يستطيع الخروج، نفذت إليه هناك فكرة غريبة، ومخيفة، يرى بها أمرَ هذا الأرنب بطريقة أخرى، فرائحة الحنّاء التي يحملها إليه، لم تأتِ من عالم الخيال كما ظنّ؛ بل إنّ النهاية التي يخشاها، والتي كانت تقتحم أحلامه، قد بدأت سطورها، وإن أخفى نحيبها صياحُ الناس وهم يحتفلون بهطول المطر، فهذا الأرنب الذي يجيئه ليس إلّا واحدًا من الأرانب السّوداء، التي سمع أنها استوطنت منذ أن بدأت سنين الجدب عند الصّخور المتناثرة عند اللّسانينِ البارزين، هربًا من عطش المخلوقات خارج الحي، وتتغذّى على الحشائش المتناثرة هناك، وهي إذًا قد حفرت تحت تلك الصخور الجانبية الكبيرة المتناثرة على جانبي السّد، وصنعت عدّة أنفاق طويلة ومتداخلة تحت أرضه خلال السنوات الثّلاث، كعادة الأرانب، ووصلت بسبب حاسة الشّم القوية عند الأرانب إلى الحناء، التي يرقد فيها كنزُهم من الجلود، وربّما بقيت تلك الجلود مصانة لم يمسها شيء، وربما أتى عليها التلف بأسنان تلك الأرانب، وتكون قد تآكلت تحتَ الأرض، مثلما تآكلت معانيها فوق الأرض في حياةِ الناس، وربّما تمضي الأرانب في دأبٍ في حفر الأرض في كلّ اتجاه، حتى تحفر نفقًا تحتَ الحائط العظيم نفسه، وتتوغّل في حفره، حتى...، وألجم الشّيخ أفكاره، لكن

رغمًا عنه تذكر تلك المشاهد المروّعة التي كانت تباغته في أحلامه، مشاهد التَشرد والعطش والارتجاف، والنّحيب، والمصائر السوداء للمتساقطين تباعًا.

في تلك اللّحظات الكاملة، التي آمن الشيخ جهير فيها أنّه ليس من بعدها شيء، أيّ شيء، كان زعنون خادم أحمد قادمًا من خارج الحي، يتحرّك بالفرس الذي أتعبه السير في الطريق الموحل، متّجها لبيت أمّ ثريا، حاملًا معه القارورة الصغيرة التي فيها قطرات يجب أن توضع في أنف ثريا حتى تفيق.

كان الجرْو قد أرسل الرّجل النحيف ومعه المهبول، ليعرض الخطّة الجديدة على أحمد، فهذه القارورة الصغيرة التي بحجم عقلتي الأصبع، التي دسّها الرجل في كفّ أحمد، كانت تحتوي على عصارة من جذور نباتات مخدّرة شديدة الأثر، إذا وضعت لأحد في طعامه أو شرابه لم يلحظْ طعمها، ولكن تؤدّي إلى أن يدخل في غيبوبة ليومين أو أكثر قليلًا، ثمّ يفيق منها وحده دون أيّ دواء، لكنْ سيقال في الحي إنّ هذه الغيبوبة مميتة، وسيقال إن هناك علاجًا لها لدى طبيبِ الأمير وحده؛ وعرض الجرْو على أحمد من خلال الوسيط أن يسقي أباه منها، فيدخل في غيبوبة مُخيفة يظنّ مَن حوله أنّها ستقتله لا محالة مثلما سيشيعون، أما العلاج الوهمي منها فهو ليس أكثر من قارورة صغيرة من ماء الورد وأشياء أخرى لا تفيد ولا تضرّ، وبما أن أحمد هو ابنه، يتّخذ القرار بأن يحرّر الأسير مقابل الحصول على هذا العلاج، ومن مهابة الشّيخ جهير في الحي، لن يفكر أحدٌ في تعطيل الصّفقة التي تتعلق بحياته، وسيتركون الأمر لابنه وهو أحقّ الناس به. هذا وتعهَّد الجرو من خلال مبعوثه لأحمد بأنّه سيعينه في خطة منفردة رائعة في أمر ثريا.

لقد وافق أحمد، وجعل الرّجل يحمل رسالة بأنّ أباه لن يقوم من نومه في الصبح إن شاء الله، وبعد العصر سيدخل أحمد الواحةَ طالبًا علاج أبيه. لكن ما إنْ مضى الرجل النحيل بعد أن دس له قارورة الغيبوبة، حتّى تذكّر أحمد قصّة الرجل الذي سعى من أجل أن يعالج محبوبته من تساقط شعْرِها، فقتله اللصوصُ وتركوا له خادمه يعود بالعلاج، فقصَّت المرأة شعرها وبكت عليه أربعين عامًا، فتحمَّس جدًّا لأنْ يعيش ولو بالحيلة والكذب ما عاشه هذا الرجل، وأن يسمو في ضمير محبوبته بمثل صنيعِه، ويكبر فيها رغمًا عنها، فاتّخذ قرارًا منفردًا وغيَّر الخطة دون أن يرسل رسالةً إلى الجرْو، وجعلها تخدم الغرضين: تحرير الأمير وتقريبه من محبوبته التي ستذهلها روحُ الفداء التي عنده، فتحايل من خلال أخته التي جلبت غروب، كي تضع عصيرَ الجذور المخدّرة في شيء تشربه ثريا، وشرحتْ لها الخطة بغير لف أو دوران، وأكّدت لها أنّ ثريا ستقوم بغير شك، وأنّ كلّ ما تهدف إليه هي وأخوها أن تعرف ثريا قيمة أحمد، ولم تترك لها هند فرصةً للتردّد أو التهرب، وقالت لها إنّ أحمد ليس لديه من يساعده غيرك، وعليك أنْ تفعلي هذا في أقرب ساعة ممكنة، ومقابل أيّ شيء تطلبينه، أيّ شيء مهما كان، فقالت غروب المكتئبة: أفعلُ هذا، إنْ كنتما تضمنان أنّ غيبوبتها وحزن أمّها عليها لن يدوما أكثر من يومين. ولمّا سألتها هند عن المقابل، قالت بملامحها الكئيبة: ليس لدي ما أريده.

صارتِ الخطّة التي اختارها أحمد، وسيفاجئ الجرو بها، أنْ يذهب إلى الواحة كي يجلب قطرات العلاج لثريا، وليس لأبيه، من عند الطبيب الكبير في الواحة، ذلك العلاج الذي لا قيمة له في الحقيقة، ويأخذ القطرات بالفعل، فيأسره أهلُ الواحة، كي ينتهي الأمر بأقدم طريقة لتحرير الأسرى، وهي رجلٌ برجل، وبالطبع فإنّ الشّيخ جهير سيرضى بغير أيّ تردد أن يطلق سراح الأمير مقابل إطلاق سراح ابنه.

كان الجرْو يقف هو ومجموعة من الرّجال خلف شجرة ضخمة عند بيت الطبيب، ينظرون من خلفها كلّ قليل على باب بيته، وكان الاتّفاق الذي خالفه أحمد دونَ علم الجرو أن يطرق أحمد بابَ الطبيب، ويدخل عليه، ثمّ يخرج بالعلاج الوهمي، وعندما يخرج إلى خادمه وهو فرح جدًّا بالحصول على دواءِ أبيه بهذه السّهولة، يحيطون به، بغير أيّ تهديد، ويقولون له: لقد عرفناك، وسنأخذُ منك هذا الدّواء، فلا حقّ لكم فيه، إلّا أنْ تعود إلى كبار أهلك، وتخبرهم بأنك مسكت دواء أبيك بيدك، وقد أخذوه منك، ولم يعدْ أمامك للحصول عليه لإنقاذ حياته، إلّا أن تعود بالأمير معك.

وعندما خرج أحمد بالقارورة التي بها قطراتُ الأنف الوهميّة، تقدّم نحوه الرجال، فهرع هو إلى الجرْو تاركًا خادمَه بعيدًا قليلًا، وكان قدْ أوصاه بأن لا يقترب منه عند الخروج من بيت الطّبيب، ويترك بينهما مسافة، وأن لا ينضمّ إليه إلّا بعد الخروج من الواحة؛ هرع إلى الجرو وعلى وجهه ابتسامة حياء، بسبب أنّه غير الخطّة، وقال للجرْو: لقد سقيت ثريا، وخفت من أن أسقي أبي. ويمكنك عوضًا عمّا أردت أنْ تأسرني، وتترك هذا الدّواء الذي لا شيء فيه يركض به الخادم إليها.

وهزّ الجرْو رأسه متعجبًا، وأكمل أحمد كلامه: على أنْ لا تسارع إلى الصلح والتبادل غدًا، بل تجعلني في الوثاق ليومين أو ثلاثة، حتّى تعرف ثريا حجم ما ضحّيت به من أجلها، وتتخيلني بعد أنْ تفيق مربوطًا إلى عامود من أعمدة القصر أتجرع العذاب.

ضحك الجرْو: لقد صرت داهيةً فجأة يا صديقي، ما استطعت أنْ تصبر لنبدأ في الخطة الثانية من أجل ثريا، فجعلت من خطّة الدّواء الكاذب خطّة تخدم الغرضين، ورضيت لنفسك أن نأسِرَك، ونطلقِ خادمك بالقارورة إلى بيت ثريا، فتكبر في نظرها، وتخجل من تمنُّعها عليك، ثمّ نبدلك بصاحبنا؛ يا لكَ من مُحب! لا بأس يا صاحبي لا بأس.

وهمسَ الجرْو لواحدٍ من الرّجال الذين اقتربوا من أحمد، وأفهمه ما عليهم فعله، وأشار للبقية بأنْ يطبقوا عليه، فمسكوا به وهم يقولون وقعتَ، فيما كان الذّعر قد دب في عيني الخادم واقترب وهو مؤمن بأنّ سيده قد انكشف. ونظر أحمد فيهم بعينين جاحظتين وهو يمثّل الصدمة والشّعور بالغدر والهلع، وأوثقوه بخشونةٍ مدّعاة وهو يتأوّه كي يبدو الأمر طبيعيًّا، على مرأى من خادمه المفزوع، الذي تقدّم وهو يبكي محاولًا محاولةً بائسة إنقاذه، وقد أذهله البرق في تلك اللّحظات المأساوية، وهزيم الرّعد، اللّذان أضفيا جوًّا كابوسيًّا على الحدث المفاجئ، واحتضن سيّده وهو غارق مع مَن أحاطوا به تحت الأمطار التي هطلت فجأة بكامل شدتها، فأخذوا يضربونه على وجهه كي يفزع ويهرب، لكنّه أصرّ على أن يستنقذه من بين أيديهم، فأوسعوه ضربًا وركلًا وجرًّا من شَعْره حتى تلطّخ في الوحل تمامًا. وأخيرًا وقف بصعوبة، وهو متقطع الأنفاس، والمطرُ يغسل عنه الوحلَ الذي غابت فيه ثيابه وملامحه، وأخذ يلوم سيده على أن خاطرَ بحياته وجاء بقدميْه إلى هنا، فنصحه أحمد وماءُ المطر يضرب وجهه بأن يوفر نفسه لأنّه لا بدّ أن يعود لأبيه؛ ثمّ استعطفهم وتوسّل إليهم أنْ يتركوا خادمه يذهب بالقارورة إلى ثريا من أجل أن تحيا، فسمحوا للخادم بأخذ القارورة إلى أمّ ثريا، فقال له أحمد: قلْ لأمّ ثريا إن أحمد لا يريد أيّ شيء غير أنْ تحيا ثريا، حتّى لو كان الثّمن حياة أحمد، وخذْ لهما عمامتي. وانطلقَ الخادم بالعمامة المبلّلة وبالقارورة وهو يبكي على سيده.

في تلك اللحظات الكاملة، التي آمن الشيخ جهير فيها أنّه ليس من بعدها شيء، أيّ شيء، وأن عباءةَ التّاريخ الجليلة يحيكها أصحابُ الهمم العظيمة مثله، كان زعنون خادم أحمد الذي أوشك أنْ يقف عند بيت أمّ ثريا، وقد أحاط عنقَه بعمامة أحمد، يحمل معه الخبرَ الذي يؤكّد أنّ خيوط التّاريخ الدقيقة، التي لا تُرى إلّا عن قرب، وبنظرٍ حادّ، ينسجها الناس في الحقيقة بشواغلهم البسيطة، وأهوائهم، وأحقادهم، وعُقدهم، وأشدّ رغباتهم سذاجة ودناءة؛ وهم قادرون على الانتصار من أجل أمانيهم الشّخصية، ودوافعهم الخاصّة، على أيّ أحد في الطريق، حتى على آبائهم إنْ لزم الأمر.

ولم يكنِ الشّيخ في تلك اللّحظات الكاملة، وهو يقف بجوار مصلح على درجات السلم كما هما، محتفيًا بعطيّة السّماء التي أكرمته، يدري أنّه بعد قليل، وكما رغب الأمير واختار، سيتقدم ببطء إلى باب السجن من خلف مصلح، بعد أنْ ربط عينيه بعمامته مرّة أخرى، ويقوده وهما يحاولان التغلّب على شعورهما بالحرجِ الشّديد، ليستمرّ مصلح وقتًا وهو يهوي بالمطرقة على القفلِ الثّقيل، بضربات متلاحقة مليئة بالغَيظِ والأسف، بعد أنِ انتهى كلّ شيء، ليكون شررُ الطّرق على هذا القفل أشدَّ خطفًا لقلوب الناس من برق السماء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

رس..

عن الرواية..

الإهْداء

الجِرْو
ليلة الغجريّ
العَطْشى
العنْكبوت
الإغماء
شجرةُ الحنّاء
بطعْم الإثم
سريرُ القرفة
الصّفير
الضّلالة
خمسُ عشرةَ أوقيّة من الذّهب
الخَطفةُ والشّهاب
رائحةُ التّفاح
نشيجُ الجوارح
سرّ الزيارة
النّاقتان المُضيئتان بالليل
المطْرقة